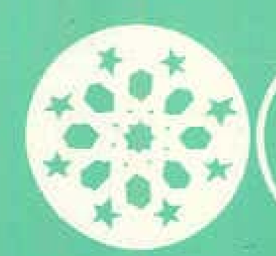




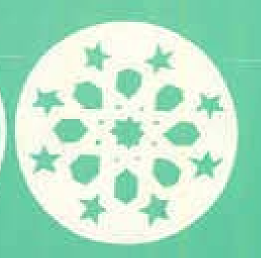
دعوة الحق

• شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

• تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية . الرباط . المغرب



العدد
230





شوال/ ذو القعدة 1403 - يوليوز/غشت 1983

الثمن: 5 دراهم



للشاعر الاستاذ
أحمد عبد السلام البقالي

●● أصبح المغرب في السنوات الأخيرة معقدا لعدد من القمم واللقاءات العربية المصيرية، وأصاخت آذان العالم إلى ما يصنع فيه من قرارات حاسمة تنعكس نتائجها على السياسة الدولية سلبا وإيجابا.

كما شهدت ساحته، في الأشهر القليلة الماضية، خطوات رزينة على درب العودة إلى بناء المغرب العربي الكبير، فتنفست شعوبه الصعداء، بعد سنوات من الفرقة أذكاها عدونا المشترك وغذاها بالعداوة والبغضاء، فعادت الطمأنينة إلى القلوب، والأمن إلى النفوس.

وفي هذه القصيدة ـ النشيد يحيي شاعر المغرب الكبير الأستاذ أحمد عبد السلام البقالي، الذي غنى للوحدة المغربية والعربية أغاريد ما تزال تتردد أصداؤها في سماء القاهرة والشرق العربي، أيام دراسته هناك، يحيي هذه الروح التي بعثت من جديد في أمتنا العربية.. روح الوحدة التي يعدها أول ضربة لكسر الحلقة المفرغة التي تدور الأمة العربية فيها، وأول خطوة في طريق الحرية، والكرامة، والنصر والنماء ●●

التحرير

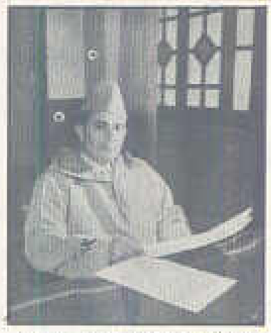
أشرقت في الأفق شمس العـــــرب
وجلا عنا ظلام الحقـــــــب
فخذوا الشعلة وامضوا قدمـــــا
وارفعوها فوق هام الشهـــــب
شعلة العلم التي كانت لنـــــا
وانطفت، عادت لتمحو ليلنـــــا
بضياء لم نزل نذكــــــره
بهر الدنيا، وأعشى الأعينـــــا
ياسماء المغرب الأقصى الأبـــــي
باركي كل لقاء عربـــــي
واجعليه بذرة ميمونـــــة
تنبت البشرى بعصر ذهبـــــي
امطري الأنفس أمنا وهنـــــاء
واملإي الأعين نورا وبهـــــاء
وقلوب العرب حبا وإخـــــاء
وابعثي الإيمان فيها والرجـــــاء
أمل الأمة في وحدتهـــــا
هي للعرب حياة وبقـــــاء
لم يعد ثم خيار.. إنهـــــا
وحدة تجمع قومي أو فنـــــاء

نحن بالوحدة أقوى وأشـــــد
لا بمال، أو سلاح، أو عـــــدد
فلنقف صفا قويا واحـــــدا
صامدا يسبر أغوار الأبـــــد
آمنوا بالله يشدد أزركـــــم
ويزدكم من لدنه رشـــــدا
وانصروه.. إنكم «إن تنصـــــروا
الله ينصركم» فتزدادوا هـــــدى
لن تنالوا (القدس) حتى تنفقـــــوا
من دم القلب، ونور البصـــــر
في سبيل الوحدة الكبرى التـــــي
هي تحقيق لأسمى وطـــــر
وفلسطين التي تنتظـــــر
وحدة في ظلها تنتصـــــر
«فيد الله مع الجمع» فـــــإن
شئتمو، يا عرب، شاء القـــــدر
قسما بالله، لن نتركهـــــا
أبدا تصرخ : «وامعتصمـــــاه»
كلنا معتصم من أجلهـــــا
يبذل النفس، ولا يرجو الحيـــــاة

دعوة الحق

شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية
الرباط. المملكة المغربية



أسسها، جلالة المغفور لــه محمد الخامس
قدس الله روحه
سنة
1376 هـ — 1957م

التحرير:
الهاتف: 601.85

الإدارة و التوزيع
636.93
627.03
627.04
608.10

*

الاشتراكات: في المملكة المغربية: 55 درهماً
في البلاد العربية: 67 درهماً
في العالم: 77 درهماً

الحساب البريدي: رقم 55-485. الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55
à Rabat

● المقالات المنشورة في هذه المجلة تعبر عن رأي كاتبيها ولا تلزم المجلة أو الوزارة التي تصدرها ●

هذا العدد

●● ما هو المفهوم المهني للأعداد الممتازة ؟ لقد حرصنا أن يكون هذا العدد غير عادي، وخططنا له منذ ثلاثة أشهر، وقصدنا الى أن يتضمن ملفا كاملا لندوة علمية عالمية احتضنها المغرب مؤخرا ودارت حول موضوع الوقف، شارك فيها مفكرون ودارسون من مختلف البلاد العربية والاسلامية.

●● ولا شك أن نشر هذا الملف يعد عملا إعلاميا توثيقيا متميزا، نظرا لأهمية (ندوة الأوقاف في العالم العربي والإسلامي) التي حفلت بالبحوث الممتازة والدراسات المعمقة.

● وكنا ولا نزال نعتقد دائما أن الأعداد الممتازة هي تلك التي تتضمن أثرا ذا أهمية استثنائية، وتحتوي على مضمون علمي يثري الحياة الفكرية، والثقافية، ولذلك حرصنا على أن يكون العدد الصادر في شهري يوليوز وغشت في هذا المستوى الرفيع.

● ويصدر هذا العدد، بين عيدين، عيد الشباب الذي خلد هذه السنة الذكرى الرابعة والخمسين لميلاد محرر المغرب وموحد صفوفه جلالة الملك الحسن الثاني، وعيد ثورة الملك والشعب، التي أخرجت المغرب ـ بمشيئة الله ـ من ظلمات الحجر والعبودية والاحتلال الى نور الحرية والاستقلال والكرامة.

● وهما عيدان متميزان يرمزان الى معان سامية ويجسمان مواقف وملاحم خالدة ذلك أن جلالة الملك الحسن الثاني هو نفسه ثورة ممتدة ومستمرة ، وهو وريث ثورة الملك والشعب، وهو حامي هذه الثورة، وهو ضامن استمرار وتواصل إشعاعها، وهو رمزها المثقل بالدلالات الحضارية.

●● وباعتبار هذه المجلة منبرا للفكر الإسلامي ـ الذي يرعاه عاهل هذه البلاد العظيم ـ فان خير ما تقدمه لقرائها بهاتين المناسبتين هو هذا الملف العلمي عن (الوقف في الإسلام) الذي نضعه بين أيدي الباحثين والدارسين من أبنائنا طلاب الجامعات والمعاهد العليا.

●● ويضم هذا العدد ملفا آخر عن أحد خدام العرش في هذه البلاد هو الشاعر المبدع العلامة السيد عبد الرحمان الدكالي، وذلك بمناسبة الذكرى الأربعينية لوفاته، وأهمية هذا الملف تأتي من خصوصية الأقلام المشاركة فيه، وهي أقلام الصفوة والطبقة الاولى من أعلام المغرب.

● فلندع القارىء مع العدد 230.....

رئيس التحرير

بسم الله الرحمن الرحيم

الذكرى الثلاثون لثورة الملك والشعب



●● تمثلت في موقف العرش من أحداث سنة 1953 بالمغرب العبقرية المغربية الساطعة في مجابهة الواقع ورفض الضيم والخنوع ونشدان الحرية والكرامة والاعتزاز بالشرعية والتمسك بها. فلقد جابه محمد الخامس، وهو في موقع حصار، وموقف ضعف مادي ملموس، كافة المخططات الاستعمارية مؤكدا أن العرش فوق التآمر، وأن الملك رمز السيادة، وأن أمانة التاريخ لن تكون أبدا محل مساومة وأخذ ورد. وكان منطلق محمد الخامس، في كل سكناته وحركاته، وفي كل مواقفه وتصرفاته منطلقا اسلاميا قرآنيا ربانيا. ولذلك وجدناه يقتحم المجهول بقلب مؤمن ويأبى أن يكون أداة طيعة في يد المستعمر يديرها كيف يشاء. لقد كان محمد الخامس ملكا ليس كالملوك وزعيم شعب عز نظيره في العالم. وجاءت تضحياته (دليلا ساطعا) على أن الملكية في المغرب ليست مؤسسة سياسية أو نظاما للحكم فحسب ولكنها عقيدة يؤمن بها الشعب وجزء لا يتجزأ من تراثه الحضاري ووجوده المادي والمعنوي. وهذا، بمختلف المقاييس أرسخ قاعدة واقوى صلابة وأبعد أثرا في حياة الشعب. وبذلك دخل يوم 20 غشت سنة 1953 تاريخ المغرب والعروبة والاسلام لما رمز اليه من وفاء وتضحية وتفان في الدفاع عن مقدسات شعب تعلق بالحرية وشغف قلبه بها ولاء وانتماء واستيحاء.

● لقد أراد المستعمر من العرش المغربي أن يكون مجرد أداة للتنفيذ، قاصدا بذلك الخروج عن الرسالة التاريخية التي تحملها هذا العرش وكان بها دائما قائدا وذائدا ورائدا، وجعلت منه على الدوام قدوة وأسوة ومثالا، وربطت به مصير البلاد فكان رباط حب ورحمة وولاء. والذي حدث يوم

إفتتاحية



20 غشت 1953 ان الملك الشرعي للبلاد رفض أن يتخلى عن هذا الدور القيادي الذي جعل من العرش المغربي نظاما متميزا يستمد شرعيته المتعاقبة جيلا بعد جيل من البيعة القائمة على الوعي الوطني الشامل بمكانة الملك في حياة المغاربة ليس فقط كرئيس للدولة وانما كامير للمؤمنين، وحامي حمى الدين والوطن والكيان والوجود والحضارة والتراث واللغة والوحدة والسيادة. وكان هذا الموقف حدا فاصلا بين عهدين، وبداية النهاية للوجود الاستعماري ببلادنا، ودرسا نضاليا للاجيال التي تعاقبت بعد ذلك. وقبل هذا وذاك، كان يوم 20 غشت المدرسة الوطنية التي تخرج منها قائد المغرب ورائد نهضته ومحرر صحرائه وموحد صفوفه، جلالة الملك الحسن الثاني.

●● ان ثورة الملك والشعب برموزها ودروسها ومعانيها وقيمها أمدت المغرب باشعاع مستمر وأعطت للحركة الوطنية وللجهاد الوطني المتواصل تلك الشحنات المتعاقبة التي بثت في دماء المغاربة جميعا روح العزم والحزم وقوة الارادة والفعالية. وبثورة الملك والشعب كان يوم 16 نوفمبر 1955، ويوم 2 مارس 1956، ويوم 6 نوفمبر 1975، ويوم 28 فبراير 1976، ويوم 14 غشت 1979. ونحن نستطيع أن نمضي على هذا القياس فنقول ان اللبنة الاولى في مغرب اليوم ونهضة الحاضر ومسيرة هذا الجيل وضعت أول ما وضعت يوم 20 غشت سنة 1953، مما يثبت تسلسل المعارك وترابط المواقف ويؤكد تلاحم العرش بالشعب.

● ان ثورة الملك والشعب، وقد أحدثت كل هذا الاثر الباقي، تمثلت رمزا في ضمير كل مواطن واستوت شعارا يتبناه جلالة الملك الحسن الثاني اليوم ويعمل جاهدا مجاهدا ليجعل منه غدا بمشيئة الله مستقبلا زاهرا مشرقا.

●● فعلى بركة الله يسير المغرب مقتديا مهتديا مقتفيا أثر ثورة الملك والشعب جاعلا منها، بقيادة عاهله الملهم ثورة دائمة الاشعاع والفاعلية والتاثير في حياة الوطن والمواطنين.

● وهذا هو المعنى الكبير الذي يتمثل لنا بوضوح كامل في الذكرى الثلاثين لثورة الملك والشعب المغربية الاسلامية.

وهو معنى باق وخالد ومستمر.

عبد القادر الإدريسي

تأملات ومراجعات حول

قمة فاس التاريخية

للأستاذ حمداتي ماء العينين

استهدف العرب من عهد بزوغ شمس الإسلام على البشرية من أرضهم، وشرفهم بالأسقفة الى دخوله زرافات، ووحدانا، وما من مرة استهدفوا إلا وانتصروا إذا تم اجتماعهم على خطة واحدة، وعلى مطلب واحد.

إلا في قضية زرع دويلة اسرائيل في جسم البلاد العربية، التي أن اعتمدت على الظهور للعالم بمظهر الضعيف المضطهد المهدد، فانها على ساحة تواجدها بالمنطقة عبرت كل مسالك القهر والإبتزاز والهيمنة والإكراه لاجتثاث كل ما يعتبر جذور شعب فلسطين العربي المسلم.

ففي كل مرة من سنة 1948 يقوم المتسلط الإسرائيلي باعتداء على الأمة العربية، يحصل على كل، أو جزء أهدافه، كان يقابل بسلبيات سرعان ما يتمخض عنها موقف دولي، إذا كان مخيبا للآمال من حيث اجماع العالم على مواجهة انتزاع الحقوق، بالقوة، بالنسبة للشعوب العربية، فانه على العكس من ذلك كان يخلف لدى اسرائيل مكاسب مهمة، لأنه ينقلب إلى اضفاء الشرعية على ما انتزعته بواسطة الإعتداءات الغادرة تحت غطاء مسابقة الأحداث للعمل على بقاء الوجود، في الفترات السابقة.

ويمكن الإستدلال على هذا الواقع بالمبررات التالية :

1 ـ قرار التقسيم 1948 رفضه العرب بأنه انتزع منهم حق المشورة وحق الرأى في شأن أراضيهم، وفرض عليهم فوقها زرع نظام يرتكز على عنصرية عقائدية تحميها وتنشئها أيادى أجنبية، كي تصبح عامل زعزعة لأمن واستقرار منطقة اكتشف آنذاك أنها تختزن جل مصادر الطاقة العالمية، ومن أجل أن لا يترك لأهلها مجال لاستفادة مما تتوفر عليه أرغموا على تحمل ما لا طاقة لهم عليه.

2 ـ رفض العرب قرار التقسيم وأصروا كلاميا على الدفاع عن الشرف والكرامة، ومحاولة استرجاع الأراضي، وانصاف من شرد منهم برجوعه إلى دياره وأرضه.

ولم يمض إلا وقت قصير حتى تبين أن بقاء العرب متحدين عقائديا، ومستقرين سياسيا من شأنه أن يعجل بتفكير منتج في سبيل استعادة الحق العربي بالسلم، أو بالحرب ولصدهم عن ذلك تفجرت مواجهتهم هذه المرة من صميم أنفسهم، فتساقطت الأنظمة الواحد تلو الأخرى، وانتشرت المذاهب المتناقضة، وتخلوا عن كل قاسم مشترك يجمع بينهم، عقائديا وقوميا وحتى سياسيا، وانتقل العمل

العربي إلى خدمة الأهداف المستوردة أيديولوجيا. فأصبح طرح المشكلة الفلسطينية، ينطلق من مبدأ خدمة هذا الطرح لتعميق معسكر، أو تيار معين في المنطقة وأخذ كل واحد يمسك بطرف خيوط محاولة التسوية ليجر عجلتها إلى الساحة. التي يكون فيها تحرك تلك العجلة يخدم مصلحة جهة أجنبية، قبل مصلحة أصحاب القضية.

وقبل أن يتكيف المواطن العربي مع تناقضات الساحة العربية، وجد نفسه مرة ثانية تحت أزيز وهدير طائرات، ودبابات حرب العدوان الثلاثي ليخلف تعديلا في الحدود يعمق فداحة الظلم في نفس كل مواطن من الشعب العربي. ويفقده بعضا عن الأمل في إجماع القوة العالمية على ضرورة مراعاة الشرعية ولكنه يحقق لاسرائيل باكورة اضفاء شرعية دولية مفروضة من أجل الابتلاع والسيطرة وضمان استمرار تعديل الحدود لصالح ضمان الأرض المتزايدة كلما دعت ضرورة حماية أمن اسرائيل إلى ذلك، ومن ذلك التاريخ أصبح المحبون للسلام أصدقاء العرب أقوياء أو ضعفاء لا ينادون إلا برجوع اسرائيل إلى حدود 1948.

ولكي لا يكون للعرب دور مؤثر وفاعل في الأحداث تصارع على امتداد الساحة العربية جميع المذاهب، والعقائد الروحية والسياسية، وحتى العسكرية، معمقة. كل أساليب الفرقة والشك والحذر بين أبناء الشعب الواحد، ليتعدى الأمر اختلاف الأنظمة، وتنوع المنظور السياسي والإجتماعي والإقتصادي ليعمل على تأصيل مزيد من العداء بين الحكومات العربية، وبسبب كل تلك الرواسب تولدت السلبيات التالية :

1 ـ تناقضات يستحيل الجمع بينها أصبحت ماثلة في كل مرة عبر طرح المشكل عربيا على المنابر الدولية.

2 ـ محاولة فرض الحل انطلاقا من تحكم مذهب سياسي معين، وبمحاولة صهر الكل في مضمونه، ولو كان لا يؤدي في النهاية إلا إلى استبدال حكم أجنبي أصبح مدانا من طرف الكل ليحل محله آخر لا زال متقمصا بالشعارات. الجوفاء التي لم تنجح في شيء الا في بسط أقنعة متنوعة على ما تحمله من سلبيات.

3 ـ حشد كل الطاقات العربية لمواجهة الأشقاء العرب قبل الخصم الإسرائيلي ابتداء من حرب اليمن، ومرورا بكل التقتيل الذي تجرعه الفلسطينيون على الحدود التي ينطلقون منها لقتال اسرائيل، ليصل مسلسل المؤامرات العربية القذرة إلى ما يواجه المغرب من اعتداءات على أراضيه الصحراوية، بدون مبرر سوى مبرر واحد، هو أنه استرجع أرضه. وأنهى حالة التأهب التي كانت تترك احتمالا وشيك الوقوع بأن يدخل الجيش العربي في المغرب مع جيش أوربي على هذا الجناح من الأمة العربية، وحتى لا يصبح ذلك التأهب المدعوم بخبرة وشجاعة المقاتل المغربي، مكرسا لمواجهة العدو الإسرائيلي حيل بينه مع ذلك لصالح إسرائيل. ولكن على يد عربيه الإنتماء صهيونية التصرف جعلوا من مبدإ تشتيت الدول العربية، واختزال أراضيها شعار تحركهم، الذي لا يمكن للأجيال المنصفة فصله وفرزه في مدلول القاموس السياسي عن العمالة المكشوفة لتنفيذ المخطط الصهيوني في إطار أحد روافده المتنوعة الأساليب والمناهج.

4 ـ الإنطلاق في مجال الطرح السياسي للمشكلة العربية، من تصورات مستوردة تخدم كما سلف مذاهب، ومصالح متنوعة بدل خطة عربية صميمة.

أمام ما يجمع العرب من نقط الالتقاء التي تشكل قاسما مشتركا جديدا يرفعهم إلى مستوى يحتم عليهم نبذ الخلافات وتجاوز كل العقبات فبحكم تلك السلبيات أصبحت كل معطيات الوحدة، من قومية ومصالح مشتركة وعقيدة ولغة وآمال ورغبة الشعب العربي في إرجاع وحدته التي أعطته السابقة الحضارية التي لا زالت مضرب الأمثال رغم قصر مدتها. فبحكم كل تلك السلبيات التي تأصلت في كل اللقاءات العربية أصبح العرب لا يخرجون منها إلا بمتناقضات أوسع شقة مما كان عليه الأمر منذ قبل.

استفادة اسرائيل من تلك السلبيات

وبقدر ما كان العرب بعيدين عن القدرة على معرفة الطرق التي يسلكونها لاسترجاع حقوقهم المشروعة والثابتة، بقدر ما كان الإسرائيليون يحسنون استخدام أكثر من وسيلة

للإستفادة من سلبيات، وتناقضات المواقف العربية، ليصلوا بها، وعن طريقها إلى طمس معالم الحق العربي، واضفاء إن لم نقل شرعية دولية مغلوطة وظالمة على مواقفهم المنحرفة فإنهم بالتأكيد كانوا يصلون إلى انتزاع السكوت الدولي، عما جنوه في كل مراحلهم السابقة، فحرب 1967 مكنتهم سلبيات المنظور السياسي العربي عن طريقها من أن تكون نتائجها بالنسبة إليهم بداية عهد جديد إذ أصبحت أصوات الأمم المتحدة في أعدل مواقفها تجاه ضمان حقوق الشعوب لا تنطلق إلا إلى مطالبة اسرائيل بالإنسحاب إلى حدود ما قبل 67 لتصبح قرارات الأمم المتحدة سنة 1948 لا قيمة لها لأنها نسخت بحكم الإنتصار العسكري الإسرائيلي الغادر على الأمة العربية.

ثم أتت حرب رمضان، ولم يستطع الإنتصار العسكرى العربي النسبي، أن يغير من الأمر شيئا، لأن المؤسسة الحربية الصهيونية ومنهم خلفها، وبشهادة بعضهم استطاعوا تمديد الحرب حتى تختزل اسرائيل أراضي جديدة لتصبح محل تفاوض يجعل حدود 67 وليس ما قبلها هي المطلب.

وتتنوع أساليب العمل الإسرائيلي المنظم في مواجهة السلبيات العربية المتنافية ليصل الكل إلى مأساة بيروت مرورا باتفاقيات كامب دافيد وما اكتنفها من ملابسات، ذهب فيها السادات إلى أبعد مما يصل إليه الخيال في كل ما من شأنه أن ينهي الأمل في اتخاذ القرار العربي الموحد، وأيضا ولى وجهه شطر الجهة التي لا يمكن أن يلوح في أفقها ولو من بعيد شيء إسمه حق الشعب الفلسطيني عن طريق ما تعارف الناس على تسميته بالكرامة والشرف.

وفي مقابل ذلك لم يحسن العرب استخدام الوسائل التي أعدوها لمؤاخذة السادات، إذ أنزلوا كل ثقلهم في الساحة لتكون المؤاخذة لشعب مصر المكافح الغيور، والذي ما تخلف عن دوره في القيادة أثناء كل تحرك يخدم الحق العربي على مختلف الواجهات والأصعدة. بدل مواجهة الشخص المسؤول نفسه وبهذا الإجراء المتسرع في نظرى قدم العرب للسادات دعم أكثرية فصائل الشعب العربي بمصر المناضلة، معطلين بذلك محركا أساسيا لكثير من واجهات النضال العربي في سبيل العزة والكرامة العربيه عبر التاريخ.

وأيضا لم تكن نتائج كامب دافيد برغم إدانتهم لها عاملا على استعادة الوحدة ورأب الصدع، ولم شعث ما بقي من الجمع العربي بعد مصر، التي أصبحت تتحرك منفردة، وحسب منظور يخصها وحدها، بل على العكس من ذلك، فقد تفجرت الصراعات العربية بشكل لم يسبق له مثيل وحيكت المؤامرات، وبعثت الفرق الإنتحارية، وتناقضت المواقف، وتضاربت الأقوال، فوقعت المؤامرة على تونس، التي دأبت على أن تعطي للأمة العربية، أكبر من حجمها.

فأحداث قفصة ليست ببعيدة، وارتكبت أفدح مؤامرة على الحجيج فأعيث فيه تقتيلا ونهبا وتخويفا على طريقة لم يعرف لها الإسلام مثيلا بعد القرامطة من خلال قصتهم الشهيرة مع بيت الله الحرام وحجاجه.

ثم أتت قضية الحرب العراقية الإيرانية التي إن لم يكن أى مسلم لا يحبذها، ولا يتمنى دوامها فإن أي عربي مسلم لا يمكن أن يسلم بسببها في الحق العربي في استرجاع الأرض العربية، لذا يكون من الجرم الإسلامي إعانة الظالم، ومن قطع الرحيم العربي الإسلامي أن يوجد عربي يتجاهل ذلك الحق ليناصر من ظلموا العراق المسلمة من أجل طمس كل معالم الحق العربي، من شط العرب، والمدن والأراضي، التي اغتصبتها ايران، في وقت كان الكل يعلم ماذا يراد من ايران في المنطقة، وأتى نظام الخميني ليكرس التمادى في تجاهل الحق العربي، واهانة العرب، ومحاولة زعزعة أنظمتهم في كل مكان، وكان الإسلام أصبح من مبادئه إزالة كل الأنظمة العربية لتشيع الفتنة التي هي أشد من القتل في المجتمع الإسلامي العربي.

أما هنا في المغرب، فإذا جمعت كل تلك المؤامرات فإنها لا توازى حجم ولا ظلم المؤامرة، التي حيكت عليه لا لشيء كما سلف سوى أنه استرجع أرضا مغربية من يد مستعمر غاصب، كان يحاول أن يزرع بواسطتها وكما هو الشأن في منطقة المشرق العربي، جسما غريبا بالمغرب العربي، ليتمكن أيضا وعن طريقه استقبالا، من التحكم إذا

لم يكن في كل قدرات المنطقة فعلى الأقل من زعزعة أمنها في كل لحظة وعندما تدعو مصلحة جهة أجنبية لذلك. ولتكون أيضا محل مقايضات بين الجهات الأجنبية خلال تحديد أماكن النفوذ الهادفة إلى جعل العرب تابعين ومتناحرين أبد الدهر.

المواجهـــة

دأب جلالة الملك الحسن الثاني بتعاون مع أشقائه الملوك والرؤساء المومنين بالحق العربي في إطار نضال عربي خالص يراد به استرجاع الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني دون وصاية. ولا تبعية ولا حتى محاولة استرجاع ذلك الحق على طريقة تكرس تحكم هذا الطرف أو ذاك في مستقبل هذا الشعب المظلوم. ولكنه برغم ذلك سلك كل معايير النضال ووقف كل مواقف الصمود من أجل انتزاع حقه واسترجاع كرامته، وتكوين دولة على أرضه السليبة.

فحسيدا لهذا الإيمان دعى جلالته لأول مؤتمر إسلامي يعقد في التاريخ خصص لقضية المسجد الأقصى.

ثم دعى إلى مؤتمر القمة العربي 74 الذي كان مصدر القرار العربي. الذي شكل منعطفا جديدا لصالح القضية العربية باعتباره منظمة التحرير الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني المناضل.

وأيضا قبل بجدارة ونضال مستمر رئاسة لجنة القدس التي وضعت القضية في مسارها السياسي الصحيح بصفتها تهم كل المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

وانطلاقا من تلك المسؤولية ومحاولة لتحريك الوضع الذي أصبحت الأيام لا تزيده إلا تعقيدا، وابتعادا عن ساعة الخلاص الفلسطيني دعى نصره الله إلى مؤتمر قمة فاس الأولى. والتي أصبحت أمامها ولأول مرة خطة عربية بعيدة المرامي سليمة التفكير وطنية المنبع، متحاشية لكل أنواع الغوغاء والمهاترات، التي أثبتت الأيام عقمها، وسلبية التشبث بها.

لقد وضعت أمام المؤتمر تلك الخطة ماثلة في مبادرة جلالة الملك فهد بن عبد العزيز ولي عهد المملكة العربية السعودية آنذاك.

وكما هي العادة استأسد البعض أثناء تواجده في قاعات المؤتمر وليس في الخطوط الأمامية. ليقف في وجه كل حل متعقل من شأنه أن يخفف من معاناة الشعب الفلسطيني، ويضمن استرجاعه لحقوقه عن طريق أقصر الطرق التي يمكن أن تؤدى إلى ذلك الحق.

ومن منطلق بعيد الرؤى أيضا ممعن في استقطاب كل أوراق لعبة السياسة الدولية، وتحريك الرابح منها في الوقت المناسب وعلى الساحة المجدية، وبقرار لم يستطع الكل فهم بعده. ولا حتى التكهن بما يمكن، أن ينجم عنه أعلن رئيس المؤتمر تأجيل الشطر الثاني إلى موعد لاحق.

وقام قصار النظر من المراهقين السياسيين الذين ابتلي بهم المجتمع العربي في هاته الفترة الخطيرة من تاريخه ينفخون في أبواق الدعاية في كل جهة، وبأكثر من أسلوب، ويتشفون على أنفسهم ليعلنوا أن مؤتمر فاس فشل، وأن خطة فهد لم تنجح أيضا.

وخلال ظرف وجيز جدا تلاحقت الأزمات، واجتاح الجهات المعادية للعرب اقتناع جعلهم يحكمون بأن الأمة العربية فقدت شيئا اسمه الإتفاق. وأن اسرائيل ومن يدعمها ممن يغمرهم حقد دفين على العرب، لم يبق أمامهم سوى جولة، لا تزيد في أبعد تقدير على ست ساعات يباد خلالها جميع الفلسطينيين. في بيروت عن طريق هجمة لم تعرف الإنسانية أبشع منها. ولم تظهر غطرسة إسرائيل في يوم من أيامها بأسلوب أفظع منها هادفة إلى ابادة الفلسطينيين وجعل حدود ما قبل 16 غشت هي التي ينبغي أن تنسحب إليها اسرائيل. لتنتهي المشكلة. واذا كانت حسابات الخصوم استطاعت احتواء كل الوسائل العسكرية المتوفرة لدى جميع أطراف القضية. فإن عاملين رئيسيين. لم يحسب لهما حساب. مما جعل كل نتائج المعادلة فاسدة. لأنها انطلقت من قاعدة فاسدة أيضا. والعاملان هما : بسالة المناضل الفلسطيني. وإيمانه بعدالة قضيته. واستعداده للموت في سبيلها.

أما العامل الثاني فهو، أن ارادة الشعوب خلف قادتها المخلصين لا يمكن اجتثاثها بواسطة كل وسائل الدمار ولا حتى باشاعة كل وسائل الفرقة العابرة.

نتائج مؤتمر فـــــاس

في جو هذا المناخ الزاخر بالتعقيدات المليء عبر التاريخ بالمثبطات، والمكفهر حاضرا بكل ما من شأنه، أن يخيب الآمال ويحول دون ابراز فكرة تجمع العرب، وتجعلهم يخرجون ولأول مرة في تاريخ القضية الفلسطينية بميثاق يظهر للعالم مجتمعا عربيا يمكن القول أنه جديد في تفكيريه، وأسلوبه، ونظرته الواقعية البعيدة.

في هذا الوقت الحرج بادر جلالة الملك الحسن الثاني بعبقريته النادرة، ومواقفه الشجاعة، وواقعيته المألوفة، وبالالهام الرباني الذي يصاحبه بادر جلالته باستدعاء مؤتمر قمة فاس لانهاء الشطر الثاني من أعماله. وأبعد ما تصوره الصديق والعدو يوم اعلان الفكرة هو أن يكتتب لاجتماع وزراء الخارجية أن يتم اما أن ينعقد مؤتمر قمة عربي بالمغرب رغم أنف الأعداء البارزين والمستترين، فهذا من باب المستحيل، وحتى اذا تم عقد مؤتمر عربي، فالكل يجمع على أنه سيكون من قبيل المؤتمرات العربية خطب رنانة، وبيانات جوفاء، أهم ما فيها هو أنها تخدر أفكار وشعور أبناء الأمة العربية، بمبادىء تجلب عداء الآخرين، ويستحيل تطبيقها على الأصدقاء والأقربين.

وبالتالي تحقق اسرائيل ومن يدفعونها أنها ستجني من وراء مؤتمر كهذا مكاسب تضفي شرعية دولية على اعتدائها على اللبنانيين والفلسطينيين وتدفع أعداء العرب الى تفكير جديد لحبك خيوط مؤامرة أخرى، لضرب جزء آخر من الأمة العربية تحت المبررات الظالمة، التي كانت تجد آذانا صاغية من البعض بدليل أن اسرائيل سترمى في البحر، ومن يريد أن يرميك في البحر فلا تلام اذا واجهته دفاعا عن نفسك على ساحل هذا البحر.

وأخيرا جاءت المعجزة فعقد المؤتمر، وسحبت منه الخطب، وتبعها العمل الإعلامي، وشدت قلوب عشرات الملايين من الأمة العربية الى قاعة الإجتماعات بفاس التي بدأ هذه المرة أنها سيخرج عنها شيء لم يكن في الحسبان وانتظر العالم، وأصبحت ساعات المؤتمر ينتظرها الناس وكأنها سنوات، وفي النهاية أتت النتائج تتجاوز في ايجابياتها كل الآمال التي كانت الأمة العربية والضالعون في فلكها من المحبين للسلام المنصف العادل، يتوقعونها وفي نفس الوقت، كسرت كل التصورات، المبنية على تجارب سابقة في مؤتمرات عربية، كان العدو بواسطتها يعد خطة المواجهة، حتى قبل انعقاد المؤتمرات العربية، لأنه مدرك لكل جوانب الساحة التي سيتحركون فيها.

وهكذا تغيرت نظرة الكل الى العرب، الذين أصبح بأيديهم ابتداء من الجلسة الأخيرة لمؤتمر فاس ميثاق يحدد للعالم ما يريدون، ويرسم لهم هم أنفسهم معالم الطريق التي ينبغي أن يسلكوا ويمكنهم من ضبط أسباب الوفاق والخلاف على قضية جمعتهم آلامها أكثر من مرة وفرقهم تنوع منظورهم اليها أكثر من مرة أيضا.

ومن هنا أصبح مؤتمر فاس سيكون من أهم الإنجازات الدولية في تحديد الطريق الصحيحة للمسيرة البشرية خلال القرن 20، فلا الأمم المتحدة ولا المنظمات التابعة لها، اقليمية كانت أو دولية، ولا المفكرون أثناء تحليلهم للمشاكل المزمنة، التي تشكل أماكن الإلتهاب على جبين وجه الكرة الأرضية، ولا وسائل الإستخبارات مهما كانت صادقة مخلصة، أو ماكرة متحايلة، ولا مصادر القوة عسكرية كانت أو اقتصادية استطاع كل تلك الوسائل وبعضها أن يصدر في قضية واحدة بيانا يتضمن مبادىء لحل قضية من القضايا العالمية نال حظوة الشرق والغرب قبل بيان فاس الخالد البيان الذي استطاع التعامل مع كل المتناقضات مع الحفاظ الكامل والتام على كل المبادىء والمقدسات.

ومن هنا لا يكون المرء مغاليا اذا حكم بعيدا عن التحيز مجردا من أي مؤثر غير التمسك بالحقيقة وحدها اذا قال بأن جلالة الحسن الثاني كان من أعظم رجال قرنه ووحيد أمته، وحكيم ظروفه، مخلدا مدعوما بمواقف المعتدلين المتعلقين من أشقائه ملوك ورؤساء الأمة العربية تحولا في اتجاه مسار المنطقة العربية سيقف التاريخ عنده

طويلا ممجدا مواقف التعقل والحكمة والشجاعة ابتداء من مبادرة فهد الحكيمة إلى نتائج قمة فاس الرائعة بقيادة وتسيير جلالة الحسن الثاني الذي ستذكر له أجيال هذه الأمة ما بقي لها وجود ومواقفه التي سجلها بمداد من الفخر على صفحات تاريخ النضال والجهاد.

وأيضا سيبقى قادة الأمة العربية أمام مسؤولياتهم التاريخية التي لا يمكن لأي منهم التملص منها حتى يتم تطبيق المبادىء التي تضمنها ميثاق فاس. الذي أعطى للشعب العربي القاعدة الثابتة ليحكم بواسطتها على المخلصين باخلاصهم، ويحاسب الخائنين على خيانتهم.

حمداتي ماء العينين

إستدراك

ورد في الكلمة التي سلف نشرها بالعدد السابق بيت هكذا :

«انا لم أكن للمجد إن   لم أبتني للمجد مجدا»

فلعل قارئنا يعترض على «أبتني» التي لم تتأثر بحرف الجزم قبلها.

والجواب أن ذلك كذلك، كما هو في قول الشاعر :

«ألم ياتيك والأنباء تنمى   بما فعلت قلوص بني زياد»

فقد استشهد بهذا البيت على إهمال «لم» فيه.

والواقع أنها غير مهملة، ولكن الضرورة جعلتها بتلك الصورة، كما جعلت «لك» تنطق «لاك» في بيت امرىء القيس :

الا رب يوم لك منهن صالح   ولا سيما يوم بدارة جلجل

محمد بن تاويت

في ذكرى 20 غشت 1953

للأستاذ قدور الورطاسي

تتوالى السنون والشهور والأيام على «ثورة الملك والشعب» سنة 1953م ولا يقترب النسيان من الذاكرة لهذه الثورة المباركة.

ذلك لأنها كانت انتفاضة ملكية شعبية عمت أطراف المملكة وترددت أصداؤها خارج الحدود الوطنية بصفة لم يتقدم لها مثيل في انتفاضات شعوب العالم أجمع.

فلقد كانت من أعظم آيات وحدة الملك والشعب في عالم النضال في سبيل العزة والكرامة.

ففي سنة 1953م بلغ الغرور من أقطاب الاستعمار إلى منتهى آفاقه، فما كان منه إلا أن امتدت يده الأثيمة إلى سيد البلاد وأشبال سيد البلاد : محمد الخامس وامرائه وأميراته الأبرار.

لقد أغراه خيال أنانيته، وغرته تصاميم فقهائه بتحويل المغرب الأقصى إلى مزرعة من مزارعه، فتحلبت أفواهه إلى سيادة مطلقة على المغرب الأقصى الذي هو منبت الأبطال، ومعقل العروبة والإسلام وطينة العزة الخالدة التي تتأبى على الأخطار والأيام.

عمد الاستعمار إلى نخبة أبطال الدفاع عن حمى الله، وحمى الوطن وحمى العرش فملأ منهم المقابر، والسجون، ومكاتب التعذيب، واقاصي المنافي، فشعر - مغرورا - بأن الجو قد خلا له ليقضي على سيد البلاد ورمز عزتها وكرامتها، ودينها وعروبتها وأمجادها التي لن تخلق ولن تبلى على مدى القرون بحول الله وقوته وغاب عن عقله - إن كان له عقل، أن في العرين جنودا مجهولين يجهلهم ويجهل ما وهبهم الله من أنفة وعزة، وكرامة.

لم يكن يشعر بذلك، فتوهم أنه يكفي لأن يتقدم ممثل الاستعمار في الأقصى الجنرال كيوم إلى البلاط ليجمع رمز السيادة وأبطال العرين من الأميرات والأمراء، ليجمعهم في «قزديرة» طائرة ليقذف بهم إلى خارج حدود الأقصى، ثم يشرب مع مساعديه وفقهائه نخب الظفر والانتصار، وما هي الا لحظات حتى يوزع «الأقصى» غنيمة باردة على شذاذ الافاق وصعاليك الشعوب، وتطوى أمجاد أربعة عشر قرنا مرت على الأقصى وهو من حضن العروبة والإسلام، وتطوى ثلاثون ألف عام من التأبي والعزة قبل عهد الإسلام.

ويل له من عقل استعماري في منتهى البساطة والوضاعة وقصر النظر وقحولة الإحساس والمشاعر، فهل استطاع «الغرباء» في عهد جاهلية الأقصى أن يقضوا على عزة نضاله واستماتته في سبيل صيانة العرين من كل الطفيليات ؟

أين «الوندال» أين الرومان وأمثالهم في جاهلية الأقصى ؟!

وأين «الكاهنة، وجرجير، و «الدريق» في فجر الإسلام ؟!

وأي مصيبة المت بذاكرته فنسي «الزلاقة» والأراك ؟!

وماذا دهاه حتى نسي امبراطورية «أكومي» من الأندلس الى «طبرق» ؟!

وماذا دهاه حتى نسي «وادي المخازن» ؟!

وأية كارثة حلت بذاكرته حتى نسي عظمة «السعديين» بين الجنوب والشمال بافريقيا ؟

وأي شيء أنساه بطولة «اسماعيل» الذي شطب الغرباء من الشواطيء الوطنية في لمحة بصر ؟

أي شيء دهاه عن مكرمة عالم الملوك، ومليك العلماء : محمد بن عبد الله، حينما كان يشحن الفلك بالعدة للخليفة التركي حتى ينتصر على الأعداء ؟!

وأي شيء دهاه، فنسى كيف حطم الأسطول المغربي أسطولين أمريكيين في بداية القرن ١٩ اللذين حاولا إحتلال «ليبيا» ؟!

وماذا أنساه بطولة العرش والشعب التي أخرت امتلاك الجزائر سبعة عشر عاما ؟!

وماذا أنساه حتى نسى ما أخره عن امتلاك الأقصى بعد الجزائر سبعين عاما ؟!

ويله كيف نسى بطلي الريف، محمد أمزيان، ومحمد بن عبد الكريم الخطابي ؟!

ويله كيف نسى.. موحى إيفروطن في تافيلالت ؟!

وكيف نسى أبا القاسم النكادي ؟!

وكيف نسى موحى أحمو ؟!

وكيف نسى موحى أزايد ؟!

وكيف نسى ثورة بني امطير ؟!

وكيف نسى الحنصالي ؟

وكيف نسى أبرار محمد الخامس من نخبة الشباب : علال، محمد بن الحسن الوزاني، اليزيدي، غازي، عبد العزيز بن ادريس، بلافريج، وما إليهم من القادة الأبطال في كل مدينة واقليم ؟!

وهل نسى أن لهؤلاء القادة العظام أشبالا لا ينتظرون الا الفرصة المواتية ؟! ذهل قادة الاستعمار عن كل ذلك فاقترفوا جريمتهم الشنعاء، وأراد الله أن يفل «سيفهم» بشاب من مطلق شباب محمد الخامس : علال بن عبد الله ليطعن غرورهم في واضحة النهار.

واذا بالأشبال الأبرار يتوزعون الغرباء وأذناب الغرباء، واذا بالدخلاء يستغيثون ولا يغاثون، واذا العالم كله يفغر فاه ويصيح : هذا هو المغرب الأقصى الحق الذي يعرفه تاريخيا، فما على الاستعمار الا أن يستغيث - بحق - بسيد البلاد ليفر بجلدته مشوه التاريخ في هذا البلد المجيد.

سنتان فقط، واذا صاحب العرش على شرفة القصر في جلبابه الفضفاض ووجهه المنير يقول : شعبي العزيز.. واذا الهتافات، والزغاريد، والدموع، والكل في فرح برجعة سيد البلاد مظفرا منصورا، واذا الدخلاء يتسللون إلى «اعطانهم» وهم يجرون ذيول الخيبة والعار الى الأبد، واذا الشعب المغربي يرفل في حلل العزة والسيادة والاستقلال.

حتى إذا أرسى الملك الصالح محمد الخامس قواعد السيادة، وخطط لها الخطوط الطويلة والعريضة، من منطلق العروبة، والإسلام، رحل رحلته الأبدية المنعمة واذا وارث سره يشرف على البلاد في بطولة وعزة وتبصر والده المقدس، واذا المسيرة الخضراء تذكر العالم كله بأصالة الخطة النضالية الهادفة الرزينة التي تحفظ كرامة البلاد، واذا «كل مهوس» يرجع الى «رماده» واذا الأقصى في موكب حضارته الأصيلة إلى الأبد ان شاء الله.

الرباط - قدور الورطاسي



ياحبيب الله والشعب

للشاعر الأستاذ: محمد بن محمد العلمي

أنت وحيي، وضميري وقصيـــــدي وعبيـري بيـن باقـات الـورود
كلمـا هلـت تباشيـــر المنــــى، كنـت أنـت العيد في أفق السعـود
هــذه الأعــراس فــي قمتهــــا، ظهـرت بسمتهـا فـوق الخـدود
ورقيــق اللحــن فــي روعتـــه، أرقصـت نشوتـه غصـن القـدود
ياحبيــب الشعــب يـا قائــده، يانسيمـا مـن شذى نـد وعـود،
كوثــر الشعــر ينــادي مهجتــي، فـي ظـلال العرش يدعو للمزيد
أنت خيـر. وهـدى في قلبــي، يـا شباب الشعـب في خير العهـود
جـدد الصبـح بمـرآك لنـــا بهجـة الأكـوان في الحسن الوليد !
أنـت نبـراس فـؤادي. فلتكـــن ملهـم الحمـد على النهج الحميـد
أنـت نـور فـوق نـور ساطــع، ترشـد الأجيـال للعـز الوطيـد
أنـت للوحـدة فينـا ضامــن. ترفـع الصـرح علـى العزم الأكيد
وتضـم المجـد للأمجـاد فـــي دولـة الإسـلام والحصن المشيـد
تجمـع الديـن مـع الدنيـا لنـا. وتصـد الشعـب عـن كـل ركـود،
وحـدة، فـي قـوة، فـي عـزة، تشفـع الطـارف حقـا بالتليـد !

مـن جبيـن (الحسن الثاني) بـدت   هيبـة قـد أخضعـت بـأس الأسـود

حفـظ اللـه لنـا عاهلنـا   من رعى فينا مسيرات الصعود ،

قيـم فـي قيـم مشرقـة،   تقبـس العـز مـن العـرش المجيد

يا كبيـر القلـب، يـا منقذنـا،   يا حفيد المصطفى عين الوجـود

التحـدي لـك أضحـى ميـزة،   يصـل الحاضـر بالماضـي البعيد

قمـة تعنـو إليهـا قمـم،   فـي البرايـا مـن ملاييـن الشهود

فسـل الأزمـان فـي تاريخهـا   عـن مثيـل لعـلا الشهـم الفريـد

إنـه حقـا عظيـم بطـل،   صـار فـي منطقتنـا أحلا نشيـد

أيهـا الماضـي بنـا نحو العـلا،   سر بنـا في نهضة العهد الجديد

أنـت للإسـلام فينـا حافـظ،   فلتـدم فـي ظلـه حمـر البنـود

تعشـق الضـاد، وترعـى حسنهـا،   فهـي ميـراث ثميـن للجـدود

ولـك القـرآن عـز دائـم،   وصـراط مستقيـم فـي الخلـود

أنـت مشـدود إلـى أنـواره،   تسبـق الأبطـال للحبـل المديد

وعلـى أسـراره معتكـف،   تنشـر الـدر لشعـب مستفيـد

أنـت يـا مـولاي فـي أيامنـا   أصلـح النـاس ، وأوفى بالعهـود

فيـك أهـل السـر والفضل رأوا   عـودة الفـرع إلى الأصـل الوحيد ،

فبذكـر اللـه فـي خشيتـه،   وابتهـال فـي ركـوع وسجـود،

يا حبيـب اللـه والشعـب لقـد   نلت ما ترجوه من فضل وجود !

وبذلـت الجهـد للـه، فمـا   خبـت فـي قصدك يا باني السدود

وتـراب الوطـن الغالـي لقـد   صنتـه مـن كـل ضيـم وجحـود

سعيـك الدائـب خيـر كلـه،   والـورى يهفـو إلى تلـك الجهـود

ولـك البشـرى بنصـر باهـر،   يا إمـام الفتـح، يا حامـي الحـدود

يا ربيع الفضـل، إنـي مؤمـن،   بكراماتـك قـد زينـت جيـدي !

حسنـات العـرش فـي وفرتهـا   تتحـف التاريـخ بالـدر النضيد

يا طبيـب القلـب مـن علتـه،   بـك تشفـى محنـة الـداء الشديـد

عطفـك السابـغ يدنـي فرجـا،   ويصـد المكـر مـن خصـم عنيـد

حولـك الأكبـاد بالعشـق لقـد   رفرفـت، واستقطبـت أغلـى رصيد !

شوقنـا يدفعنـا فـي لهفـة،   كـي نـرى وجهـك ذا الفأل السعيد

موكـب فـي موكـب حركـه   بالهتافـات، غـرام فـي الحشـود

مثـل آبائـك تلقـى هاهنـا   روعـة استقبالنـا فـي كـل عيـد

بجهـاد واجتهـاد سـرت فـي   خطـة الإنمـاء بالجهـد الجهيـد

يا زمان الوصل في عز الهوى	سل فؤاد الشاعر الصب العميد
سل سلاما في المسيرات التي	عززت عهد التحدي والصمود
سل حكيم الندوات المرتضى،	من ينير العصر بالفكر السديد
سل خطيبا تنصت الدنيا له،	وهو قد أزرى بقس ولبيد
سل عن السحر الحلال المقتنى	من عظيم دأبه كسر القيود
تنصت الروح إلى أقواله،	وهي كالأنغام في أوتار عود
ورعايا (الحسن الثاني) لقد	لبست في عيده أبهى البرود
هل أراني قد أوفي حقه،	حينما أنظم في الحمد عقودي ؟!!

ه « ه

ونظام الخير أهدى منهج،	به نعتز ونسمو في الوجود
منذ (إدريس) رعت دولتنا	حرمة العهد، ووفت بالوعود
تلك أخلاق، وآلاء لنا	قد غرسناها على كل صعيد
وأرانا (الحسن الثاني) هنا	أن هذا الشبل من تلك الأسود !
واستجبنا صرخة الإخوان في	نجدات ليس عنها من محيد
جندنا قد سخرته نخوة	في سهول، وجبال، ونجود
من يعش منا ففي عز، ومن	يقض، فالمجد جزاء للشهيد !
فإذا الأحرار في أوطانهم	ذللوا كل منيع وكؤود

ه « ه

نحن بالقرآن والسنة قد	طبعت طاعتنا صدق العهود
يا أمير المؤمنين المرتضى	مر، فإنا لك من أوفى الجنود
نحن قدمنا ولاء صادقا	لك في بيعتنا بين الوفود
أظهر الله بك السر الذي	لم يفد في طمسه كيد الحسود
دم منارا، ولعيش في عزة	(ولي العهد) مع (المولى الرشيد)
وليدم عيدك نهجا واضحا،	لأداء العمل الجاد المفيد !

الرباط ـ **محمد بن محمد العلمي**

الإسلام والتطور الرزين

للأستاذ الحسن السائح

إن حيوية التراث في الثقافات بصفة عامة تستلزم الاستيعاب الكامل لدلالته ومعناه في دراسة متكاملة مع مختلف التيارات السياسية والإجتماعية ولهذا يجب تعميق الرؤية في مهمة التراث الإسلامي من خلال حضوره المستمر في الحياة الإجتماعية والإقتصادية للأمة، وربما استلزم الأمر أن نعيد قراءة تاريخنا قراءة جديدة على ضوء المستجدات الالية. ونمط التفكير الحديث لتكون النظرة إلى التراث أكثر عملية. وواقعية دون التأثر بالعاطفة وتقديس الماضي.

وفي تجاربنا السياسية العربية المعاصرة كان التراث السياسي نظريا وعمليا كان مصدره الشريعة الإسلامية التي لا تغفل التأكيد على الاعراف والتقاليد الاقليمية وما اعتادته الأمم والشعوب. وهذا ما جعل الشريعة تختلف عن القانون وتظل أكثر تلاحما في المجتمعات الإسلامية والعربية مع التراث بصفة عميقة وقوية. لقد حاول العلماء السلفيون أواخر القرن الماضي أن يعطوا تفسيرات وشروح للتراث السياسي والفقهي أملا في تقوية أنظمة الحكم لتكون في خدمة الشعوب ولصياغته على أسس جديدة لا تخرج عن الأصول الإسلامية، وانما بتطويع الحاضر لصياغة تجديدية لا تفقدها أصالتها ولكن فكرة التحديث التي التبست أحيانا (بالتعريب) والعلماوية لم تلبث أن غيرت نظرة السلفية عند الذين لا يفهمونها لتصبح في مقابلة العلماوية.

ويظهر أن نقل المصطلحات الغربية للمفاهيم التراثية إلى الواقع الإسلامي تسلبت المفاهيم الإسلامية مظامنها لتصبح اشكالا لفظية فقدت كل دلالة حية مبلورة بذلك صراعا شكليا بين اتجاه تقليدي واتجاه تجديدي يتأثر بالمفاهيم الغربية لمفهوم التراث وتوظيفه في المجتمع أو في القانون والتشريع، وبحكم غلبة الحضارة الغربية وتفوقها في النظم والاعلام فقد كان صوت التجديد السلفي أقل فعالية وتأثيرا... وفي خضم هذا الصراع فقد التراث الإسلامي طاقته وأحقيته في المجتمعات العربية. والواقع أن الإلتباسات اللغوية أفسدت كثيرا من المفاهيم. وبالتالي كان أثرها واضحا على الواقع الحضاري للأمة العربية ذلك أن (حقيقة العالم الإسلامي) هي غير حقيقة العالم الأوربي فالشريعة الإسلامية المستوعبة لكل القيم الدينية ليست قانونا دينيا كالشريعة اليهودية وكقانون الكنيسة. بل إنها التعبير السياسي للدين نفسه لأن الإسلام واقع. وليس بتراث وهو حياة وليس مجرد نظام. وهو عميق الجذور في نفس المسلمين.

والتشريع الإسلامي انطلق من التنظيم الإجتماعي والسياسي والإقتصادي عبر الصراعات الدينية والإجتماعية مع الفلسفة الهلينية والساسانية سواء في ميدان السياسة أو التشريع والإدارة أو الإجتماع مما ساعد على تبلور تفكير تشريعي فقهي يعتمد القرآن والسنة أساسا ثم الإجتماع

والإجتهاد والقياس والإستحسان ومرونة في معالجة القضايا ذات الصبغة العرفية أو التقليدية سواء في تسيير الحكم أو في تشريع الأحكام. مما تحفل به كتب النوازل والمعايير غير أن تفكك العالم الإسلامي بعد الحرب الصليبية وظهور البرجوازية الصناعية في أوربا.. ثم ظهور الاستعمار الغربي في العالم العربي والإسلامي... أثر كل ذلك على أنظمة المجتمع ومؤسساته. كما أثر على حيوية التشريع والفقه وكان من نتيجة ذلك تعطيل (الاجتهاد) وسقوط العالم الإسلامي في فوضى التشريع وتركيز التقليد وغياب الابداع.

وتقلصت سلطة من الفقهاء والسياسيين المشروعين ببزوغ الفرق المتعددة المتنافسة على حساب وحدة التنظيم وعملية التشريع القائمة على مظهر عقلي منهجي وأسلوب أصولي لقد كانت الحكومة الإسلامية تقوم على الشريعة ولا تميز بين الدولة والمجتمع ولا بين الدين والدولة. فلم ينفصل الدين عن السياسة ولم تبتعد السياسة عن الأخلاق. مما سهل مهمة الحكم.. ومهمة المعارضة من جهة وسهل الحياة المدنية وعقد حيوية التشريع من جهة أخرى. وبتطور المفاهيم السياسية الغربية عن طبيعة العرب والمسلمين واعتمادها على المؤثرات الهلينية والساسانية والتقاليد العربية من جهة. واخضاع العالم العربي والإسلامي من جهة أخرى بات من الواضح أن يتقلص مفهوم حكم (الشورى) ثم أن ينصرف المشرعون من العلماء والفقهاء (وهم مناضلو الأمة).. عن الأمور الدنيوية إلى الأصول النظرية.. وان يغرق بعض العلماء في عالم التجارب الصوفية الذاتية باستثناء قلة منهم. حتى إذا كان مطلع القرن التاسع عشر. دوت مدافع نابليون بين جنبات الأهرام في المشرق. وبعدها هجمة الفرنسيين على الجزائر واسلي بالمغرب و(كانت الدهشة عظيمة) بل وكانت تلك الطلقات المدوية. لا تقل عما تركته قنابل الطائرات والمدرعات والبارجات في هجوم الصهاينة على بيروت في سبتمبر الأخير. وتساءل الكتاب والمصلحون والمثقفون أنذاك عن سبب التفوق الأوربي ومصدر القوة السياسية الغربية وأسلوب الحكم والادارة. ومارسوا النقد الذاتي متسائلين عن غياب العدالة والمساواة والشورى والتجربة العلمية.

وكان بعض الخلفاء العثمانيين على وعي باشكاليات الحكم الدستوري وتطويره وبالحاجة إلى حكم ديمقراطي أملا في الخروج من مناورات الإستعمار الذي كان يتربص (عالم المسلمين) وبعناد واصرار.. ولكن حركة (الدوما) وأجهزة الاستخبارات الغربية كانت بالمرصاد لمواجهة كل اصلاح يعتمد توظيف التراث السياسي والاستفادة من تجربة الغرب في آن واحد. سيما والليبرالية الغربية الممثلة آنذاك في انجلترا وفرنسا كانتا مصممتين على هزيمة العثمانيين ولو أن ألمانيا حليفة العثمانيين آنذاك لانتصرت في حروبها لكان للتراث الإسلامي وتوظيفه في الحياة السياسية اتجاها آخر في البناء الحضاري الحديث للأمة العربية. فانتصار الليبرالية الغربية الممثلة في فرنسا وانجلترا سقط العالم الاسلامي والعربي في التبعية لوصاية الليبرالية الكاتوليكية. فلربما كانت اللوثيرية المتأثرة بالتراث العربي أقل شراسة منها وتعثرت التجربة الديمقراطية المستوحاة من التراث السياسي غير المدروس بعناية وتجربة الغرب الليبرالي.

إذ أثناء ذلك دخل العالم المعاصر إلى تقسيم جديد لمناطق النفوذ في العالم المعاصر.. ذلك انتصار الماركسية في روسيا شكك كثيرا في تجربة الليبرالية. وهي المثال الذي حاول المصلحون انتهاجه وبدا أن الليبرالية عاجزة عن تحقيق العدالة والمساواة كما تخطط لها الماركسية. وانعكس ذلك على العالم الثالث الذي أخذ يتأرجح بين النظامين الليبرالي والماركسي.. وزاد الارجوحة اهتزازا (اسفين اسرائيل) الذي شكك في القيم السياسية في شكليها الليبرالي والماركسي في تحقيق خلاص سيادة الديمقراطية العربية. مما زاد في تعميق فجوة الاستمساك بالتراث الذي لم يستطع وحده مجابهة التطور العام والتغيير الجارف المتعجل.

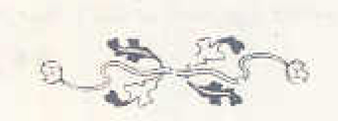
ومهما يكن من أمر فإن مصداقية العدالة في بلادنا أصبحت متجاوزة لمرحلة التقليد للنموذج الغربي. وواثقة انها لن تكون على نهج مستورد من الغرب الليبرالي ولا من

الشرق الماركسي بل من التراث وحده.. ومعتمدة على أصول اسلامية ومعاناة ومعايشة وتجربة ذاتية يتحرك فيها التراث بتلقائية دون استحضار، وأن تكون مستوحاة من الأمة مما في تجربة ذاتية نزيهة تحقق الذاتية الإسلامية.

إن الشريعة الإسلامية يجب تطبيقها لا محالة غير أن بعد سيطرة الغرب الإستعماري على العالم الإسلامي أصبح من العسير على المسلم في غالب الأحيان تطبيق الشريعة الإسلامية، وبالأخص فيما يتعلق بالإقتصاد والجنايات فقد رأى بعض المصلحين السماح بذلك ومنهم محمد عبده في (الفتوى الهندية) ومنهم من لا يسمح بذلك بتاتا.. والمهم أن هذا الخلاف يؤثر على شخصية المسلم ويحدث بها (ازدواجا) فلا يدري ما إذا كان على حق في ممارسة دينه أو هو خارج عن دينه.. ولقد وردت الآية الكريمة في الموضوع : **«ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولائك هم الكافرون».**

وينص جواب الشيخ رشيد رضا بموافقة الشيخ الإمام محمد عبده ما يلي : إن هذا الموضوع يتضمن مسائل من أكبر مشكلات هذا العصر كحكم المؤلفين للقوانين وواضعيها لحكوماتهم وحكم الحاكمين بها والفرق بين دار الحرب ودار الاسلام فيها. واننا نرى كثيرين من المسلمين المتدينين يعتقدون أن قضاة المحاكم الأهلية الذين يحكمون بالقانون أخذا بظاهر قوله تعالى : **«ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون».**

أما ظاهر الآية فلم يقل به أحد من أئمة الفقه المشهورين، بل لم يقل به أحد قط. فان ظاهرها يتناول ما لم يحكم بما أنزل الله مطلقا سواء حكم بغير ما أنزل الله تعالى أم لا. وهذا لا يكفره أحد من المسلمين حتى الخوارج الذين يكفرون الفساق بالمعاصي ومنها الحكم بغير ما أنزل الله. واختلف أهل السنة في الآية، فذهب بعضهم إلى أنها خاصة باليهود. وهو ما رواه سعيد بن منصور وأبو الشيخ وابن مردودية عن ابن عباس قال : إنما أنزل الله (من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون، والظالمون والفاسقون) في اليهود خاصة. وأخرج ابن جرير عن أبي صالح قال : الثلاث الايات التي في المائدة (ومن لم يحكم بما أنزل الله) الخ ليس في أهل الإسلام منها شيء هي في الكفار وذهب بعضهم إلى أن الآية الأولى التي فيها الحكم بالكفر للمسلمين والثانية التي فيها الحكم بالظلم لليهود. والثالثة التي فيها الحكم بالفسق للنصارى وهو ظاهر السياق وذهب آخرون إلى العموم فيها كلها. ويؤيده قول حذيفة لمن قال أنها كلها في بني اسرائيل : نعم الاخوة لكم بنو اسرائيل إن كان لكم كل حلوة ولهم كل مرة، كلا والله لتسلكن سبيلهم قد الشراك. رواه عبد الرزاق وابن جرير والحاكم وصححه. وأول هذا الفريق الآية بتأويلين : فذهب بعضهم إلى أن الكفر هنا ورد بمعناه اللغوي للتغليظ لا بمعناه الشرعي الذي هو الخروج من الملة - واستدلوا بما رواه ابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في السنن عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الكفر الواقع في احدى الآيات الثلاث أنه ليس بالكفر الذي تذهبون اليه. أنه ليس كفرا ينقل عن الملة، كفر دون كفر. وذهب بعضهم إلى أن الكفر مشروط بشرط معروف من القواعد العامة وهو أن من لم يحكم بما أنزل الله منكرا له أو راغبا عنه لاعتقاده بأنه ظلم مع علمه بأنه حكم الله أو نحو ذلك مما لا يجامع الإيمان والاذعان.



مجلة مغربية جديدة : الكتاب المغربي



●● ملأت مجلة (الكتاب المغربي) فراغا كان يستشعره المهتمون بالبيبليوغرافيا والتوثيق الإعلامي، المجلة تصدرها (الجمعية المغربية للتأليف والترجمة، والنشر) وتصدر في شهر مارس من كل سنة، ومديرها المسؤول هو الباحث والمحقق الدكتور محمد حجي مديرالمعهد المولوي. وتتكون الهيئة الاستشارية للمجلة من الأساتذة السادة : محمد إبراهيم الكتاني، د. محمد العزيز الحبابي، د. محمد بنشريفة، محمد بنتاويت، د. محمد زنيبر، د. محمد الأخضر، عبد القادر زمامة. وتضم أسرة التحرير الأساتذة السادة : فاطمة الجامعي الحبابي، أحمد توفيق، حسن بنحليمة، د. محمد مصطفى القباج.

وقد قدم للعدد الأول الدكتور محمد حجي بافتتاحية جاء فيها : «إن غايتنا من مجلة» (الكتاب المغربي) مزدوجة : رصد المنشورات المغربية وضبطها لتعرف وتحفظ ويستفيد منها المهتمون في الداخل. وتكون أداة بيبليوغرافية متجددة بين أيدي الباحثين الجامعيين وغيرهم. وتحطيم جدار الاقليمية الضيقة التي ينغلق فيها الكتاب المغربي وينطوي على نفسه، عن طريق التعريف به في الخارج وتسهيل سبيل اقتنائه والدفع به قدما ليدخل في مدار الثقافة الجهوي والدولي. فيحتك ويصقل عنه الصدأ ويتأثر ويؤثر.

ومن المقالات الجادة الهادفة، في هذا العدد مقال للدكتور محمد عزيز الحبابي بعنوان (الكتاب المغربي : إلى أين ؟).

من جديد، نرحب بالزميلة (الكتاب المغربي) ونحيي أسرة تحريرها وعلى رأسها الدكتور محمد حجي ●●

ملف خاص عن:

ندوة مؤسّسة الأوقاف في العالم العربي والإسلامي

نظمها: معهد البحوث والدّراسات العربيّة

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

كلمة السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية
في افتتاح ندوة
مؤسسة الأوقاف في العالم العربي الإسلامي

باسم الله الرحمن الرحيم

السيد مدير معهد البحوث والدراسات العربية
أصحاب السعادة
أصحاب الفضيلة
سيداتي سادتي

يطيب لي في البداية، أن أرحب بكم باسم حكومة صاحب الجلالة في بلدكم الثاني المغرب، وأن أتمنى لكم مقاما طيبا بين ظهرانينا، ولاعمال ملتقاكم المبارك هذا كامل التوفيق والنجاح.

كما لا يسعني الا أن أشكر معهد البحوث والدراسات العربية، ممثلا في مديره والسادة الأساتذة العاملين به. على اختيارهم المغرب لاحتضان أشغال هذا الملتقى الهام، الذي أتاح الفرصة للحديث عن موضوع شغلت القضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية الرأي العام الاسلامي على الالتفات اليه بكل ما يستحق من عناية واهتمام.

سيداتي سادتي،

إن الحديث عن «مؤسسة الأوقاف في العالم العربي الإسلامي» ليس بالحديث السهل، لأنه يتعلق بمؤسسة اجتماعية اقتصادية دينية لعبت الدور الفعال في تنظيم المجتمع الاسلامي وتكوين امبراطوريته وتشييد حضارته. والأمثلة والوقائع الشاهدة على هذا متعددة وكثيرة، ولن اتطرق اليها هنا. فقط أكتفي بالإشارة الى أن اسناد هذه الوظائف

لمؤسسة الأوقاف ليس من زاوية التضخم أو اطلاق الكلام على عواهنه، وانما نقرر حقيقة أثبتها تاريخ هذه الأمة وتاريخ هذه المؤسسة كما سيتضح من خلال العروض التي سيقدمها السادة الباحثون في هذه الندوة.

فبغض النظر عن وضعية مؤسسات الأوقاف في كل بلد اسلامي على حدة، يمكن القول أن هذه المؤسسة الاسلامية العتيدة، لعبت وعلى طول تاريخ الحضارة العربية الإسلامية دورا مركزيا في تنظيم المجتمع وتسيير شؤونه سواء من خلال :

1) الوقف على المؤسسات الفلاحية من مثل بناء وتسيير المارستانات والمستشفيات لعلاج المرضى والمصابين على اختلاف أصنافهم، أو بناء وتعهد ماوي الأيتام والعجزة والمسنين الذين هم أمانة على عاتق مجتمعهم، أو المؤسسات الاجتماعية الاخرى المخصصة لاستقبال الزوار والمسافرين كافة الامكانيات والمساعدات لهم أثناء الاقامة.

2) الوقف على المرافق العامة الأخرى قصد أداء خدمات اجتماعية جليلة من مثل الآبار وتفجير منابع المياه وتعهدها بالإصلاح والتنظيم.

3) الوقف من أجل بناء المساجد والمدارس التعليمية والمعاهد العلمية... الخ .

إذا علمنا بأن دور مؤسسة الوقف لا يقتصر على البناء والتشييد بل يمتد الى تخصيص جرايات للقائمين على هذه المؤسسة وتعهد مبانيها وتوفير كل الإمكانيات من أجل ضمان أدائها لوظائفها، وتنافس المسلمين وتسابقهم في هذا المجال، وان هذا لا يقتصر على إمكانيات الدول رغم ضخامتها بل يمتد الى تبرعات الأشخاص والأفراد المحسنين رجالا كانوا أم نساء أدركنا فعالية هذه المؤسسة الإسلامية في حياة المجتمع الاسلامي، بالإضافة الى ابرازها للمبادىء السمحة التي بشر بها ديننا والحاث على التضامن والشاغل الاجتماعي الاسلامي.

سيداتي سادتي،

إن التطورات التي عرفتها مجتمعاتنا الاسلامية خلال القرن الأخير، غرت كثيرا من معالم حياتها، ومن أبرز نتائج هذه التطورات تعدد الخدمات الاجتماعية التي يجب توفيرها من أجل ضمان سلامة المجتمعات وحسن سيرها، لذلك عمدت مجتمعاتنا الإسلامية الى انشاء

عدة مؤسسات اجتماعية لأداء هذه الوظائف استقت نموذجها من الحضارة الغربية سواء من حيث البنيات الهيكلية أو تصريف الشؤون التسييرية.

واذا كانت هذه المؤسسات الحديثة لا تستطيع القاء مؤسسة الأوقاف ودورها الاجتماعي والديني فلان الجانب الانساني والمروءة الدينية التي تتوفر على مؤسسة الأوقاف وجميع الخدمات التي تقدمها، لا تتوفر في هذه المؤسسة الحديثة، وهذا شيء أساسي جدا.

جانبا أخر لا بد من الاشارة اليه على عجالة، وهو موقف الشباب اليوم وعدم وعيهم بهذه المؤسسة الإسلامية ودورها الاجتماعي والديني، وبهذا الخصوص فانني لا أود استعمال كلمة احياء مؤسسة الاوقاف، لأنها لم تمت ولن تموت ولكن اريد أن أشير الى ضرورة التعريف بهذه المؤسسة لاجيالنا الشابة، والقيام بعدة بحوث ودراسات حول تاريخها وهيكلها ودورها الاجتماعي والديني للتعريف به أولا، وللعمل على تطويره ثانيا ليتوافق ومعطيات الحياة المعاصرة، وليتكامل مع باقي التنظيمات ذات البعد الاجتماعي وليسميها ثالثا بسمته الاسلامية على التسامح الديني واعتبار الفعل الحسن عبادة يتقرب بها الى الله سبحانه وتعالى، واعتقد أن عقد ندوة من مثل ندوتنا هذه بمشاركة باحثين أجلاء متخصصين للتعريف بهذه المؤسسة في جميع جوانبها، لهو خطوة ضمن الخطوات الأساسية التي يجب ان تعبر على طريق انجاز المهام المطلوبة تجاه هذه المؤسسة.

لذلك أجدد شكري وامتناني لمعهد البحوث والدراسات العربية على تنظيمه لهذه الندوة المباركة، وعلى اختيار أرض المغرب لاحتضانها، كما أتوجه بالشكر الى كل المشاركين والمنظمين، وبالخصوص اللجنة الوطنية المغربية للتربية والثقافة والعلوم والسيد مدير المركز الوطني لتنسيق وتخطيط البحث العلمي والتقني على ما قدماه من مساعدات قصد عقدها، وتمنياتي لأعمالها بالتوفيق والنجاح.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

كلمة الدكتور نوري حمودي القيسي
رئيس معهد البحوث والدراسات العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

يطيب لي أن أرحب بكم باسم المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم الدكتور محي الدين صابر وباسم المجلس العلمي لمعهد البحوث والدراسات العربية لانعقاد ندوة مؤسسة الأوقاف في العالم العربي والاسلامي في ربوع المغرب الشقيق.

السادة الأفاضل :

في التراث العربي الاسلامي أبواب انسانية لم تزل أهدافها بعيدة عن الدرس، والوقوف على الأسباب الموجبة لها غير معروفة لدى الدارسين من أبناء هذه الأمة على الرغم من عمق احساسها بالجانب الانساني ووفائها للبشر الذين تقعد بهم أسباب الحياة، أو يتعرضون لحالة يجدون فيها أنفسهم غير قادرين على النهوض باعباء عيشهم، واتجاه التشريع الاسلامي الى نظام الأوقاف أو الحبوس وفي كل أشكاله يعطي الصورة الانسانية التي ظلت ملازمة للدين الاسلامي وتشريعاته، حفاظا على أرواح الناس وتخفيفا عن الرزايا والبلايا التي تلحق بهم، والعاهات التي تصيبهم فينقطعون عن الدنيا، ويعزف عنهم الأهل والأقارب، وتضيق بهم الحاجة وتلح عليهم أسباب الضجر، وتعتريهم حالات اليأس، وهنا يبدو الانسان ضعيفا تستبد به عناصر الفاقة وتأخذ برقبته ذلة السؤال وتنتزعه خفقات الحرمان لتتركه نهبا للتمزق، وان التصور الشامل للتشريع الاسلامي لحالة الانسان في كل

مراحله، في حالته وهو يومن بالرسالة وفي حالته وهو يجاهد لترسيخ دعائمها والرد على من يناهضها، وفي حالته وهو يدعو اليها وينشر قيمها ومبادءها، وفي حالته وهو يشعر بأن أسباب الحياة قد قعدت به بعد أن تولى غيره مهمة الأداء ومسؤولية الحفاظ على سلامة الدعوة ووجاهة المبادىء السمحة.

لقد كانت مقاصد الشريعة الاسلامية ومصادرها ومسالك المجتهدين ومذاهبهم ومراميهم في ما وضعوه من قواعد كلية للاستنباط، ونظريات عامة في الفقه هو تحقيق الحياة الكريمة والوصول بالانسان الى الموقع الذي وضعه الله فيه حيث قال (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا (الاسراء (70).

إن هذه الحياة لا تتحقق إلا في الضمان الموفق للفرد والأسرة والمجتمع وإيجاد السبل الكفيلة بهذا الضمان، وهي عناصر متداخلة ومتماسكة في إيجاد الصيغة المثلى لحياة الانسان لأن مصلحة الفرد الواقف تتحقق في الاطمئنان النفسي والراحة المستقرة والإيمان بأنه يؤدي فريضة ويرفع عن انسان اعباء ثقيلة ويعيد اليه مذاق الحياة. ويوثق في نفسه مسؤولية الانسان تجاه أخيه الانسان وهو ما حرص عليه الاسلام واتسع في استعماله حفاظا على كرامة الانسان وحرصا على نزوعه الطبيعي واتجه الوقف في مراحله الأولى الى وجه من وجوه الخير والبر العام التي يشترك فيها الواقف وأهله وأقاربه وسائر الناس ثم اتجه الى أنواع أخرى من الوقف الذي أوجدته الحاجة الملحة ودفعت اليه عوامل دينيه وانسانية وغريزية ونفسية.

لقد ارتبط النشاط الاجتماعي والتعليمي والثقافي في الدولة العربية الاسلامية بالحياة الدينية لأن المسلمين اهتموا وهم في مرحلة التأسيس بتفسير المسائل المتعلقة بالعقيدة والالتزام بالمبادىء الانسانية التي تصدت اليها هذه المسائل.

واذا وجد الانسان وهو ينعم بظل هذه الالتزامات بقسط من الضمان واطمأن الى أن جزء من حاجاته وحياته المستقبلية قد تحققت فإن تعلقه بسنن هذه الشريعة أصبح جزء لا يتجزأ من حياته. وإذا كانت مؤسسات الرعاية والعناية والتعليم قد امتدت على طول البلاد الاسلامية وهي تحتضن الانسان المؤمن وتحفظ له انسانيته، وتوثق صلته بمجتمعه الجديد الذي وفر له العناية دون تمييز بين طبقة أو تفريق بين أبيض وأسود.

إن النظرة الشمولية التي اتسم بها نظام الوقف قد وسع آفاق الفكر ووحد بين المسلمين الذين تجمعهم رابطة الدين، وتشد بينهم أواصر الوحدة الاسلامية. فقد يخصص دخل وقف الى عمل خيري في بلد آخر أو مدينة أخرى تبعد عنها آلاف الكيلومترات، ولكن الغاية النبيلة التي حملت الواقفين على هذا العمل لا تحدها ولا تحول بينها وبين عمل الخير حواجز، فامتدت الى كل قطر واتسعت الى كل ممر تحمل عناصر الخير، وتؤدي أمانة التشريع، وتعزز ثقة المؤمنين بوفائهم الأصيل رغبة في الثواب باعتبار الوقف عبادة مستحبة وليس مستغربا بعد هذا الشمول والاتساع في قاعدة الوقف أن يرتبط نظام التعليم بنظام الوقف، ويعد وجها من وجوه البر وأن الانفاق على التعليم يعادل في جواز الفقهاء الجهاد في سبيل الله لقوله عليه الصلاة والسلام يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء وأن الأعتناء بالمدارس والدعوة الى التعليم والانفاق عليه وتطمين احتياج الباحثين والطلبة وتهيئة السكن اللائق وصرف مرتبات الاساتذة وتنظيم وسائل خزن الكتب وطرق الاستعارة ومواعيدها والحفاظ على سلامتها. تمثل المشاركة الفاعلة في هذه التهيئة وتضع الذين يكتب لهم أن يوفروا الأموال لسد هذا الانفاق في عداد المجاهدين والاسهام في تنشئة العلماء الذين وهبوا أنفسهم لخدمة العلم.

إن رعاية الطفولة والاهتمام بتثقيفهم وخاصة الأيتام منهم، والاعتناء بتربيتهم وتعليمهم ما يحتملون تعليمه من العلوم ومراعاة أعمارهم من حيث الفئات العمرية وما يتناسب مع مراحلهم العقلية وقدراتهم الذهنية واستعدادهم لما يطلب منهم كان يأخذ جانبا من الأوقاف التي توقف لهؤلاء الذين انقطعت بهم السبل وحاولت دون تعلمهم أسباب اليتم، فوجدوا في أموال الواقفين ملاذا يقيهم مرارة اليتم ويدفع عنهم غائلة الجهل وكان الواقفون يحرصون على مراعاة سن هؤلاء الأطفال وما يمكن أن يتعرضوا له من أسباب تمنعهم من الحضور فكانت أعذارهم مقبولة بسبب الغياب فسمح لهم في حالة المرض أو الرياح العاصفة أو المطر الشديد والبرد القارص، وأن هذه الحوائل لا تمنعهم من الجراية المخصصة لهم الى حين التحاقهم بالمكتب، واذا كان نظام الوقف قد حفظ للانسان هذا الحق فان الحيوانات الأليفة والسهر عليها وإطعامها وشراء الحبوب لبعضها وتخصيص المساحات الواسعة لما عجز منها عن أداء العمل أو أصيب

بمرض والانفاق على مداواتها قد وجدت في هذا النظام ما يحميها من العوادي ويحقق لها من الحياة الوديعة ما يترك لها نهاية مريحة.

إن الاحساس بهذه المشاعر والايمان بوحدة المجتمع وتوثيق روابط التماسك وتوطيد دعائم الصلات الانسانية التي تجعل الانسان في موقع لا يبتعد فيه عن أخيه مهما كانت درجات التفاوت تعطي هذا النظام قدرة البقاء وسلامة الانطلاق ومستقبلية التوجيه للأخذ به نظاما اجتماعيا يراعي ظروف الحياة ويستمد أصوله من البيئة التي تتلاءم وكل واقع مستندا في تقديم العون الى عقيدة لاتتزعزع وإيمان بحق الانسان في الحياة ووجوب التعاون لإيواء الضعفاء والاعتناء بالمساكين والشيوخ وتطمين حياتهم بما يكفل لهم كرم النهاية وقضاء الديون التي تركب الطبقات العاجزة حتى بعد وفاتهم. إن هذا النظام الانساني كفيل بسعادة الانسان وحرى بتحقيق الحياة الحرة الكريمة التي ظلت البشرية تسعى لتحقيقها وتركب من أجل الوصول اليها المراكب الصعبة.

أكرر لكم الشكر وادعو الله جلت قدرته أن ينعم على هذه الأمة بما يحقق وحدتها ويشد أزرها ويوحد كلمتها لتقوى على رد أسباب التمزق وتتمكن من تجاوز حالات التهاون والانقسام لتظل قادرة على أداء دورها الانساني وحاملة رسالة الدين الى العالم كافة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

مع أحمد أمين

●● ننشر في العدد القادم (231) مقالا ممتازا للأستاذ محمد بن تاويت بعنوان (مع أحمد أمين) يدور حول لقاء الكاتب المغربي بالرائد الكبير في القاهرة في أواخر الثلاثينيات ●●

دور الأوقاف المغربية

في التكامل الاجتماعي عبر عصر بني مرين (657 - 869 هـ)

للأستاذ محمد المنوني

عاش المغرب في عصر بني مرين مع مبرات اجتماعية تبلورت في مؤسسات خيرية متعددة، فضلا عن اسعافات مادية منوعة. فاستفاد من هذه المبادرات - بالدرجة الأولى - طبقات من الفقراء والمعوقين، وساهم في نفقاتها الجهات الحاكمة، وفئات من المحسنين ولتحليل هذه المعطيات تأتي عروضها مرتبة في محورين اثنين :

1 - مؤسسات اجتماعية :

وتتفرع إلى مستشفيات ومباني وعقارات احسانية، وسقايات عمومية.

2 - مبرات مادية :

وتتفرع - بدورها - إلى جرايات وهبات للفقراء والمعوقين - اعذار اليتامى - قضاء الديون - مبادرات خيرية مع ملحق عن مبادرات اسعاف بعض الحيوانات.

أولا : مؤسسات اجتماعية :

1 - المستشفيات :

من المتوقع أن تصميم هذه المصحات المغربية يكون على غرار نظيراتها المشرقية، فتتوفر على قسمين ، واحد للعمليات الطبية، والثاني برسم إقامة المعتوهين (1).

وكان المهتمون الرئيسيون بهذه المبرة ثلاثة من عظماء بني مرين، بدءا من ماهد الدولة أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، وهو الذي بنى المارستانات للمرضى والمجانين، وأجرى عليهم النفقات، وجميع ما يحتاجون إليه من الأغذية والأشربة، وما يشتهونه من الفواكه ووظف الأطباء لتفقد أحوالهم مرتين كل يوم، بالغداة والعشي (2).

وقد جرد أبو الحسن رسم المارستان بفاس وغيرها وكان له بهذا أعظم اعتناء (3).

ثم أحيا سبيله في ذلك ولده أبو عنان (4). ويؤكد هذا ابن جزى (5) لما يذكر عنه أنه شاد المارستانات في كل بلد من ايالته، وأجرى الأوقاف الكثيرة لمؤون المرضى، وعين الأطباء لمعالجتهم والتصرف في مطالبهم.

فيقول الوزان الفاسي (6) عن مارستانات عاصمة المرينيين ، (توجد - بفاس - مستشفيات عديدة، لا تقل حسنا عن المدارس، وكان الغرباء - قديما - لهم أن يقيموا بها لمدة ثلاثة أيام. ويوجد عدد كبير من البيمارستانات خارج المدينة، لاتقل - جمالا - عن التي بداخلها).

والمعروف - الآن - من هذه المؤسسات، هو مستشفى فاس المشتهر باسم (سيدى فرج)، وكان موقعه بالعطارين عند سوق الحناء، ومع مر الزمن تقلص حجمه إلى بناية صغيرة مقسمة إلى حجرات تحف بحديقة رمزية، فضلا عن مسجد ثم يدور بالجميع جدار أبيض ينفتح به باب حديدى مرتفع حيث صار هذا الملجأ يستخدم - فقط - لايواء المعتوهين، الموزعين بين حجراته المفصولة - عن الساحة - بأبواب ذات قضبان حديدية.

وأخيرا عرفت سنة 1944/1364 نهاية مستشفى سيدى فرج فانهارت بنايته، وحولت إلى قيصارية مع الاحتفاظ بالمسجد ونقل المعتوهين إلى مكان آخر من نفس المدينة (7).

وننتقل - الآن - إلى المؤسس الأول لهذا البيمارستان فيعزو البعض انشاؤه إلى العاهل المريني يوسف بن يعقوب عام 1286/680، وقد عهد بإدارته إلى أشهر الأطباء، وأوقف عليه عقارات كثيرة برسم النفقة عليه وحفظه، ولما عظم شأن المستشفى واتسعت أعماله أدخل عليه السلطان أبو عنان زيادات عظيمة (8).

والى ذلك ، يشير الوزان الفاسي (9)، إلى إطارات الموظفين بهذا المستشفى، وفيهم كتاب وممرضون وحراس وطباخون وغيرهم، ويتقاضى كل واحد منهم أجرا حسنا.

ويعرف - الآن - من هؤلاء الموظفين اثنان من نظاره خلال العصر المريني، أبو فارس عبد العزيز بن محمد القروي، من مشايخ أعلام فاس وصلحائها، وتوفي عام 49/750 - 1350 (10)، ثم محمد بن قاسم بن أبي بكر القرشي المالقي ثم الغرناطي نزيل فاس، والمتوفي عام 1356/757، بعدما كانت ولايته لنظارة بيمارستان فاس في ربيع الثاني من عام 1353/754 (11).

وإضافة إلى المهمة الإنسانية لهذه المؤسسة، كانت تعتبر ملجئا للطير المعروف باسم اللقلاق (بلارج)، حتى إذا انكسر أو أصيب بأي أذى، فإنه يحمل إلى مستشفى فرج، وتصرف جراية لمن يضمده ويداويه ويطعمه (12).

هذا إلى أنه كان له وقف برسم الموسيقيين الذين يزورونه أسبوعيا، مرة أو مرتين، ليقدموا إلى نزلائه نغمات موسيقية مناسبة (13).

وفضلا عن المهمة الصحية لنفس المؤسسة، كان ينفق من أوقافها على غسل وتكفين الغرباء من الموتى (14).

وأخيرا عند مطلع القرن الهجرى التاسع، حلت النهاية المؤسفة لهذا المستشفى ونظائره بفاس، فاستسلف العاهل المريني أبو سعيد الثاني أوقاف هذه الملاجىء وباعها ليسدد بها نفقات حروبه ثم مات قبل أن يستطيع قضاء السلف، وبذلك لم تعد مستشفيات فاس إلى ما كانت عليه (15) وهي التي عرفنا واحدا منها متمثلا في بيمارستان فرج.

ومن ملحقات هذا العرض دكاكين الصيادلة بفاس المرينية، وكان مكانها عند سوق العطارين حيث لا يزال يحمل هذا الإسم، فتباع به المواد المتعلقة بالعطارة والطب، ومعظم صيدليات الأطباء مجاورة لدكاكين العطارين، فيعد الأدوية في منازلهم ويهيئونها أشربة ومراهم، ومعاجين، ثم يرسلونها إلى دكاكينهم، فيسلمها مستخدموهم مقابل وصفة طبية (16).

وبعد فاس ، تتوزع المنشئات الصحية بين خمس مدن مغربية ، انطلاقا من تازة، فكان بداخلها مستشفى مريني حسب اللوحة الرخامية لوقف أبي عنان عليه (17)، فضلا عن أحد أجزاء الحوالة الحبسية لنفس المدينة (18)، وهي تحتفظ بفقرة صغيرة تذكر (نصف أشجار عرصة المارستان).

الثالث ، مارستان مكناس من تأسيس أبي عنان، ولا تزال بنايته قائمة في حي حمام الجديد، يميزها باب

لطيف، تتوجه لوحة خشبية مستطيلة، تنتقش بها كتابة بخط الثلث، فيقرأ فيها اسم المؤسسة وبانيها.

ويشتمل المستشفى - في وضعه الحالي - على قسمين، الأول، كان - فيما يظهر - مخصصا لعلاج المرضى، ويتكون من طابقين تدور - بكل منهما - حجرات صغيرة تتناسق من ثلاث جهات، ويتوسط ساحة الطابق الأسفل مربع داخله غراسات مناسبة تحف بصهريج صغير.

أما القسم الثاني، فكان موقعه شرق البناية الأولى، في طابق واحد مقسم إلى بيوت مخصصة لإقامة المعتوهين، وبعد نقل هؤلاء إلى مكان آخر داخل المدينة، تحول مستقرهم الأول إلى بناية متسعة تستخدم - الآن - معملا للنجارة. وقد اقتطع القسم الثاني من المستشفى العناني خلال الستينات الهجرية الأخيرة.

ومن حديث هذا المارستان، أن أديب مكناس ابن عبد المنان سكن به في زيارته لهذه المدينة، صحبة مخدومة السلطان أحمد بن أبي سالم. فكانت هذه السكنى مثار حوار شعري بين العاهل المريني والشاعر المكناسي (19)، حتى نستفيد منها تأكيد مرينية هذا المستشفى.

الرابع، المستشفى العناني بسلا، وكان موقعه بالبناية المعروفة بفندق اسكور في حي باب احساين في بناء حفيل يشتمل على بيوت كثيرة، بعضها لاستقراء المرضى، وباقيها للمعتوهين، وبقي منه - الآن - بابه شاهدا لحسن بنائه، تعلوه كتابة تشتمل على اسم بانيه أبي عنان، وعلى تسميته بالمارستان، مكتوب ذلك في زليج أسود ملصق على تاج الباب (20).

وقد تردد ذكر هذا المستشفى في عصر بنائه، فيشير له لسان الدين ابن الخطيب (21)، كما ينوه به النميري (22)، ويبرز نسبة بنائه لأبي عنان الذي زاره عام 1457/758، ثم يشيد بوثاقة بنائه، وما يقابل به العليل من رفق وتأنيس، وتدبير وعلاج، وهكذا يقول في «فيض العباب»، «... فمبناه، صحيح... فما شئت من رفق تتمهد أكتافه، وتأنيس تتجدد الطافه، وعلاج تتورد نطافه، وتدبير يحس مرتفعه، ومصطافه... فلا سقيم، إلا وحديث برءه ليس بالسقيم... بعد أخذ التنبيهات والمدارك لاكن عن الحكيم، فالمقيم به كالمسافر يصح ويغنم، وباقتبال الأجر والعافية ينعم، وبما لقى هنالك من الخير - يخبر مدى العمر...».

وبين افادات هذه الفقرة، الإشارة للحكيم المشرف على المستشفى، وقد حافظت المصادر على اسمين من الذين عملوا به خلال النصف الثاني من المائة الهجرية الثامنة،

الأول، أبو حفص عمر بن غياث السلاوى (23)، صاحب المشهد بطلعة سلا قرب الجامع الأعظم، حيث يعرف بسيدى مغيث، وقد نوه لسان الدين ابن الخطيب (24)، بخدمته للمرضى، في قصيدته العينية التي بعث بها من غرناطة إلى سلا، وأشار إلى جملة من أصدقائه بالعدوتين، فيقول عن المترجم،

وابن غياث غياث وشفـــــــا
جملة الخلق به الله نفـــــــع

الثاني، أبو الفضل محمد بن قاسم العجلاني السلاوى (25)، صاحب الاثار الطبية العديدة، في مؤلفات منثورة ومنظومة.

ومن سلا إلى الرباط مع المستشفى الخامس، ويعزى تأسيسه إلى السلطان المريني عبد العزيز الأول (26)، ولا تزال بنايته محفوظة الرسم والإسم، في مقابلة باب الجامع الكبير من الناحية الغربية جوار مدارس محمد الخامس، وقد صار - أخيرا - مقر المدرسة دار القرآن.

السادس، مستشفى اسفي، أشار له لسان الدين ابن الخطيب (27) خلال حديثه عن هذه المدينة، وقال عن ناظره، «وتردد بها إلى صاحب السوق ومقيم رسم المارستان، الشيخ الحاج أبو الضياء منير بن أحمد بن محمد بن منير الهاشمي الجزيرى».

وقد كانت زيارة ابن الخطيب لاسفي عام 1360/761، حيث وجد المارستان قائما دون أن يذكر مؤسسه، على أن البعض (28) يرجح أن يكون من تأسيس أبي عنان.

وعلى خلاف المستشفيات السابقة ، فإن هذا هو الوحيد الذي لم يبق له أي أثر. حيث دثر ضمن معالم اسفي التي دمرها الغزو البرتغالي.

والى هنا تنتهي عروض المستشفيات المرينية. لنزيل عليها بمبادرة صحية حققها أبو الحسن. وهو الذي يغطى حمة خولان ، (حمة سيدى حرازم) ببناء محكم يستر المستحمين (29) حيث لا يزال محتفظا به في قبو ينفصل فيه مغتسل الرجال عن النساء.

2 ـ مباني وعقارات إحسانية :

وهي مبرات تظافرت فيها الجهود الحاكمة مع مبادرات المحسنين. فنعرض منها النماذج الآتية ، كان أبو الحسن بنى دورا شبيهة بالربط. برسم سكنى من دخل مرحلة الشيخوخة من الضعفاء الملازمين للخير (30).

وقد ورد في لوحة الأوقاف على مدرسة الأندلس بفاس (31). هذه الفقرة ، (وأمر «أبو الحسن» مع ذلك ببناء دار أبي حباسة للشيوخ الملازمين للصلوات بجامع الأندلس).

والغالب أن هذه البنية هي نفس الفندق المواجه لدار الوضوء التابعة لمدرسة الأندلس، وقد كان ـ حينا ـ مسكنا للمكفوفين.

وبفاس قصر يحمل اسم (دار الشيوخ) ، عند زقاق رياض حجا بين الصاغة ورحبة قيس، وكانت معدة لتعريس المكفوفين الذين لا سكن لهم. فكلما اقترن كفيف بنظيرته أقاما بهذه الدار مراسيم الزفاف (32).

ومن المؤسسات الإحسانية الأخرى بالمدينة ذاتها ، أربعة ديار وقفية تتبدى من دار بدرب السعود في حي الجزيرة فيسكن بها الضعفة والمساكين. وكانت من أكبر ديار فاس ضخامة وسعة رحاب ووفرة مياه (33).

مع ثلاثة ديار برسم تعريس الضعفاء والمتوسطين الذين لا يتوفرون على سكن يتسع لهذه المناسبة. وقد جهزت كل واحدة منها بالفرش والأثاث اللائقة بوليمة التزويج.

كما أن مواقعها توزعت بين الأقسام القديمة لمدينة فاس ، فواحدة منها بالعدوة. وأخرى بالدرب الطويل. والثالثة في حي العيون (34).

وكانت الدار الأخيرة خاصة بتعريس الاشراف المقلين. وهي ذات مرافق ومنظر وبهاء (35).

والى فاس. فإن مدينة تازا تشير حوالتها الحبسية (36) إلى (دار الزمني) قديما بدرب ابن بطاش جوفي بابها.

وكان بمكناس دار للشيوخ. وهي ـ بالضبط ـ فندق الجزارين داخل باب الجديد (37).

وفي نطاق الهبات العقارية ـ سنذكر عن أبي الحسن أنه منح الأيتام من سائر القبائل مايسع حرث زوجين من الأرض (38).

وجاء عن أبي عنان أنه اسعف الزمني والضعفة بأزواج الحرث يقيمون بها أودهم (39).

وكان قرب باب بني مسافر من فاس عرصة موقوفة على الفقراء والمساكين حتى يستغلوها بالغراسة فيها (40).

ومن الجدير بالملاحظة أن أغلب هذه المبرات تركزت في شمال المغرب، ولحسن الحظ فإن الوزان الفاسي (41) يحتفظ بالإشارة لثلاث مبرات مشابهة تتواجد بثلاث جهات في الجنوب المغربي بدءا من مدينة تاكوليت في منطقة حاحا. فكان بها أربعة ملاجىء للفقراء.

هذا إلى دار الضيافة المعدة لجميع الغرباء. وكانت «بالمدينة» ، الاسم الذى أعطى لحاضرة هكورة. ولعلها هي دمنات.

وفي مدينة بولعوان بدكالة ، شاد سكانها بناية من عدة غرف على هيئة اصطبل عظيم. وكل الذين يمرون بهذه المدينة يستضافون باكوام في هذه الدار على نفقة السكان.

3 ـ سقايات عمومية :

تحتفظ السقايات المرينية بهندسة خاصة. تميزها عن نظيراتها المرابطية. والموحدية (42). فتبنى في شكل صهاريج صغيرة نسبيا. مستطيلة وقليلة العرض وتزين

واجهتها بالفسيفساء الدقيقة، فضلا عن زخرفتها - ومعها سقفها - بالنقش - المحفور أحيانا - في الجص والخشب. ولحسن الحظ حافظت بعض المدن على بقايا من هذه السقايات حسب النماذج الآتية :

أ - ففي فاس : سقاية ابن حيون أول حي المحفية، ثم سقاية سوق العطارين جوار موضع مستشفى فرج، وهذه تتوجها كتابة تذكر أن الامر بانشائها هو عبد الحق آخر سلاطين بني مرين، على يد وزيره أبي زكرياء يحيى بن زيان الوطاسي وكمل تشييدها وفجر ماؤها أول جمادى الأولى عام 1436/840. ثم تلاشت وجددت سنة 1090/79 - 1680. هذا ويوجد في حوالة فاس السليمانية (44) ترجمة بتوصية السقايات، فترد التفاصيل هكذا :

- وصية سقاية رحبة صفاح العدوة.
- وصية سقاية حارة قيس.
- وصية سقاية تفر (كذا) بالفخارين.
- فيض نقير الصاغين.
- فيض ماء سقاية البليدة.
- فيض سقاية غدير الجوزاء.

ب - وفي مكناس : نشير إلى سقاية المستشفى العناني عن يسار مدخله في حي حمام الجديد، ويترجح أنها من آثار أبي عنان باني المستشفى.

ثم سبيل حي السويقة، ويعرف - بسقاية سبع عنابب، تلميحا لعدد أنابيبها، وكانت تعرف - قديما - بالسقاية الكبرى، وسقاية الجمعة.

وهي مبنية في قاعة عريضة مستطيلة، يغطيها سقف عال محمول على ثلاثة اساطين، ولا تزال تحتفظ باثر الفن المريني، في زليج واجهتها، وفي زخرفة سقفها الخشبي بالنقش الغائر. وقد خصصت لأوقافها ترجمة - على حدة - ضمن الحوالة الحبسية للمساجد الصغار بمكناس (45).

ج - وفي الرباط : سقاية المارستان العزيزي بالسويقة وقد اندرجت بقعتها ضمن بناية كبرى حديثة، تعتمرها - الآن - مكتبة المعارف، وذلك خلال الثمانيات الهجرية الأخيرة.

وقد أثبت مرينية هذه السقاية الدكتور كايه في كتابه «مدينة الرباط إلى الحماية الفرنسية» (46).

وبعد هذا، فإن أبا الحسن ضرب الرقم القياسي في تجهيز المغرب بالسقايات، وذلك ما يلاحظه على ابن فرحون المدني حين زار المغرب، فيسجل هذه الارتسامة : (ما مررت في بلاد المغرب بسقاية ولا مصنع من المصانع التي يعسر فيها تناول المياه للشرب والوضوء فسألت عنها إلا - وجدتها من إنشاء السلطان أبي الحسن رحمه الله).

ويزكي ابن مرزوق هذه الشهادة قائلا : (وصدق، فإن أكثر السقايات المعدة للاستسقاء وشرب الدواب بفاس وبلاد المغرب، معظمها من بنائه...) (47).

ثانيا : مبرات ماديــــة :

1 - جرايات وهبات للفقراء والمعوقين :

كان السابق لهذه المبادرة هو أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق، فأجرى على الجذمى والمكفوفين والفقراء مرتبات منتظمة عند كل شهر (48).

وجاء في روض القرطاس (49) عن أبي سعيد الأول : (ولم يزل من يوم ولايته إلى الآن (1326/726) يأمر بالجباب والاكسية في زمن الشتاء والقر للضعفاء والمساكين، وأمر لمن مات من الغرباء أن يحجر ويكفن في الثياب الجديدة، ويقام بحق دفنهم أحسن قيام).

وقد اهتم أبو الحسن بمرحلة الشيخوخة، واعتنى بمن بلغ هذا السن من الضعفاء الملازمين للخير، فأجرى عليهم رواتب كافية، وبنى لهم - كما بينا سلفا - دورا لسكناهم ورتب لهم - كل عام - كساوى تكفيهم (50).

هذا إلى أن ابن جزى (51) يذكر عن اسعافات ابن عنان : اجراء الصدقات وكسوة المساكين والضعفاء والعجائز والمشايخ الملازمين للمساجد، بجميع الجهات المرينية، وتعيين الضحايا لهذه الأصناف في عيد الأضحى، والتصدق يوم سبعة وعشرين من رمضان - بما يجتمع في مجابي الأبواب.

ومن جهة أخرى، يقول ابن مرزوق (52) عن أبي الحسن، (أنه أجرى لسائر الأيتام من سائر القبائل ما تمشى به أحوالهم ويستغنون به عن التكفف والعالة، فسوغ لهم - فيما علمت يقول ابن مرزوق - محرث زوجين ومحباهما في كل وطن بحسب خراجه وجبايته. وفيه كفاية، حتى إذا بلغ حد الخدمة الحق بمن عداه. فلا يكاد يقع بصرك على يتيم - في بلاد المغرب - إلا وهو مكفول).

2 - اعذار اليتامى :

تابع المرينيون عادة ختان اليتامى من الأطفال في كل سنة. وهي مبرة عرفت بالمغرب من العصر الموحدى وبالضبط أيام يعقوب المنصور، حيث يسجل ابن عذارى (53) أنه عمل لم يسبقه إليه أحد من الملوك المتقدمين. وفي (المعجب) أنه كان يأخذ في الإستعداد لذلك عند دخول السنة الهجرية.

وفي العصر المريني - الذي نعرضه - استمر هذا التقليد واستقر يوم عاشوراء موعدا له. فكان من عمل أبي يوسف ماهد الدولة، أن قرر القيام - في كل عاشوراء - بتطهير الأيتام وكسوتهم والإحسان اليهم بالدراهم والطعام (55).

ثم تابع هذا العمل السلطان أبو الحسن. فيقول عنه ابن مرزوق (56)، (ومن صدقاته الجارية، وحسناته المستمرة التي سنها، هو أنه في كل عاشوراء من سائر بلاده، يجمع الأيتام الذين يفتقرون إلى الختان. فيختن كل واحد، ويكسوه قميصا وإحراما. ويعطي عشرة دراهم وما يكتفى به من اللحم. فيجتمع في كل عاشوراء من الأيتام - من سائر البلاد - ما لا يحصى).

ويعلق نفس المصدر أثر هذا، (وهو عمل مستمر في بلاده، وسنة جارية قام بها الخلفاء من أولاده).

وقد أكد هذا الإستمرار - بالنسبة لأبي عنان - كاتب معاصر هو ابن جرى (57)، فيذكر من عوائد مخدومه، اعذار اليتامى من الصبيان وكسوتهم يوم عاشوراء.

3 - قضاء الديــون :

وهي مبرة لمعت ايام أبي عنان. فكان له اهتمام بقضاء الديون التي تركب الطبقات العاجزة. وفي هذا الصدد اتخذ قرارا بالتزامه الأداء من ماله الخاص. لديون المعسرين المسجونين بسائر الجهات المغربية. ويطلق سراحهم.

وكتب - مع هذا - لجميع الأقاليم المرينية، بأن جميع من توفي وعليه دين من الديون، أو حق من الحقوق المدركة ولو بالظنون، فيؤدى عنه ذلك من بيت المال. وأمر أن تستمر هذه المبادرة وسابقتها على الدوام (57).

وقد يشير لاستدامة هذا العمل بعد عصر أبي عنان، ترجمة تحتفظ بها حوالة فاس السليمانية (59) حسب هذه الفقرة، (الوصية العبد حقية لقضاء الديون والمساكين).

4 - مبادرات خيريــة :

ومن الأكيد أنها كانت جد متوافرة. وتنوعت بتعدد أصناف البر والإحسان. حتى تجاوزت الإنسان الى الحيوان. غير أن المصادر الباقية لم تذكر من ذلك سوى أقل القليل.

وسنعرض - أولا - ملامح من قطاع اسعاف الإنسان وننتزعها من اشارات بعض حوالات فاس الحبسية (60). وهي تذكر اعيان الموقوفات. بعدما تعنون لها بذكر اتجاه الوقف وصاحبه. فنورد منها العناوين التالية :

- وصية الفقيه الشيخ عبد الملك ابن حيون الأندلسي. الثلثان للاسارى. والثلث الباقي للمساكين. وفي غلاء السعر يفرق ثلثا الاسارى على المساكين.
- وصية السلطان أبي فارس عبد العزيز على الاسارى.
- وصية على الاسارى مجهول صاحبها.
- وصية مساجن سجن القلعة.
- وصية ابن كسية على المساكين.
- وصية ابن عطو (61) على المساكين.
- وصية الحاج عبابو على المساكين.

- وصية الحكيم على المساكين.
- وصية يوسف بن عميرة على المساكين.
- وصية الديناري على المساكين.
- وصية القبائلي على المساكين.
- وصية الكناني على المساكين.
- وصية ابن جشار على المساكين.
- وصية الجنيارية على المساكين.
- وصية ابن أبي الصبر على المساكين.
- وصية القفاز على المساكين.
- وصية الحرة صفية (62) على المساكين.
- وصية الميساوى على المساكين.
- وصية العريف على المساكين.
- وصية النازد غرى على المساكين.
- وصية البانوخي على المساكين.
- وصية طلوقة على المساكين.
- وصية المزوار على المساكين.
- وصية الحجيج.
- وصية على المساكين مجهول صاحبها.
- وصية المرابط على المساكين.
- أوقاف المرضى الجزقي القاطنين بحارة برج الكوكب خارج باب الجيسة (63).

يضاف لهذه اللائحة وصية الشيخ أبي زيد عبد الرحمن بن خنوس وأمه فاطمة بنت الشيخ أبي الفضل الزرهوني، بتاريخ عشية يوم الثلاثاء 5 رجب 1389/791، وفيها أن مرجع الوصية بعد انقراض الموصى لهم، تحبيس ذلك على جامع الصابرين بحى اوزقور داخل باب الفتوح، ليشترى من غلة الوصية زيت لاستصباح المسجد مع نفقة حصره واصلاحه، وما فضل من ذلك يشترى به طعام ويطعم للواردين بهذا الجامع، الملتزمين به من الفقراء والمرابطين به (64).

الآن، ينتهي بنا المطاف إلى إشارات جد قليلة تبقت عن اسعاف الحيوان، فنلتقي - أولا - مع محمد بن موسى الحلفاوى الإشبيلي نزيل فاس، والمتوفى - بها - عام 56/758 - 1357، وقد جاء في ترجمته أنه دفع به الرفق بالحيوانات المتخذة والأليفة إلى أن يعد دارا يجمعهم فيها ويسهر على اطعامهم بيده (65).

ويتحدث ابن السكاك عن جمع من القطط شاهدهم مجتمعين على موزع يفرق عليهم لحما، ويعدل في قسمته بينهم (66).

وابن السكاك توفي عام 818 / 15 - 1416، وهو محمد بن محمد بن أبي طالب بن أحمد المكناسي القبيل، ثم العياضي الفاسي البلدة (67).

هذا إلى أنه كان في حوز مدينة فاس، بلاد موقوفة على شراء الحبوب برسم الطيور، حتى تلتقطها، كل يوم - من المرتفع المعروف بكدية البراطيل عند باب الحمراء داخل باب الفتوح (68)، وأيضا، عند (كدية البراطيل) خارج باب الجيسة (69).

الرباط : محمد المنوني



الهوامش:

1) محمد المنوني ، «العلوم والاداب والفنون على عهد الموحدين» ص 131 ـ 132. وهذا أيضا ـ يشير له ما يذكر ـ وشيكا ـ عن أبي يوسف من بنائه المارستانات للمرضى وللمجانين فضلا عن هندسة بعض المستشفيات المرينية الباقية ملامحها مثل مارستان مكناس.

2) روض القرطاس ، ط. ف 1305 ـ ص 214. «الذخيرة السنية» المطبعة الملكية ، ص 91.

3) «المسند الصحيح الحسن» لابن مرزوق ط ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر ص 415.

4) المصدر والصفحة.

5) «تحفة النظار» نشر المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، 2/184.

6) وصف افريقيا ، الترجمة المغربية، مطبعة وراقة البلاد بالرباط ، 1/180.

7) كانت عملية تحويل مستشفى فرج إلى قيسارية مثار نقاش بين صفحتين مغربيتين ، جريدة «العلم» في عددها المؤرخ في 11 جمادى الاولـى 1466 ـ 3 أبريل 1947، مع جريدة «السعادة» بالعدد المؤرخ في 3 رجب 1366 ـ 24 مايو 1947.

8) «تاريخ البيمارستانات في الإسلام» تأليف الدكتور أحمد عيسى ، المطبعة الهاشمية بدمشق ص 284 ـ 286. ونضيف لهذا المصدر فقرة للزياني يقول فيها ، «بنى أبو سعيد (الأول) المدارس بفاس وغيرها، والمرستان) ، حسب «الترجمان» مخطوط خ. ع. د 658 ص 314.

9) «وصف افريقيا» 1/181.

10) سلوة الانفاس للكتاني ط. ف ، 3/160.

11) «جذوة الاقتباس» لابن القاضي، ط. دار المنصور بالرباط ، رقم 310.

12) «الملاجىء الخيرية الاسلامية في الدولة الموحدية والمرينية، بالديار المغربية» ، مسامرة للشيخ محمد عبد الحي الكتاني، «المجلة الزيتونية» ج 6 مج 3 ص 76. يضاف لهذا المصدر اشارة في «حوالة بخزانة القرويين، رقم 395 مكرر ، في فقرة قصيرة هكذا ، «دار متصلة بدار البلارج» فهل تسير دلالتها في الاتجاه الذي نعلق عليه ؟

13) «الملاجىء الخيرية الإسلامية» المجلة الزيتونية ج 6 مج 3 ص 476.

14) «المصدر والصفحة».

15) «وصف افريقيا» 1/180.

16) (المصدر) 1/190.

17) يحتفظ بصورتها كتاب «جوامع فاس وشمالي المغرب» للمستشرق الفرنسي بوريس ماسلو ، عند اللوحة رقم 146.

18) خ. ع ، قسم الحوالات رقم 19 ص 62.

19) ابن القاضي في كتابيه «جذوة الاقتباس» رقم 37، مع «دار الحجالة» نشر دار التراث بالقاهرة رقم 76، ثم في «المنتقى المقصور» لنفس المؤلف خ. م.

هذا ويذكر الوزان الفاسي عن مستشفى فاس 1/180 ، أن الفرباء كانوا يمنحون السكن به لمدة من ثلاثة أيام، فتكون سكنى ابن عبد المنان بمارستان مكناس تساير هذه العادة.

20) «الاتحاف الوجيز» للمؤرخ محمد بن علي الدكالي ، خ. ع . د 42.

21) «معيار الاختيار...» مطبعة فضالة ص 152.

22) «فيض العباب» لابن الحاج النميري ، مخطوط خ. م 3267 ص 63.

23) «تاريخ الطب العربي بالمغرب الأقصى» لمحمد بن أحمد الكانوني الاسفي ، مؤرخها ، مخطوط خاص.

24) «نفاضة الجراب» ، السفر الثالث، مخطوط خ. ع ك 256 ، ص 190، وأسرة ابن غياث قديمة بسلا، وقد انتقل منها إلى حلب ، محمد بن أحمد بن يوسف بن غياث السلاوي حدود عام 600هـ وبها توفى عام 616هـ حسب ترجمته عند عبد القادر بن أبي الوفا القرشي في «الجواهر المضية في طبقات الحنفية» مخطوط خ. م 7121، وبنفس المصدر ترجمة الولد المذكور عند ورقة 142 ثم لحفيده محمد بن محمد بن أحمد. ورقة 144 ب.

25) «تاريخ الطب العربي بالمغرب الأقصى».

26) محمد بن علي دنية في «مجالس الانبساط» مخطوط خ. م 1,779/52. كايه ، «مدينة الرباط إلى الحماية الفرنسية» ص 201 ـ 202.

27) «نفاضة الجراب» ، السفر الثاني نشر دار الكاتب العربي بالقاهرة ص 72 ـ 73.

28) محمد بن أحمد الكانوني ، «اسفي وما اليه» مطبعة مصطفى محمد بمصر ، ص 106.

29) «جنى زهرة الاس» للجزنائي ، المطبعة الملكية ص 36.

30) «المسند الصحيح الحسن» ص 27.

31) أثبت نصها الفريد بيل في دراسته ـ بالفرنسية ـ عن «كتابات العربية بفاس» الجريدة الاسيوية «بالعدد 10 ص 222 ـ 224، وجاءت الاشارة لهذه الدار ـ أيضا ـ عند ابن أبي زرع بمناسبة ذكر بناء مدرسة الأندلس، حسب قطعة مخطوطة من «روض القرطاس» بها زيادات على النص المطبوع، وهي ضمن مجموع خ. ع. د 2152، ومرة أخرى يذكر نفس الدار ابن القاضي في «لقط الفرائد» ، الف سنة من الوفيات نشر دار المغرب بالرباط ، ص 178.

وفي حوالة بخزانة القرويين رقم 399 ، يرد بها ذكر دار الشيوخ مرتين ، مع المدرسة المصباحية عند الورقة 9/أ، ثم مع مدرسة الأندلس عند الورقة 9/ب.

32) «الملاجىء الخيرية الاسلامية» المجلة الزيتونية ج 6 مج 3 ص 278.

33) «المصدر» ص 277.

34) «بغية الأنفاس بمحاسن فاس» ، مسامرة للشيخ علي بن محمد الطيب الشرقي ، مخطوطة خ. ع ح 119.

35) «المجلة الزيتونية» ج 6 مج 3 ص 278.

36) خ. ع ، قسم الحوالات رقم 19، ص 118.

37) محمد المنوني ، «التخطيط المعماري لمدينة مكناس عبر أربعة عصور» مجلة «الثقافة المغربية» ع 7 ص 42.

38) «المسند الصحيح الحسن» ص 420.

39) تحفة النظار 2/184.

40) «الملاجىء الخيرية الاسلامية» المجلة الزيتونية ج 6 مج 3 ص 278.

41) «وصف افريقيا» 1/79، 122 ـ 130.

42) لا تزال السقايات المرابطية والموحدية بحاجة إلى دراسة.

43) اثبت نص هذه الكتابة الفريد بيل في دراسته عن «الكتابات العربية بفاس «الجريدة الاسيوية» بالعدد 10 ص 134 ـ 135.

44) خ. ع ، قسم الحوالات رقم 23.

45) محمد المنوني ، «التخطيط المعماري لمدينة مكناس» مجلة «الثقافة المغربية» ع 7 ص 45 ـ 46.

46) ص 199 ـ 201.

47) «المسند الصحيح الحسن» ص 417.

48) «روض القرطاس» ص 214.
«الذخيرة السنية» ص 91.

49) ص 294.

50) «المسند الصحيح الحسن» ص 427.

51) «تحفة الأنظار».

52) «المسند الصحيح الحسن» ص 420.

53) «البيان المغرب» ، القسم الموحدي، ط. تطوان ص 204 ـ 205، وما أشار له من سبق يعقوب المنصور لهذه المبادرة ، يلاحظ عليه أن العاهل الفاطمي اسماعيل المنصور ، قام ـ عام 340هـ بعمليات واسعة النطاق لختان الأطفال بالقيروان وغيرها.

ويضيف المصدر المعني قولته ، «وحدث في البلد عند ذلك من الانفاق واللهو مالم ير مثله «حسب نقل» تاريخ الجزائر العام «لعبد الرحمن بن محمد الجيلالي ، المطبعة العربية بالجزائر 267/1.

54) مطبعة السعادة بمصر ص 190.

55) «الذخيرة السنية» ص 91.

56) «المسند الصحيح الحسن» ص 420 على أنه يؤخذ على ابن مرزوق اشارته إلى أن أبا الحسن هو الذي سن هذه المبرة مع ماتبينا ـ وشيكا ـ من عمل جده أبي يوسف وقبله يعقوب المنصور الموحدي واسماعيل المنصور الفاطمي.

57) «تحفة النظار» ص 2/184.

58) «فيض العباب» ص 24 ـ 26.

59) خ. ع ، قسم الحوالات رقم 23.

60) «الحوالة السليمانية خ. ع/ قسم الحوالات رقم 23 ، نقلا عن لائحة حوالة قديمة للوصايا وأعيان أوقافها، فاستوعبت من هذا المصدر ص 73 ـ 81.

) وبالنسبة إلى الوصية الأخيرة ، وردت ـ أيضا ـ بالحوالة الجديدة لاحباس فاس خ. ع ، قسم الحوالات رقم 45، ص 173 ـ 180.

61) ورد اسم محمد بن عطو البربري الجاناتي في «روض القرطاس» ص 278 ثم عند ابن خلدون في «العبر» 7/212 في ترجمة يوسف المريني ، «وعقد السلطان على مراكش وأعماله لمحمد بن عطو الجاناتي من موالي دولتهم ولاء الحلف».

62) من بين بنات السلطان أبي الحسن يرد اسم صفية «حسب» روضة النسرين المطبعة الملكية ص 25، فهل هي صاحبة الوصية ؟

63) يشير الونشريسي إلى وقف معقب على الجزمي من تحبيس أبي عبد الله الحدودي «المعيار» س ـ ف 7/125.

64) نفس المصدر والجزء ص 210 ـ 211.

وقد حدد الكتاني موقع مسجد الصابرين في «سلوة الأنفاس» 2/55، وعن أهميته الروحية يقول لسان الدين ابن الخطيب وهو يتحدث عن فاس ، «ودار العبادة التي يشهد بها مطرح الجنة ومسجد الصابرين» معيار الاختيار ، ص 172 ـ 173، ثم يقول عنه ابن قنفذ القسنطيني ، «وهو موضع مبارك يأوى إليه أهل الفضل والصلاح» أنس الفقير نشر المركز الجامعي للبحث العلمي، ص 70.

65) «السلسل العذب» للحضرمي ، مخطوط خاص.

66) كتاب «الأساليب» آخر مجموعة مخطوط بالاسكوريال رقم 384 ورقة 71/أ.

67) ترجمته ومصادرها في «سلوة الأنفاس» 2/144 ـ 146.

68) «الملاجئ» الخيرية الإسلامية.» المجلة الزيتونية ج 6 مج 3 ص 277 ـ 278.

69) «بغية الانفاق بمحاسن فاس» سابقة الذكر.



في العدد 231

مؤسسة الوقف

ومصالح الاقليات الاسلامية في مختلف أرجاء العالم

للدكتور صلاح الدين الناهي

ليس الغرض من هذا الاستعراض أو التقرير معالجة أحكام مؤسسة الوقف من بعض نواحيها التقليدية منذ قيامها في عصر الرسالة والصحابة الى عصرنا هذا. وانما الغرض منها التوكيد على الصلات المتينة بين هذه المؤسسة وبين مصالح الاقليات الاسلامية المنتشرة في مختلف أرجاء العالم انتشارا يرجى منه الخير العميم في توثيق علاقات التعارف والتعاون بين مختلف الشعوب وبين الكتلة الاسلامية. اذ من المعروف أن الاسلام يقر التعايش السلمي بين المسلمين وبين غيرهم على أساس العدل لقوله تعالى (قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء) فقد فسرت الكلمة السواء بالعدل (1) الذي هو العلاج الوحيد لمختلف الأزمات التي تعصف في مختلف أرجاء العالم في عصرنا الحاضر. وتحيل نعمة التقدم الحضاري نقمة والتطلع للسلام سرابا وقلقا كابوسيا خانقا.

فنحن اذن أمام حقيقتين ملموستين :

1 ـ أمام جاليات اسلامية منتشرة في مختلف أرجاء الأرض تدين بالولاء لأوطانها وقومياتها والاسلام يقرها على ذلك في إطار العدل. وتدين بالولاء للمثل العليا في الاسلام وترغب في التمسك بالحقوق الأساسية لكل أقلية مهما كانت عقيدتها وايديولوجيتها شريطة أن لا تدين بالتعالي العنصري المقيت المشوب بالخرافات والأكاذيب الميتافيزقية كخرافات الصهيونية وأكاذيبها واسرائيلياتها الى رفضها الفكر الإسلامي المستنير (2).

2 ـ ونحن أمام مؤسسة قانونية إسلامية اجتماعية ثقافية هي محور اقتصادي يمت بتقاليده للاسلام منذ أقدم العصور. وهو الى جانب طابعه التقليدي من المرونة بحيث لا يستعصي على التطور والقدرة على الوفاء بحاجات الأقليات وتمكينها من ممارسة حقوقها الأساسية بما يوفره لها من معين مالي لا ينضب. وما ييسره من أسباب التقدم والتنمية الثقافية والاجتماعية. ولذا وجب أن تكون العلاقة بين هاتين الحقيقتين موضع عناية مستمرة وتمحيص دائب.

ولا أزعم لتقريري هذا غير كونه مناسبة لطرح بعض الآراء، ودعوة للتوفر على دراسة هذه العلاقة على ضوء واقع المعاناة في بيئة كل أقلية اسلامية. وما تتعرض له هذه العلاقات من معضلات وردود فعل. وما تتطلبه من المزيد

1) احكام القرآن للجصاص، وكتابنا نصوص قانونية وشرعية. ط 2.

2) انظر في تحليل تسرب الإسرائيليات للتفسير، الفكر الإسلامي وما أعقب ذلك من يقظة الفكر الإسلامي الناقد وموقفه الرافض من الإسرائيليات ما جاء في مقدمة ابن خلدون، وكتابنا نصوص قانونية وشرعية، ط 2 ص 59 / 60.

من الاحاطة بكل ذلك والمعرفة الواسعة بأحوال الاقليات الإسلامية التي لا يتوفر الدراسات الوافية عنها وهي أحوالها السياسية وحقوقها المقررة في النظر والعمل.

مهما يكن من الأمر فإن المؤسسة الوقفية لم تزل تنبض بالحياة على قدم عهدها ولم تزل بحاجة للمزيد من الاهتمام بها وتطويرها وجعلها جزءا من التشريع المدني (3) من جهة وتحديد أهميتها ومركزها في مضار حقوق الأقليات من جهة أخرى وقد كانت هذه المؤسسة من أقدم المؤسسات التي اضطلعت بدور اقتصادي اجتماعي إنساني متنوع الغايات والأهداف النبيلة في خدمة المصالح العامة والخاصة في مختلف نواحيها الإيديولوجية والثقافية فكانت الأوقاف معينا أثرا لترويد مختلف المنشآت الدينية والثقافية والاجتماعية وتفنن الواقفون في مختلف العصور الاسلامية ومختلف بقاع العالم الاسلامي في حبس الأحوال المنقولة وغير المنقولة على مختلف الأغراض الانسانية وتجاوزت تلك الأهداف المتنوعة حدود التطور فأوقف بعضهم الأوقاف لحماية الطيور في فصل الشتاء من الهلاك.

ونظرا لأهمية الوقف فقد انبرى القضاء الاسلامي في عصر مبكر لبسط رقابته على هذه المؤسسة حرصا على صيانة أهداف الواقفين من التحريف، وعلى أحوال الوقف من الابتزاز وضمانا لاستقرار الحياة والنشاط الذي تكفلت به الأحباس.

بعد هذا التمهيد الشامل لأبعاد مؤسسة الوقف عبر التاريخ والأهداف، يسعنا أن نقول أن من الطبيعي بعد أن قامت أقليات اسلامية في بلاد مختلفة تدين أغلبيتها بغير الإسلام أن تحرص تلك الاقليات على العمل بنظام الوقف باعتباره من النظم الحية المتكفلة بايديولوجية البر والانفاق في وجوه الخير الإسلامية، وأن تعمد الى حبس الأحباس لتمويل المنشآت الدينية والثقافية والانسانية من مساجد ومدارس وجامعات ومستشفيات ودور لايواء المسنين والزمن ومعاهد متخصصة في البحث العلمي الدائب في مختلف مجالات البحث وتوطيد العلاقات الودية بين الشعوب الإسلامية، أن هذه الحقيقة يؤكدها أن مؤسسة الوقف في الجمهورية التركية التي ارتكزت دعائم حكمها على العلمانية وتقبل النظم القانونية من الغرب أولت مؤسسة الأوقاف اهتمامها على الصعيدي الرسمي والواقعي. وأن الاقبال على وقف الأموال لمختلف الأغراض لم يزل قويا في تلك الربوع التي خصت الأوقاف والشؤون الدينية.

ولقد برزت أهمية العناية بأوقاف الأقليات الاسلامية في عصرنا الحاضر نظرا لانتشار جماعات وأقليات اسلامية متعددة في مختلف البلاد تتراوح نفوسها بين مئات الألوف وبين عشرات الملايين. ونظرا لاحتمال تزايد عدد هذه الأقليات بالهجرة واعتناق الاسلام واضطلاعها بدور بالغ في التعارف والتواد بين الشعوب ومناهضة الحركات العنصرية واللا إنسانية عملا بتقاليدها الاسلامية بحيث تخدم قضيتها وقضية شعوبها وقضية التعاون الوثيق بين تلك الشعوب وبين سائر الأمم والشعوب الاسلامية كما يتجلى ذلك في اتجاه يوغوسلافيا مثلا لاقامة علاقات ودية مع الشعوب والدول الإسلامية لأسباب منها في أغلب الظن وجود أقلية اسلامية في تلك الدولة.

مهما يكن من الأمر فقد أصبح من المسلم به وجوب تقرير الحق للأقليات الاسلامية في العمل بنظام أوقاف متطور من بعض جوانبه الشكلية التي تسمح بلقاء جوهره على مختلف المؤسسات العاملة في أقاليمها واعتبار العمل بذلك في الحقوق الانسانية الأساسية التي ينبغي توكيدها ودعمها.

ومن نافلة القول أن نكرر الإشارة الى أن مؤسسة الوقف من جملة المحاور التي يقوم عليها في واقع الأمر معظم الحقوق الأساسية للأقليات الاسلامية ـ ومع ذلك فان هذا لا يعني أن الاقرار للجاليات الاسلامية بالعمل بهذا النظام لا يصطدم ببعض الصعوبات والأزمات. ونظرا لاحتمالات متعددة في عصر طبعت حضارته حبلى

3) ان هذه الخطة السليمة عدل عنها القانون المدني العراقي باستعارته نظام المؤسسة المدنية في العوامل الشرعية الغربية بدلا من محاولي تدوين احكام الوقف الإسلامي تدوينا يحمل طابع الجدة والاستصلاح والاستئنال.

بمختلف أسباب القلق. ونظرا لاختلاف السياسة التشريعية في مختلف البلاد وهذه نقطة جديرة بالتنويه سنعود الى إيضاحها وحسبنا هاهنا أن نشير الى ان عمل الأقليات الإسلامية بنظام الأحباس الإسلامية في بلاد غير إسلامية لا يعني فرض هذه المؤسسة على مختلف النظم القانونية في مختلف البلاد العثمانية ومصر لأن الأوقاف التي تؤسسها الأقليات الإسلامية هي أوقاف وطنية خاضعة للقوانين الوطنية لدول تلك الأقليات - ولأنها منحة في دول تلك الأقليات لفريق من شعبها فلا سبيل الى تشبيهها بنظام الامتيازات القديمة الذي قصد به محاباة رعايا دول أجنبية متحكمة لا تعترف بغير مصلحتها في بسط نفوذها بدون عدالة تبادلية.

إن من المسلم به أن الاعتراف للأقليات الاسلامية في أوطانها وفي ظل سيادة دولها بالعمل بمؤسسة الأوقاف يدور حول مبدأين أساسيين :

1 - أولهما أن الاعتراف بهذه الأقليات بهذا الحق اعتراف بحق أساسي من حقوق الأقليات بغض النظر عن وصف الأقلية وصبغتها الدينية أو القومية.

2 - أن قيام تلك المؤسسات في بلاد غير إسلامية ينبغي له أن يكون في إطار النظام المسلم به في كل بلد من البلاد ودوله من الدول وهذا معناه أن يكون للدولة حق الرقابة على تلك الأوقاف شريطة عدم التعسف في الرقابة واتخاذها ذريعة لخلق تلك المؤسسات وشلها عن الحركة نحو أهدافها العادلة.

إن الانطلاق من الجمع بين هذين المبدأين معناه أن التسليم بالحقوق الأساسية للأقليات الاسلامية وغير الاسلامية يترتب عليه اعتبارا كل غصب لهذه الأوقاف أو خنق غادر أو حظر للعمل بها. اعتبارا كل ذلك تقويضا لمحور أساسي من محاور حقوق الأقليات. وأن لكل دولة مع ذلك بسط رقابتها التنظيمية على مؤسسة الوقف لئلا يساء استعمالها فتضار للمصلحة العامة والشرع الإسلامي يقر كل ذلك لأن من جملة تكاليفه الأساسية أنه يحارب الفساد والغدر.

إن سياق هذه المقدمات ينتهي بنا الى التسليم بأن بين الوقف وبين هذه الأقليات والجمادات وبين سائر الكتلة الإسلامية صلة وثيقة. فالوقف هو الركن الاقتصادي الذي يسند مركز الأقليات الإسلاميات ويمكنها من تنظيم شؤونها الثقافية وممارسة حقوقها الدينية والثقافية بما يمدها به ويزودها من امكانات مالية دورية لا تنضب ومن قدرة على التنظيم الذاتي.

إن هذه الحقيقة تتجلى اذا ما تذكرنا أن مؤسسة الوقف الاسلامية تقوم على مبادىء أساسية أولية تمتاز بالمرونة والجمع بين المصالح العامة والخاصة وأن في وسعها أن تتعايش سلميا في ظل مختلف الانماط والعوائل الشرقية التي تقر للأقليات بحد معقول من حقوق الانسان والمواطن فالوقف في أبسط تعريف له في الفقه الاسلامي هو عبارة عن تحبيس الأصول وتسبيل الثمرة (4).

إن المقصود بالتحبيس هاهنا تجريد الأموال الموقوفة من كونها محلا للملكية الفردية بجعلها مرصدة على غايات ومصالح انسانية واجتماعية وسائر وجوه الخير والبر. وفي هذا الحد الأدنى من الصبغة الجمعية أو الجماعية تتفق جميع العوائل الشرعية الى حد كبير. ولا تعارض في رصد بعض الأموال على بعض الاغراض والأهداف في معزل عن السلطة المعترف بها للمالك للفرد على ما يقبل الاستئثار بملكيته الفردية وبعبارة أخرى فالوقف مال متحرر من الصبغة الفردية للملكية تحرره يختلف باختلاف وجوه النظر.

إن هذا القدر من التركيب البنيوي للوقف لا يمكن أن يتصور أن يتنكر له أي نمط شرعي يقر للأقليات عامة بحد معقول من التعايش السلمي والتسامح الذي يمكنها من ممارستها حقوقها المشروعة بوصفها اقلية مسالمة تؤثر وطنها بالولاء وتدرك ضرورة التعايش السلمي العادل في إطار الوطن الواحد والمساوات في مستوى المواطنة والكرامة الانسانية.

إن هذه المسلمات لا تعني أن في وسع الأقليات المسلمة أن تمارس حقها في العمل بمؤسساتها الوقفية في

4) معجم الفقه الحنبلي مادة وقف.

اطار أهدافها المذكورة دون أن تعترضها العقبات ذلك أن مركز الأقليات المسلمة تختلف باختلاف الأحوال السياسية والإيديولوجية، ومنهم المسيطرين على الأجهزة التشريعية للمواطنة الحقة الكريمة فكيف السبيل الى تمكين هذه الأقليات في العمل بنظام الوقف بسلام ووئام ؟.

ان افتراض قيام سياسة إيديولوجية تضيق ذرعا بنظام الوقف الاسلامي وتطمح في اغتصاب الأوقاف الاسلامية دون اكتراث لحقوق الأقلية الاسلامية في امتلاك زمام هذه المؤسسة وصيانة ما يرتفق بمواردها من المنظمات الدينية والثقافية ومعاهد البر وأعمال الخير، أمر غير مستبعد اذا ما تذكرنا أن القرن العشرين أصبح مسرحا لمختلف الاجمالات السياسية الهوجاء التي تنبأ بها الفيلسوف البريطاني الراحل رسل في كتابه الموسوم بالسلطان (5) وتحقق بعضها بقيام دولة كاسرائيل التي تقوم سياستها الاستعمارية الاستيطانية على تهجير سكان البلاد الشرعيين وابادتهم حيثما وجدوا على مذبح مزاعم خرفية ووعد افتروه على الله بقيام دول لاهم لها سوى إشباع أحقادها الدفينة منذ عشرات القرون، والاستهتار بكل تفرعات المنظمات الدولية ودموع الرأي العام العالمي والادانات العاجزة عن حملها على الدول عن سياسة المجازر الدموية الحامية.

ولئن كانت اسرائيل أسوأ مثال عرف في هذا الصدد فان درجات متفاوتة من أمثال هذه السياسات غير مستبعدة. فما هو السبيل الى تمكين الأقليات الاسلامية من ممارسة حقها في العمل بنظام الوقف في الأطر المذكورة بسلام ؟

ان السبيل الى ذلك هو :

1 - تعريف الدول التي تعيش في اقليمها أقلية مسلمة بحقيقة نظام الوقف من حيث هو نظام شبيه بنظام المؤسسة المدنية المكرسة أصولها لتحقيق أهداف وأغراض انسانية باشراف جهة معينة ادارية كانت أم قضائية. حتى اذا اقتنعت تلك الدول بأن الوقف لا يعدو هذه الأهداف سلمت بأن السماح بالعمل بالوقف هو جزء من التكفل بالحقوق الانسانية التي ينبغي الاعتراف بها للأقليات الاسلامية.

2 - ولتحقيق هذا التعريف ينبغي سن عقد نموذجي لمؤسسة الوقف الاسلامية بصيغة متطورة تبسط بموجبها أحكام هذه المؤسسة ويؤكد على عدم تعارضها والسياسة الايديولوجية المترفة لأي مذهب سياسي عادل.

والى جانب ذلك ينبغي معرفة ما تعانيه مختلف الأقليات المسلمة من صعوبات وتعنت في ممارسة حقها في العمل بنظام الوقت ليشير على ضوء ذلك رسم سياسة موحدة لاقناع مختلف الدول بضرورة احترام حق أقلياتها الاسلامية في العمل بنظام الوقت سواء بالمحافظة على ما هو قائم أم بانشاء أوقاف جديدة. ذلك أن الوقف كلما أشرنا مرارا هو المرتكز الاقتصادي لمختلف حقوق الأقليات في ممارسة تراثها الثقافي.

كلمة ختامية :

ان هذا التقرير أو البحث لا يعدو - كما أشرنا في بدائية تخطيط معالم التفكير في هذه الصلات بين مؤسسة الوقف وبين مصالح الأقليات الاسلامية في اطار حقوقها المشروعة على كثرة تلك الأقليات واختلاف ظروفها وأحوالها السياسية والاجتماعية والثقافية في مختلف الدول. ولا ريب أن من المستحسن اسهام عدد من قادة الفكر في تلك الاقليات في معالجة هذا الموضوع واستعراض أحوال جماعاتهم ومدى ما يتمتع به كل جماعة منها من حقوق وضمانات دستورية وقانونية سواء على صعيد التقريرات التشريعية النظرية أم في واقع الأمر.

على أن أهم ما توخاه كاتب هذا التقرير هو إبراز أهمية التفكير بالأقليات المسلمة في كل مناسبة يعالج فيها شأن من الشؤون الاسلامية لأن لتلك الأقليات أهمية بالغة، ولها فضل مواصلة السعي لنشر مبادىء الاسلام وفي مقدمتها بعد التوحيد ما رسمه الاسلام للانسان من مكارم الأخلاق والمثل العليا في توخي التقدم والكمال والعدل والتعايش السلمي بين المسلمين وبين غيرهم. وهم في

---

5) السلطان (   ) وقد ترجم للعربية.

ذلك مخلصون كل الإخلاص لأن دينهم لا يدعوهم لموالاة دولة أخرى غير دولتهم التي يعيشون على ترابها فهم في ذلك حلقة وصل بين مختلف الثقافات ورواد توفيق وسلام، وتوثيق أواصر التعاون المحبة وولائهم الاسلام لا يتصور أن يدخل الضعف والوهن لولائهم لأوطانهم. خلافا، فالتعليم الصهيونية التي تحمل اليهود على ولاء أعرج بما يتحالف من تلقينهم بأنهم شعب مختار لا يدين بالولاء لغير اسرائيل.

وهي حقيقة أدركها العالم واتضح أمرها في المنظمات الدولية بما سجل فيها من الطابع العنصري للحركة الصهيونية وبما أعقب ذلك من أحداث سياسية أبادة الأعراض البشرية (الجنسية) التي أتضح أمرها في مجازر بيروت العشوائية الوحشية.

وثمة نقطة أخرى يحسن التنويه بها في خاتمة هذا التقرير مفادها أن علينا كلما أثيرت قضية من قضايا تراثنا الشرعي أن نعيد النظر فيه على نحو جديد يلائم ظروف العصر ويواصل عملية الاجتهاد دون أن تقتصر على استعراض الجوانب التقليدية منه.

فاذا عقدنا العزم على ذلك فان ذلك لا يعني اهمال تلك الجوانب وانما يعني أننا وجدنا فيها ما يلقى أضواء عديدة عليها، فاذا نحن أمام نبتة قديمة ولكنها قادرة على مواصلة النمو في عصر جديد، رغم تغير بعض الأجواء ولذا فان علينا أن لا نقف مبهورين أمام منطلق الاجهاد العديد وعلى ضوء العصر القديم بل ينبغي أن نلم بما جد من ضرورات وما تغير من مصالح وأحوال.



حركة التعليم في تمبكتو

في بلاد التكرو خلال القرن 16 ودور الأوقاف في ازدهارها.

للدكتور عبد القادر زبادية

1 ـ **نحو الاوج :** كان القرن السادس عشر، هو الفترة التي بلغت خلالها الحضارة الإسلامية أوجها بالسودان الغربي. أما الحقبة الممتدة بين القرن الثامن والقرن الخامس عشر، فقد كانت فترة تطورات متلاحقة لبلوغ مرحلة الاوج هذه (1).

ومنذ استقرار الإسلام بالمنطقة مع نهاية القرن التاسع الميلادي، بدأت تتكون بها عدة تنظيمات حكومية، ظلت تتخطى الشكل القبلي القديم بالتدرج. وقد وصلت المرحلة الوطنية مع نهاية القرن الخامس عشر (2).

---

1) بدأت أول محاولة استطلاعية قام بها العرب لتبليغ رسالة الإسلام إلى غرب السودان في القرن السابع الميلادي فقد ذكر ابن عبد الحكم أن عقبة بن نافع الفهرى أرسل فرقة صغيرة من جيشه إلى الجنوب الغربي، وذلك حينما بلغ برقة من حدوت 676م. وقد وصل رجال تلك الفرقة إلى جبال الطوس، وتوقفوا عند مكان يدعى (ماء الفرس)، وموقع ذلك المكان في الوقت الراهن عند حدود فزان ـ النيجر.

ولا نميل إلى الاعتقاد بأن هجومات المرابطين في القرن الحادي عشر على بعض المناطق المحادية لنهر السينغال من ناحية الشمال، كان لها أثر كبير في حمل الناس على الإسلام، لأن المرابطين ما لبث عنايتهم إن تعلقت بالشمال، ولم يبق منهم بالجنوب إلا جماعة صغيرة، ما لبثت أن توقفت عن النشاط هي الأخرى وذلك حينما وصلت منطقة (كمبي صالح في حدود سنة 1076م.

ولعل الأثر الأكثر أهمية في اعتناق السودانيين للإسلام كان قد حصل كنتيجة لإسلام المغاربة، فقد كان هؤلاء على اتصال منذ القديم بغرب افريقيا. ولما ازدادت تلك الصلة قوة عن طريق التجارة خلال العصور الوسطى، كان من أثرها المباشر إقبال امراء وسلاطين السودان على اعتناق الإسلام، وكان رعاياهم يتبعونهم بصورة تلقائية تقريبا.

2) خلال العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة تكونت في السودان الغربي ثلاث ممالك كبرى، وقد ظهرت في البداية مملكة غانا (في منطقة شمال السنغال وجنوب موريتانيا حاليا)، وقد أثبتت دراسات الأستاذ (بازل دافدس) أنها قامت منذ البداية في شكل قبلي صرف طغت فيه قبيلة على مجموعة من القبائل، وفرضت عليه الخضوع لحكمها وبنفس الطريقة أقامت قبائل الماندينغ مملكة مالي التي بلغت قوتها خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر، ولكن نوعا من الكونفيدرالية ظهر على مالي منذ القرن الثالث عشر، فكان في ذلك جمع بين الصورة القبلية السابقة والصورة الوطنية المقبلة.

ثم قامت مملكة سنغاى في عهدها الأول في شكل قبلي أيضا، إلا أن الاسقيا محمد الأول (1493 ـ 1528) ادخل عليها تعديلات جوهرية، فأبعدها عن الشكل القبلي وأعطاها صبغة وطنية، بحيث أصبحت تشترك في تسيير المملكة معظم القبائل المنضوية تحت لوائها وقد اضطر من أجل الوصول لذلك الهدف إلى خوض معارك حامية ضد زعماء قبيلة سنغاى الذين لم يرضوا مشاركة بقية القبائل لهم في الحكم، ولما انتصر عليهم كان ذلك ايذانا بتخطي الأشكال القبلية القديمة، وذلك لأول مرة في تاريخ السودان الغربي حتى القرن السادس عشر.

لزيادة التفاصيل، يمكن مراجعة المصادر التالية بصورة خاصة وهي :

ـ دافيدس، بازل، افريقيا تحت أضواء جديدة، دار الثقافة بيروت 1963 (ترجمة م. احمد).

ـ قداح، نعيم، افريقيا الغربية في ظل الاسلام مطبعة الوحدة دمشق (دون تاريخ).

ـ عبد القادر، زبادية، مملكة سنغاى في عهد الاسيقين، الجزائر 1973.

– J. FAGE, Introduction to the history of West Africa, Cambridge 1955.
– A. DIOP, l'Afrique Noire, Pré-coloniale Paris, 1960.
– J. SURET – Canale, Afrique Noire géog. Civilisations, Histoire, Paris, 1961.

الحركة التعليمية في تمبكتو :

وقد اعتمد استقرار الإسلام منذ البداية على عنصرين أساسيين، هما التجارة والتعليم، وظلت المظاهر الحضارية في كل السودان الغربي إنما تزداد ازدهارا في كل حقبة بالمدن التي تتلاءم مواقعها مع توارد قوافل الشمال عليها، بالدرجة الأولى (3).

وكان القرن السادس قد قيض خلاله لمدينة تمبكتو أن تصبح محطة القوافل الأولى في كل بلاد السودان، فسكنها كثير من التجار وقصدها جم غفير من العلماء والطلاب، مما بواها أثناءه مكانة المدينة الأولى للعلم والثقافة في السودان العربي كله (4). وفي تلك الحقبة وصفت بأم مدائن السودانيين سواء في العلم والحضارة، أو في العمران والتجارة (5).

2 ـ من مظاهر الإزدهار : خلال القرن السادس عشر أصبح سكان تمبكتو يزيدون على خمسة وثلاثين ألف ساكن، وربما لم تعد تفوقها آنذاك في كثرة السكان مدينة سودانية أخرى في غرب افريقيا، غير غاو العاصمة السياسية للامبراطورية السنغائية التي كانت تمبكتو آنذاك احدى مدنها العامة (6).

وفي تلك الأثناء أصبحت تمبكتو العاصمة الثانية للامبراطورية في ميداني الإقتصاد والثقافة معا (7). وقد انتظمت شوارعها، وأحيطت المدينة بسور أما المنازل فقد ازدانت نسبة كبيرة من بينها بواجهات في شكل زرائب أو حدائق صغيرة، تربطها إلى حيطان البيوت سياجات (8). وقد احتوت تمبكتو في تلك الأثناء على ثلاث مساجد كبيرة (جوامع) مما لم يتهيأ لغيرها من كبريات مدن

---

3) ظلت المراكز الحضارية بالسودان الغربي حتى القرن السادس عشر، هي المدن التي كان يأتي إليها أو يقطنها كثير من تجار الشمال، أما البوادي والقرى، فقد ظلت تعيش على الأساليب البدائية القديمة ويرى الأستاذ (ديبوا) أنه لا يوجد في تاريخ السودان الغربي أثر حضاري وثقافي إلا في المدن التي كانت تتوارد عليها القوافل، وبهذه الصورة قامت، والاتا في البداية كمركز ثقافي وحضاري كبير.

ولما ظهرت الاضطرابات في منطقتها كنتيجة لتوسع مالي خلال القرن الثالث عشر، ضعفت والاتا بسرعة منذ ذلك الحين، وهاجرها العلماء إلى (تمبكتو) التي اتخذها التجار من جديد محطة لنزولهم، انظر
F. Dubois, Tombouctou la mysterieuse, Paris, (Flammarion), 1897, P. 263.

4) يعود تأسيس مدينة تمبكتو إلى القرن الحادي عشر، وقد أسسها طوارق (ايمغراشن) حينما اتخذوا من مكانها مشتى لهم في حدود ذلك التاريخ. أما خلال الصيف فإنهم يعودون إلى (اروان) حيث مرابعهم الأصلية. ويقال أن اسمها أخذته من اسم العجوز التي كان الطوارق قد عهدوا إليها بالبقاء في ذلك المكان حينما يغادرونه في رحلتهم الصيفية، وكانت تحرس لهم فيه بعض المخازن والبيوت، ثم مالبث بعض التجار أن عقدوا سوقا في ذلك المكان واتخذوا فيه مستودعات للبضائع، وبذلك أخذت المدينة طريقها إلى النمو التدريجي، ولكن دون نظام، وفي أيام كنكان موسى ملك مالي (القرن الرابع عشر) بنى له فيها قصر فخم، كما أسس أول مساجدها المسمى (دنقربير) وقد بناها الشاعر الساحلي، وهو مهندس غرناطي استقدمه كنكان موسى معه حين عاد من الحج حوالي سنة 1326م. وفي تلك الأثناء هاجر عدد من العلماء مدينة والاتا (المركز الثقافي الأول في غرب السودان حتى ذلك الحين) وسكنوا تمبكتو، فزادها ذلك ازدهارا، أما التجار فقد أخذوا يستعيضون بها عن والاتا بالتدريج، وما أن أطل القرن السادس عشر حتى جمعت تمبكتو بين التجارة الواسعة 1591. وفي تلك الأثناء انتظمت شوارع المدينة، واكتسبت معظم ابنيتها شكلها الهندسي على النمط المغربي ـ الأندلسي، كما نقله اليها الساحلي يقول السعدي : (وما تكامل البناء في تمبكتو، في الاتصاق والالتئام إلا في أواسط القرن العاشر، في مدة اسقيا داود) انظر :

ـ السعدي، عبد الرحمن، تاريخ السودان، ميزوناف باريس 1946 تحقيق هوداس وبونوا، ص 22.

5) 252.

6) جرت محاورة لطيفة في ذلك الوقت بين جماعة من سكان تمبكتو وجماعة من سكان غاو، وقد احتد النقاش بين الفريقين حول أي من المدينتين أكثر بيوتا، مما أدى بهما إلى عد بيوت كل من المدينتين على حدة، وقد استدل من ذلك على أن سكان تمبكتو يزيدون على الثلاثين ألف ساكن. انظر :

ـ كعت، محمود، تاريخ الفتاش، ميزوناف، باريس 1964 (تحقيق هوداس) ص 145.

– Manuny R., Tableau geographique de l'Ouest Africain, Dakar 1961. P. 491.

7) في ميدان الثقافة تتفق مراجع تلك الفترة على أن تمبكتو لم يكن يجاريها في ذلك الوقت مدينة أخرى، لكثرة العلماء والطلاب بها ونشاطهم المتزايد أما في ميدان الإقتصاد فأن امراء سنغاي، كانوا حينما يحتاجون للمال في أوقات الشدة يلجأون للاقتراض من تجار تمبكتو، كما أن بعضهم زوج بناته بأغنياء التجار في تمبكتو، ولم يحصل هذا مع غيرهم، وقد تأثر الحسن بن محمد الفاسي الوزاني بالنشاط التجاري الذي كانت عليه المدينة، وكثرة بضائعها، مما جعله يعتبرها إمارة قائمة بذاتها. انظر :

ـ السعدي، عبد الرحمن، نفس المصدر ص 22.

ـ أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، فاس 1317 هـ ص 41.

– Jean Leon l'Africain, Description de l'Afrique, Trad, Schefer et Cordier, Paris, Burdin 1898 T. 3, P. 292.

8) يذكر السعدي، نفس المصدر، ص 18 أن تمبكتو كانت حين نشأتها الأولى لا سور لها والواقف خارجها يستطيع مشاهدة داخلها، وفي أيام الأساقي أصبحت تتوفر على ذلك السور كما أن البيوت لم تعد مكشوفة، ثم يذكر أنه في عهد الطوارق لم يكن لبيوتها نظام، أما في القرن السادس عشر، فقد انتظمت بيوتها ودكاكينها، ووجدت بينها ممرات في شكل شوارع.

السودان الغربي آنذاك (9). وأخذت أسواقها طابعها الإسلامي (10) كما كانت ترى توارد العديد من القوافل الكبيرة عليها (11) وسكنتها جماعة من التجار الأغنياء. أما حركة التبادل، فإنها كانت تمر بفترة من النشاط معتبرة (12). مدينة السودان الأولى وإذا كان القرن السادس عشر قد ظهر خلاله تمبكتو في علاقاتها التجارية مع بلدان المغرب ومصر، فإن ذلك القرن هو الذى أصبحت خلاله تلك المدينة أيضا مركزا هاما من مراكز الإنتاج الثقافي ضمن ميدان الحضارة الإسلامية الفسيح. وبذلك لم يقتصر دورها في هذا الجانب على مجرد التبادل مع جزء من العالم الإسلامي. وإنما تجاوزه إلى استيعاب ما انتجه العالم الإسلامي ككل، والمشاركة في تنميته ونشره بين أمم السودان الغربي وشعوبه (13).

3 ـ **حركة التعليم :** رأت تمبكتو في القرن السادس عشر نشاطا قيما يختص بحركة التدريس. وقد ضمت مدارسها العديد من الطلاب والأساتذة. كما رأت لأول مرة في تاريخ السودان الغربي، اتساع التعليم الجامعي. وتوارد عليها في تلك الأثناء عدد من الأساتذة من بلدان المغرب، فساهموا في تنشيط التعليم وتعميقه (14) وفي تلك الفترة بدأ العلماء السودانيون في الانتاج فكتبوا شروحا لعدد من المؤلفات الهامة التي ألفت خارج السودان. وقد صاحب ذلك انتظام مراحل التعليم. وأخذه طابعا عاما كانت له مميزاته وخصائصه (15).

أ ـ **مراحل التعليم :** كان التعليم في تمبكتو خلال القرن السادس عشر ينقسم إلى ابتدائي وثانوي وعال. وكان التعليم الإبتدائي تنسجم فيه المرحلة الأولى الأساسية لكل الطلاب (16). هذا بالإضافة إلى أن مرحلته هي الوحيدة التي يبدو أنه كان يراعي فيها إلى حد ما. مستوى السن فكان التلاميذ في السلك الإبتدائي لا يتجاوزون في أغلبيتهم مرحلة الصبا (17).

9) وجود المساجد الكبيرة في مدينة ما. كان يشير إلى نشاط التعليم وتكاثر السكان واتساع الأحياء. والمدن الكبيرة بالسودان الغربي في تلك الحقبة، هي : غاو، جنى وتمبكتو أما جنى فقد كان بها مسجدان أحدهما صغير وربما لم يكن في غاو غير جامع واحد. واما تمبكتو فقد كان بها ثلاثة مساجد كبيرة هي :
أ ـ مسجد الونكريين (دنكريبر).
ب ـ مسجد سنكرى.
جـ ـ مسجد سيدى يحى.

10) كان يغلب على نظام الأسواق في المدن الإسلامية الكبرى، تقسيمها إلى أقسام ويختص كل قسم بنوعية معينة من البضائع مما مكن الفاطميين من اتخاذ عرفاء على تجار كل نوع من البضائع، في شكل نقابيات. ينظر : حسن ابراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1963.

11) لا نستطيع تقدير عدد القوافل التي كانت تجهز بين شمال افريقيا والسودان في القرن السادس عشر، أما في القرن الرابع عشر، وكان أقل من السادس عشر نشاطا بدون شك، فقد قدر ابن خلدون في (التاريخ ج 7، ص 435 ط، بيروت، 1963) حجم كل قافلة بما لا يقل عن اثني عشر جملا. وذهب إلى أن كل القرى والمدن الواقعة على مشارف الصحراء الشمالية كانت تشترك في تجهيز القوافل باتجاه السودان.
Cf. J.L.L. Africain op. cit pp. 292-96 ; Dubois, op.cit ogap. XIII.
Incyclopédie de l'Islam, T. IV (S-Z), Leyde, 1934, p. 816.
غير أن صاحب الدراسة يذكر أن تمبكو قد احتلت من قبل المغاربة في أيام الاسقيا داود والواقع غير هذا، لأن المغاربة لم يدخلوا المدينة كفاتحين إلا في آخر عهد الاسقيا اسحاق الثاني 1591.

14) كان من أبرز من وفد عليها من علماء المغرب واكتسبوا بها شهرة في تلك الأثناء محمد ابن عبد الكريم المغيلي، سيدي يحى التادلسي، مخلفوف البلبالي، وابراهيم الزلفي وكذا عدد هام من علماء توات.
ـ ينظر الهدى، المصدر المذكور، صفحات 21 ـ 45 ـ وعن المغيلي خاصة ينظر تحقيقا لاسئلة الاسقيا وأجوبة المغيلي، الجزائر 1974.

15) من الجدير بالذكر هنا أن كل التأثيرات الخارجية التي عرفها السودان الغربي في ميدان الحضارة، حتى نهاية القرن السابع عشر، كان الفضل فيها يعود للمغاربة وللمصريين بالدرجة الأولى، وبالنظر للعوامل الجغرافية فإن المغاربة كانوا أكثر تأثيرا من المصريين أما الأوربيون فإنهم حتى القرن الثامن عشر كانوا لم يتجاوزوا السواحل، وحتى نهاية القرن السابع عشر، ظلت معلوماتهم عن الداخل نظرية بحتة وحتى نهاية القرن الرابع عشر بقى اكتشاف داخل القارة الافريقية عموما والسودان الغربي بشكل خاص للعرب وحدهم، ولعل أول محاولة أوربية للوصول إلى المناطق الواقعة جنوب المغرب الأقصى كانت هي رحلة الأخوين (Vivaldi) من جنوا اللذين حاولا الوصول إلى ريودى ارو (وادى الذهب) سنة 1291م ولكن غابت أخبارهما من ساعتئذ، وفي 1447 حاول الرحالة (مالفانت) الايطالي الوصول إلى تمبكتو عن طريق توات ولكنه لم يتمكن، فبقي اياما في تلك الواحة ثم عاد ومن هنا، فإننا نميل إلى الاعتقاد بأن كل تقدم أحرزه السودان الغربي في ميدان التعليم، ظل إسلاميا وبتأثير من الحضارة العربية وحدها، وهذا حتى بداية القرن العشرين لزيادة التفاصيل يراجع بصورة خاصة :
Coquery, Catherine, La découverte de l'Afrique, Paris, 1915. De Zuraca, C.E., Chronique de Guinée (Trad. Bourdon) Paris, 1941. Chap. 9, P. 56. Ca de Mosto, RElation de voyages a la Cote occidentale DEBaross, J., De Asia, Lisbonne 1778 T. I, Chap. 2.

16) كان الأساتذة في المرحلتين الثانوية والعالية لا يتعاطون تعليم القراءة والكتابة، ولذا كان على كل طالب أن يدخل المدرسة الإبتدائية أولا، ليتزود منها بما يمكنه من معرفة القراءة والتسجيل، وهذا قبل أن يجلس في حلقة أى أستاذ كان.

17) لا يشير المؤرخون السودانيون من تلك الفترة لتلاميذ المرحلة الابتدائية الا بعبارة (الصبيان) ينظر مثلا :
ـ كعت، المصدر السابق ذكره صفحات 95 ـ 178 ـ 180.
ـ السعدى، نفس المصدر المذكور صفحات 19 ـ 22 ـ 130.

وبعد أن ينهي الطالب مرحلة التعليم الإبتدائي، يدخل مرحلة التعليم الثانوي والعالي؛ ولم يكن لهاتين المرحلتين عرف معين في السن. كما أن الفروق بينهما لم تكن واضحة. ولعل مرد ذلك إلى أن هاتين المرحلتين كان التعليم فيهما حرا بالنسبة لانخراط الطلبة (18). أما في المرحلة الإبتدائية فلا شك أن الآباء هم الذين كانوا يقودون أبناءهم إلى معلمي الصبيان. ويجبروهم على الدوام. كما يراقبون مدى استيعابهم (19). وكانت مرحلة التعليم الثانوي تمتاز بأن الكتب التي تدرس فيها هي الكتب المبسطة. وكان يتولى تدريسها غالبا من يسمون بـ (الأشياخ) (20). ويبدو أن الأشياخ في العرف العام آنذاك كانوا متوسطي الثقافة بالنسبة للأساتذة. ولكن عددا من الأساتذة تعاطوا أيضا تدريس مثل هذه المؤلفات. وهذا مما يجعل الإنفصال بين المرحلتين واضحا للباحث لأن أولئك الأساتذة في نفس الوقت كانوا يجمعون إلى ذلك تدريس أمهات الكتب المفصلة في نفس الموضوع. ويبدو أنهم كانوا يقسمون أوقاتهم خلال النهار فيدرسون مثلا في الصباح طلاب في مستوى الثانوي. ثم يجلسون بعد الظهر لطلاب المرحلة العليا أو العكس (21). ومن هنا يبدو الانتظام في المراحل التي يمر بها الطالب من حيث التدرج في مستويات التعليم بين المراحل ووجود منهج قار لكل مرحلة ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن أولئك الأساتذة والأشياخ كانوا يؤمنون بكثير من خوارق العادات. فهناك من بينهم من يعتقدون بالغيبيات. ويعملون لحصل الناس على تصديقهم. وكان المتخرجون على أيديهم يتطبعون بتلك الروح في الغالب (22).

ب ـ أمكنة التدريس : كانت أمكنة التدريس الأساسية هي المساجد والجوامع وكان من أشهرها وأكثرها اكتظاظا بجموع الطلبة والمدرسين. خلال القرن السادس عشر جامع (سنكورى) (22). وهو يقع في القسم الشمالي من مدينة تمبكتو وقد بنته سيدة فاضلة ورد في الروايات أنها كانت من الموسرات (23) ثم جامع (دنفريير) وكان قد بناه في الأصل أحد الأندلسيين لكانكان موسى صاحب مالي (24). ثم ادخلت عليه تحسينات ووسعت مساحته

18) كان الأساتذة في هاتين المرحلتين يجلسون للتدريس. ويتحلق حولهم الطلاب ويجلس الطالب في حلقة ما. حسب رغبته في المادة التي يكون الأستاذ بصدد تدريسها أولا. ثم حسب قدرته على الفهم والاستيعاب.

19) تحدث ابن بطوطة (القرن الرابع عشر) عن حرص السودانيين على تحفيظ أبنائهم القرآن وتعليمهم الأخلاق منذ الصغر ويذكر من أمثلة ذلك عن أحدهم أنه كتف ابنه بحبل يوم العيد ولم يقبل حل وثاقه رغم توسل البعض إليه في ذلك. حتى حفظ الجزء الذي يطلب منه. ولم يؤثر لناشىء عن تغير تلك العادة لديهم فيما بعد.

20) تحدث محمود كعت مثلا عن مدرس كان يشرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني إلى الاسقيا داود فسماه (الشيخ). وتحدث كل من السعدى وأحمد بابا عن عدد ممن أخذ عليهم. فوصفا من درسوهما الكتب المفصلة الكبيرة في مادة ما. مثل الفية ابن مالك والعاصمية بـ (الأساتذة) ووصفا اللذين كانا قد أخذا عليهم مثل الرسالة وابن عاشر والاجرومية والأشياخ وهناك فريق ثالث كانا قد أخذا عليهم مثل الاجرومية والألفية معا. أو الرسالة. فوصفاهما ـ (شيخي وأستاذي). ينظر : السعدى. نفس المصدر. صفحات 20 ـ 33 ـ 64.

21) أحمد بابا. المصدر نفسه. والسعدى. المصدر السابق. ص 44.

22) زخرت كتابات كل من أحمد بابا وعبد الرحمن السعيدي ومحمود كعب أثناء الحديث عن أشياخهم وأساتذتهم. بذكر كل ما كان يدعى معظم الاتصاف به من (معرفة الغيب) وانطباق ما يرونه في المنام على واقع المستقبل) و(توقيفهم لنزول المطر على طلابهم حين يجتمعون بهم في العراء) أو كـ (انفتاح باب قبر الرسول على مصراعيه لأحدهم حين الحج). و(انشقاق مياه البحر إلى شطرين أثناء عبور آخر للنهر). وغير ذلك وهم يفسرون هذا دائما بكون أولئك العلماء الذين تتفق لهم مثل تلك الخوارق من (أولياء الله). ولعل مرد ذلك كله إلى بقاء الروح الاسطورية القديمة في النفوس. وليس كما ذهب إليه الاسقيا محمد في رسالته إلى المجلس المغيلي مثلا. من أن العلماء في بلاده لا يفهمون العربية فهما جيدا. ثم يؤدى بهم الادعاء إلى القول بما ليس في القرآن. لأن أولئك المدرسين كان يبدو من أعمالهم التطلع الكافي بما يدرسون وقد ترك أغلبهم شروحا وحواشي للمواد التي كانوا يدرسونها وقد قيدها عليهم طلابهم. وبقيت موجودة حتى الآن وهي تؤكد تضلعهم في العربية وفي المواد التي كانوا يدرسونها.

23) أصبح جامع سنكورى في تلك الفترة. بمثابة جامعة للسودان الغربي كله وقد توارد عليها جماعة من الأساتذة اللامعين. وكانت المواد التي تدرس فيها بتعمق. ينظر بصورة خاصة :

- Delafosse, M., Haut Sénégal – Niger, Paris, 1912 2 P. 346.
- Pefontan (Lieut.) « Histoire de Tambouctou », in bull, de l'Afrique occidentale, 1922, (Tirge à Part).

24) بناء السيدات الموسرات للجوامع كان قاعدة مرعية لدى المسلمين على ما يظهر. ويمكن أن نذكر من أمثلة ذلك أيضا. بناء السيدة فاطمة الفهرية لجامعة القرويين. كما أن عددا من الخاتونات هن اللائي كن بنين عدد من المساجد في العراق والشام ومصر. ويلاحظ بهذا مدى تأثر التمبكتيين بالتقاليد الاسلامية من المشرق أو المغرب على السواء.

25) الأندلسي. هو أبو عبد الله الساحلي (المعروف بـ (الطويجن) في كثيرة من الروايات وهو أحد شعراء غرناطة. وكان معماريا. ثم التقى في موسم الحج بالسلطان موسى الأول. فاستقدمه معه إلى السودان الغربي حوالي 1326م. وقد بنى في تمبكتو جامعا وقصرا للملك. كما بنى في (نيني) عاصمة مملكة مالي آنذاك قصرا آخر. ويقال أنه منذ ذلك الوقت أخذ الأسلوب المغربي ـ الأندلسي في فن البناء ينتشر بغرب السودان.

مرتين خلال القرن السادس عشر وذلك لكي يسع جموع قاصديه من الطلبة والمصلين، ويبدو أن تكاثر الازدحام عليه، هو الذي كان يدعو باستمرار إلى العمل على توسيعه (25)، ويأتي بعد هذين مسجد سيدي يحيى، وقد بني تخليدا لأحد علماء المغرب الذين باشروا التعليم في تمبكتو خلال النصف الأول من القرن السادس عشر، فاجتهدوا في تعليمهم وأفادوا الناس (26)، وإلى جانب هذه المساجد الثلاث كان يوجد جامع خالد، وهو كما يدل اطلاق اسم الجامع عليه كان كبيرا نسبيا، إلا أن الدراسة فيه ربما كانت مقتصرة على المرحلة الثانوية فقط (27).

وقد كانت بعض الجوامع تحتوى على مراحل التعليم الثلاث، فيجلس في جانب من الجامع طلبة القرآن مع تلاميذهم، ويجلس في فنائه وقاعاته غالبا أشياخ التعليم الثانوي وأساتذة التعليم العالي (28)، ولكن طلبة القرآن في الغالب كانوا يتخذون دكاكين خاصة لعملهم أو يلتصقون بجنبات المساجد الصغيرة (29) كما أن بعض الأساتذة وكذلك الأشياخ، كانوا أحيانا يتعاطون التدريس في منازلهم، إلا أن هذا كان في حالات قليلة، أما غالب جلوسهم، فقد كان في رحاب المساجد والجوامع (30).

جـ - طريقة التدريس : كانت المناقشة بين الأستاذ وطلابه جاريا بها العمل (31) أما التواضع ولين الجانب للطلبة، فقد كانا من شبه الأساتذة اللامعين بتمبكتو في تلك الفترة (32)، وكان صبر الأستاذ على تفهيم طلبته يعتبره الثاني من صفات الأساتذة الناجحين في مهنتهم (33)، وكانت الطريقة الشائعة في الدرس هي أن يبدأ الأستاذ بإملاء رأيه في المسائل على طلبته وبعدها يقرأ الطلاب درسهم من الكتاب المقرر بحضور الأستاذ، ثم يطلب كل منهم توضيح ما يشكل عليه، وأثناء ذلك يقيد الطلبة التفاسير التي يعطيها الأستاذ كجواب على استفساراتهم (34).

ويبدو أنه أثناء الشرح كان الأساتذة يختارون العبارات المبسطة لكي يتمكن طلابهم من استيعاب ما يقولون (35)، ولعلنا إذ أردنا أن نوجز معالم الطريقة المثلى في اعتبار الناس آنذاك، فإننا ربما نجد في أبيات المرثية التالية، وهي من تلك الفترة، خير معبر عن ذلك (36).

اطلاب علم الفقه تدرون ما الـــذى
يثير هموم القلب من كل وافـد ؟
يثير هموم القلب فقد سيـــدع
فقيه حليم حامل للفرائـــــد
بحسن تعليم المقرب فهمـــــه
وفتاق تهذيب بحسن الفوائـــد
محمد الأستاذ مؤدب ذى النهـــى
رباطا صبارا أمره في التزايـــد

26) وسع جامع سنكورى مرتين خلال القرن السادس عشر وكانت المرة الأخيرة في سنة 1980م، وقد قام بذلك القاضي (العاقب) الذي تناهى إلينا أنه كان يصرف على الأشغال من ماله الخاص، ولم يقبل من بعض الموسرين رغم إلحاحهم عليه مشاركتهم له في الإنفاق، إلا أشياء رمزية فقط، ومهما يكن فإن أعمال التوسع في حد ذاتها تشير إلى تكاثر الطلبة وازدهار التعليم في سنكورى، مما جعله يحتل المرتبة الأولى من جوامع تمبكتو في تلك الأثناء، انظر كعت، نفس المصدر المذكور، ص 41.

27) هو يحى التادلسي، وقد سكن تمبكتو، وكان في حياته قد اتخذ في مكان ذلك المسجد بيتا صغيرا للتدريس، ويقول كعت: إن أهل تمبكتو (كانوا يعتقدون فيه فلما مات بنوا على قبره ذلك المسجد)، وقد تحول سريعا إلى جامع كما يبدو لتكاثر سكان الحي الموجود به، ولازدهار التدريس في المدينة ككل، مما جعل الطلبة والمدرسين يملؤون كل الرحاب.

28) لا يذكره محمود كعت إلا كجامع صغير، ورغم ذلك فقد كان يتوارد عليه الطلبة والمعلمون ويفهم من كلامه أنه كان يوجد بالمدينة آنذاك كثير من المساجد الصغيرة غيره ينظر كعت، المصدر السابق، ص 38.

29) هذا ما يفهم من كلام السعدى أثناء الحديث عن تمبكتو في عهد الاسقيا داود انظر السعدى، نفس المصدر، ص 47.

30) كانت المدارس الابتدائية الخاصة بمعلمي الكتاب (خارج المساجد) قد تراوحت في تلك الفترة بين مائة وخمسين إلى مائة وثمانين مكتبا وكان معظمها يحتوى على العديد من التلاميذ، وقد ذكر عن واحد من بينها وهو مكتب المعلم (علي تكريا أنه كان يضم في سنة 1591م، أكثر من 123 تلميذا (ينظر كعت، المصدر السابق ص 180).

31) يشير إلى ذلك بوضوح كل من أحمد بابا والسعدى، أثناء الحديث عن أساتذتهما وأشياخهما (نظر السعدى، المصدر السابق، صفحات 19 - 46) وأحمد بابا المصدر السابق ص 279.

32) السعدى، المصدر المذكور، ص 46.

33) المصدر نفسه.

34) المصدر نفسه، ص 44.

35) أحمد بابا، المصدر السابق، ص 76.

36) المصدر نفسه، والسعدى، المصدر السابق، ص 46.

37) الأبيات للشيخ يحى التادلسي، الذي كان أحد المدرسين اللامعين بتمبكتو آنذاك أما المرثي، فهو محمد الكابرى أحد المدرسين الكبار في جامعة (سكنكرى) في تلك الأثناء، وقد اقتصرنا هنا على ايراد الأبيات المتعلقة منها بتبيين طريقة الكابرى في التدريس، وقد أورد المرثية كاملة السعدى، المصدر السابق، ص 49.

ويضاف إلى هذا أن المدرسين على اختلاف مستوياتهم، لم يكونوا يلتزمون بالتوقف عند مادة بعينها، بل أنهم كانوا يتصدون غالبا لتدريس مواد عديدة. ولكنهم لا يدرسون إلا المواد التي يكونون قد اتقنوها وأجيزوا فيها (37).

د ـ الإجازات : عرف المدرسون والطلاب في تمبكتو خلال القرن السادس عشر نظام الشهادات، كما عرفته البلاد الإسلامية الأخرى. وبما أن طلب العلم كان يتصف بالحرية التامة، فيما يتصل بالطلاب، فإنه يبدو أن الأساتذة أيضا، كانو، لا يجبرون الطلاب إلا بعد التأكد من تمكنهم في المواد التي يدرسونها لهم (38).

أما طريقة الإجازة، فقد كانت بسيطة، ولكنها كانت مما يتلاءم والطريقة الحصيفة التي تستند إلى تأكد الأستاذ من أن الطالب قد أحرز على التمكن الكافي في مادة بعينها، ذلك أن الأستاذ لا يراعي أية شكليات في منح الإجازة لطالب العلم على يديه، ولكنه يراعي بدقة مدى الكفاءة التي يكون الطالب قد حصل عليها (39). وقد كانت الشهادات تعطى فردية، بمعنى أن الطالب يستطيع الحصول على شهادة من الأستاذ، في المواد التي يتقنها ذلك الأستاذ ويتعاطى تدريسها، ولكنه يبقى طالبا في مواد أخرى، وبناء على هذا، فان الشهادات كانت في شكل انطباع يسجله الأستاذ على مذكرات الطالب في مادة أو أكثر، بعد أن يكون هذا الأخير، قد أطلع على كل المؤلفات الكبيرة، والصغيرة في موضوعها، وإجاد تحصيل المعلومات الموجودة بها (40).

ومن ناحية أخرى، فقد كان الأساتذة يتحرون في العبارات التي يكتبون بها الشهادات للطلاب، بحيث ينحصر محتواها في نطاق المعلومات التي أتقنها الأستاذ المدرس ولا يتجاوزها لغيرها (41) ومن هنا يتضح مدى الدقة في نظام تلك الإجازات، رغم بساطتها.

●● تنقلات الأساتذة والطلاب : كان توارد الأساتذة من بلدان المغرب على تمبكتو قد أخذ شكلا أوسع خلال القرن السادس عشر، وكانت نسبة كبيرة من المدرسين بتلك المدينة من بلدان المغرب (42). أما الطلبة فقد كانت لهم خلال القرن السادس عشر حركة نشيطة وراء طلب العلم، وأكثر الذين كانوا يردون على تمبكتو كانوا من المناطق الغربية (43). وكثير من الطلبة كانوا حينما ينهون دراستهم في تمبكتو، ينتقلون إلى المغرب الأقصى أو إلى المشرق أما إلى المغرب، فإنهم كانوا يذهبون إلى مدينة مراكش بالدرجة الأولى وبعضهم كان يقصد فاس (44) كما كان العديد من الحجيج يغتنمون الفرصة أثناء ذهابهم إلى المشرق فيجالسون العلماء، اللامعين بمصر والحجاز وقد تطول إقامة بعضهم عدة سنين فلا يعودون إلى

---

38) لعل مما يجدر ذكره هنا، أن طريقة الاختصاص بمادة واحدة، لم يكن يعرفها العالم قبل القرون الثلاثة الأخيرة من تاريخه، اما في السابق فان أسلوب (الموسوعات) هو الذي كان يجرى به العمل عند كل الامم.

39) ذكر كل من أحمد بابا والسعدى عديدا من الاساتذة والاشياخ الذين كانا قد أخذا عليهم العلم، ولكنهما لا يشيران لمن اجازوهما من بين اولئك الاساتذة، على كثرتهم، الا القليل، بحيث لا يتجاوز عددهم اثنين او ثلاثة فقط.

40) يجد المتتبع لحالات الاجازات التي أعطيت في ذلك الوقت، أن الطلبة الذين يكونون قد لازموا مجلس الأستاذ لفترة طويلة، وأصبحوا حجة في المواد التي يدرسها أستاذهم هم وحدهم الذين أعطيت لهم الاجازة في تلك المواد، وبعض الذين أعطيت لهم شهادات كانوا قد بلغوا درجة من التحصيل والتمكن جعلت أستاذهم يضطر أحيانا لنقل بعض تعليقاتهم على المسائل واجتهاداتهم فيها، ويدرسها لطلاب آخرين بمحضر منهم.

ينظر أحمد بابا، نفس المصدر، ص 79 والسعدى نفس المصدر ص 46.

41) يقول أحمد بابا عن أحد الأساتذة الذين أجازوه : «حضرت أنا عليه أشياء عدة واجازني في جميع ما يجوز له وعنه، وكتب لي بخط يده» نيل الابتهاج ص 79، ولعل بهذا تثبت أمامنا صورة عن الشهادة كما كانت أما عبد الرحمن السعدى فيقول عن أستاذه الذي اعطاه اجازة : «باحثته كثيرا في المشكلات وراجعته في المهمات وبالجملة فهو شيخي وأستاذي، ما نفعني أحد كنفعه، وبكتبه، وأجازني به جميع ما يجوز له وعنه»، تاريخ السودان، ص 46.

42) المصدر نفسه، صفحات 20 ـ 48.

43) منذ القرن الثالث عشر انتقل عدد من علماء (والاتا) إلى تمبكتو كنتيجة لانتقال مركز التجارة بين المغرب والسودان الغربي، إلى تلك المدينة، وكانوا في أغلبهم من صنهاجة ومسوفة، وهما قبيلتان مغربيتان سكنتا مشارق الصحراء في عصور سابقة. والى قبيلة صنهاجة ينتسب أحمد بابا ويقال أن السنغال أخذ اسمه من اسم صنهاجة. أما خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، فقد كان كثير من التجار الذين وفدوا على تمبكتو يطيب لهم البقاء بين أهلها، ويباشرون التعليم فيجدون اقبالا كبيرا على دروسهم، وحينما زار ابن بطوطة تلك المنطقة في القرن الرابع عشر وجد جماعة من معارفه مقيمين هناك ويتعاطون التدريس اما في القرن السادس عشر، فان معظم من ذكرهم أحمد بابا والسعدى كأساتذة لامعين في تمبكتو كانوا من أصول مغربية ويسجل محمود كعت وجود كثير من العلماء جاءوا من توات، وأقاموا بتمبكتو خلال ذلك القرن.

44) كعت، نفس المصدر، ص 80.

45) أحمد بابا، نفس لمصدر، صفحات 84 ـ 79 ـ 273.

تمبكتو إلا بعد أن يكونوا قد حصلوا على عدد من الإجازات (45)، وقد عرف عن سكان تمبكتو حرصهم على تهيئة كل ما يمكن لهم تقديمه من أنواع المساعدات للطلبة الذين كانوا يقصدون مدينتهم. وقد كان لأولئك الطلبة مشاركة اجتماعية واسعة في ولائم الأفراح والجنائز (47).

و ـ التعليم المهني : لا يوجد في كتابات المؤرخين من تلك الفترة ما يشير إلى وجود تعليم مهني منظم في تمبكتو إلا في ميدان الخياطة (48). هذا بالرغم من وجود دكاكين يبدو أنها كانت عديدة ومتنوعة يشغلها أصحاب الحرف المختلفة في تلك المدينة (49). أما في ميدان الخياطة، فإنه يبدو أن المدينة كان بها تعليم منظم إلى حد ما، وكان طلابه كثيرين. فقد ذكر كعت أنه كان يوجد بها حوالي (ستة وعشرون بيتا من بيوت الخياطين) وكلها من النوع المتخصص في تعليم مهنة الخياطة وكانت تسمى باللهجة المحلية (تند) بكسر الأول والأخير سكون الوسط (50)، وكان كل بين من بينها يتراوح عدد الطلبة فيه بين خمسين إلى سبعين طالبا. ويتولى التدريس في كل بيت من بينها معلمون متخصصون في تعلم تلك المهنة يدعى كل واحد منهم (الشيخ الرئيس) (51) ولا ندرى كيف كان يقبل الطلبة في كل مدرسة من تلك المدارس، غير أننا إذا قارنا بما كان يوجد في الجزائر آنذاك، لأن تمبكتو كانت كثيرا ما تقلد المغاربة، نجد أنهم ربما كانوا يدخلون تلك المدارس المهنية ليشتغلوا بدون أجرة، وذلك حتى يتقنوا الحرفة ويحذقونها أما قبل الوصول إلى مثل هذه الغاية، فإن أجرتهم إنما تقابل في العادة بما يتعلمونه مجانا (52).

خاتمـــة :

لقد حظيت مدينة تمبكتو خلال القرن السادس عشر، بما لم تحظ به مدينة أخرى في غرب افريقيا في ذلك الوقت، وكان من أبرز العوامل التي هيأت لها ذلك، ازدهار الحركة التعليمية بها في المقام الأول (53)، ولذا أخذت نوعا من (القداسة) في نظر الناس (54) مما جعل الحكومة على اسناد جميع أمور الناس فيها للقاضي (55)، وقد بلغت شهرتها الآفاق فقصدها الطلاب من جميع بلاد السودان، كما توارد عليها بعض الطلبة من مراكش أيضا (56)، أما الأساتذة فقد كان عدد كبير من بينهم مغاربة (57)، وبهذه الصورة قامت تلك المدينة بدور كبير فيما يتعلق بنشر الثقافة في سهوب السودان الغربي كلها، كما أصبحت من بين المراكز الهامة في العالم الإسلامي جميعه وأسفر ذلك عن تحضر السكان بها ولين عريكتهم وصلاح حالهم (58)، ولكن الباحث رغم ذلك كله، لا يستطيع استيعاب كل المعلومات الكافية حول الازدهار الأكيد الذي عرفته المدينة في حقل التعليم، ولا يعود ذلك فقط لشح المصادر الموجودة حول هذا الموضوع، وإنما يعود أيضا لندرتها، ولنا الأمل في أن يسفر النشاط الواسع الذي يقوم به الباحثون حاليا في مختلف جامعات العالم ومؤسسات البحث المنتشرة في أرجائه، عن نتائج طيبة في موضوعات التاريخ الافريقي معها وكلها لا يزال الغموض يكتنف العديد من جوانبها حتى الآن.

(46) السعدى، المصدر السابق صفحات 20 ـ 43.

(47) نفس المصدر.

(48) كعت، المصدر السابق، ص 179، والسعدى، المصدر السابق ص 22.

(49) عرفت بلاد المغرب في تلك الفترة تعليما حرفيا كان يشمل الحياكة والخياطة والنجارة وبعض الحرف الأخرى المشابهة لها ـ ينظر (ابن مريم ـ المديوني ـ البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان تحقيق ابن أبي سنب) (م. الثالبية) الجزائر 1908 ص 63.

(50) – J. Leon L'Africain, op. cit, P. 293.

(51) كعت المصدر السابق، ص 180.

(52) لاندرى أصل هذه التسمية، غير أن المعروف عن ابن سينا، الفيلسوف الطبيب، أنه كان قد لقب بمثل هذه العبارة، ولعل إطلاقها كان يختص بمن يتقنون حرفة ما، ويعلمونها للناس.

(53) ابن مريم، نفس المصدر ص 63 ـ 169.

(54) يقول كعت إنها أي تمبكتو كانت (يومئذ 1591م) لا نظير لها في البلدان من بلاد السودان إلى أقصى بلاد المغرب، ثم يقرن ذلك بالحركة الثقافية فيقول عن أهلها : أنهم كانوا من أكثر الناس تلطفا بطلبة العلم وإعانتهم، كثر قراؤها وأدباؤها من كوكي إلى حتى (المصدر السابق، ص 179).

(55) – W.R. JUly, A History of the Africain people. London (Feber), 1970 P. 68.

(56) كعت، نفس المصدر، ص 180.

(57) السعدى، نفس المصدر، ص 44.

(58) واعتمادا على هذا يقول السعدى ابن تمبكتو الذي أحبها من كل قلبه : (ما أتتها العمارة إلا من المغرب، سواء في الديانات أو المعاملات) نفس المصدر، ص 21.

(59) يقول كعت في هذا المعنى : «إلا من حص الله به أهل تمبكتو، وترى من بينهم مائة رجل ليس لأحد منهم حريش ولا سيف ولا مدينة». نفس المصدر، ص 180.

دور الأوقاف والصدقات :

يبدو أن الأوقاف والصدقات كانت العامل التمويلي الهام في ازدهار حركة التعليم في تمبكتو خلال القرن السادس عشر. فمعظم المصاحف والمخطوطات التي بقيت من تلك الفترة تحمل في طياتها ذكرا بتوقيفها على الجوامع من طرف أشخاص كانوا يبتغون من وراء ذلك وجه الله. كما كان تعيين الأئمة والمدرسين وترتيب الجرايات لهم يتولاه القاضي، وهو ينفق على ذلك من الأوقاف والصدقات التي كان يتلقاها بسخاء كبير من المحسنين (59). ومعظم الجوامع التي قامت في تمبكتو في تلك الفترة كان بناها أفراد موسرون في شكل أوقاف للصلاة والتعليم. فمسجد سنكرى مثلا (بنته امرأة واحدة اغلالية ذات مال كثيرة في أفعال البر) على حد تعبير السعدى (60).

وكذلك الجامع الكبير فقد بناه من ماله الخاص موسى صاحب مالي وصومعتها على خمسة صفوف (61).

ولقد كانت الكلمة الأولى في حكم مدينة تمبكتو تعود للقاضي، وكان يتلقى الهدايا الكثيرة بسخاء منصوص عليه في المصادر، وذلك حينما يقوم بعمل ما لتحسين مسجد أو بناء مدرسة أو توسيعها لتفي بحاجة الطلبة والأساتذة ولهذا كان قضاة تمبكتو يبدون في أعين الناس وكأنهم من أكثرهم قدرة على الإنفاق في مشاريع البر من هذا النوع التي كانوا يقومون بها بشكل مستمر وملفت للانتباه (62).

ومما يذكر المؤرخون في هذا الموضوع أيضا، أن أسقيا الحاج محمد أنفق على بناء رواق من ماله الخاص في القاهرة كي يسكن فيه الطلبة والمدرسون من بلاد التكرور الوافدون على الأزهر الشريف. كما أنه (حبس توابيت فيها ستون جزء من المصحف.. لأجل الختمة) أى قراءة الختمة من المصحف بعد صلاة الجمعة. ويذكر المؤرخون السودانيون من تلك الفترة أن الختمة (بقيت يقرأ فيها إلى العشرين بعد الألف) (63). حيث وقع تعويض تلك المصاحف (بأخرى حبسها الحاج علي بن سالم بن عبيدة المسراتي) (64).

وخلاصة القول ، أن الأوقاف والحبس كانت متنوعة، وهناك إشارات قوية إلى دورها الكبير في ازدهار حركة التعليم في تمبكتو. واذا كانت المصادر لم تعطنا التفاصيل الكافية، فهي في الإشارات العامة تشير إلى هذا الدور بكل وضوح.

---

60) السعدى، ذكر العلماء والصالحين الذين سكنوا تمبكتو، فصل 9 ص 9 فيما بعد.

61) المصدر نفسه، ص 63.

62) المصدر نفسه ص 56.

63) المصدر نفسه ص 37 وص 108 فيما بعد.

64) أى في جوامع تمبكتو وخاصة بالمسجد الجامع ، (جامع سيدى يحيى).

65) السعدى، ص 58.

مؤسسة الأوقاف في العراق
ودورها التاريخي المتعدد الابعاد

للدكتور محمد شريف أحمد

مقدمة :

يحتل التراث العربي الإسلامي، واستحضار عناصره المؤثرة في مسيرة الأمة الثقافية، والفكرية، والاجتماعية، مكانة متميزة في العملية الرائدة لنهضة الأمة المعاصرة.

وتأتي مبادرة معهد البحوث والدراسات العربية في بغداد والتابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم لعقد ندوة ثقافية تكرس لدراسة الوقف، وتحديد أبعاده، استجابة منطقية لسياق هذه المسيرة.

اني لأجد لاختيار هذا الموضوع مبررين هامين أولهما، المبرر الديني وثانيهما : المبرر الحضاري التاريخي.

أما المبرر الديني فيتحقق في أن الوقف تلازم مع المسجد بل يعتبر المسجد أول وقف في الإسلام ولا يخفى دور المسجد في دعوة الإسلام، ومكانته في حضارته فقد كان مركزا للقيادة والتوجيه ومنصة للتوعية والإرشاد ورباطا للجهاد، ومركزا للقضاء والفصل بين الخصومات.

وأما المبرر الحضاري التاريخي فهو اننا عندما نطل من زاوية التاريخ على الدلالات الشاخصة التي تعكس القيم الحضارية لهذه الأمة، نرى ان للوقف صلة روحية، أو صلة مادية بها، وأهمها تلك الجامعات والمدارس الهامة، التي فتحت للأمة أبواب العلم والحضارة ومنها المدرسة المستنصرية، والمدارس النظامية في بغداد وجامعة الأزهر في مصر، والزيتونة في تونس والقرويين في فاس المغربية.

ومهما يكن الأمر فإن دراسة الأوقاف بشكل شامل تعيد إلى الأذهان الجهد العربي الإسلامي الموحد لحماية الإسلام، وصيانة مبادئه ومقدساته، ونشر المعارف الدينية والعقلية في المشرق والمغرب.

وإذا كان للوقف مثل هذه الأهمية في كل مكان وزاوية في العالم العربي وفي العالم الإسلامي كله ؟ فإن الوقف في العراق يحتل أهمية استثنائية، ذلك أن العراق كان له النصيب الأوفر في القيادة الفكرية والفقهية، والدينية كيفا وكما.

ومن هنا تهيأت لأجياله، ولأبنائه الخيرين عبر العصور الظروف - المناسبة لوقف أموالهم وممتلكاتهم للمصالح العامة.

والحقيقة أن طبيعة الموضوع تقتض توزيعه على عنوانين رئيسيين أولهما: مشروعية الوقف وأبعاده التاريخية في العراق، وثانيهما، التطور القانوني لإدارة الأوقاف في العراق.

فأقول وبالله التوفيق.

المبحث الأول

مشروعية الوقف وأبعاده المتعددة في العراق.

تمهيد :

1 ـ ان استحضار الدور التاريخي لأية مؤسسة فاعلة مؤثرة في مسيرة المجتمع نحو أي هدف معلوم ومحدد يستدعي بالضرورة ـ التعريف بتلك المؤسسة وبالفكرة الأساسية التي تستند إليها في المشروعية قدر حاجتها إلى دراسة أبعادها والتعرف على نماذج لها إن توفرت.

لذا سأتناول هذا المبحث تحت العناوين الفرعية التالية :

أولا : نشأة فكرة الوقف.

ثانيا : التأصيل الحقيقي لمشروعية الوقف في الإسلام.

ثالثا : الأبعاد المختلفة للوقف.

رابعا : نماذج في الصيغ الوقفية العراقية .

نشأة فكرة الوقف :

2 ـ من الأمور الصعبة تقص النشأة الأولى لمثل هذه الأعمال الخيرية التي تنزع إليها النفس الإنسانية الخيرة ومما يزيد في صعوبة الأمر بالنسبة للوقف هو انه يحقق بالإضافة إلى ما أشرنا إليه ـ رغبة الإنسان في تخليد آثاره الطيبة.

والحقيقة أن الإنسان يود دائما أن يستحوذ بصورة مطلقة على كل ما يملكه وليس لهذه الرغبة حدود حتى انه يرغب في أن تنفذ إرادته في الصرف فيما يملكه حتى بعد وفاته.

ولا يخفى أن الوقف هو إستجابة لهذه الرغبة الكامنة في خفايا النفس الإنسانية. ومن هذا القبيل أيضا ما تميل إليه النفس من الشعور الطيب بالعطف نحو الغير.

وقد تعود نشأة الوقف إلى هذه المشاعر التي تدفع المرء إلى تسمية بعض أمواله للصرف على الجهات الخيرية وللمحافظة على أشياء مقدسة لديه كالمعابد.

ومن هذا يقول العلامة المرحوم محمد شفيق العاني في معرض تقييمه للوقف : «المثل العليا في الحياة لا تقتصر على عمل معين وإن هي متشعبة الجوانب كثيرة العدد وربما كان من أرفعها شأنا وأعلاها مقاما حب الخير وعمله وهي ما تهدف إليه الصفوة المختارة من البشر وهذه الصفوة يجود بهم الزمن وتلدهم الطبيعة في كل جيل وبكل مكان ولكنهم قلة وهذه القلة تدفعها غريزة حب الخير إلى أن تقف نصيبا مما امتلكته لخير المجتمع مواساة للفقراء والضعفاء وذوى الحاجة... وحب الخير غريزة طبيعية تختلف قوة وضعفا في الأفراد كل حسبما خلق له(1)

3 ـ أما الوقف من الناحية التاريخية فيلاحظ شيوعه وعمومه زمانا ومكانا إلى حد بعيد حتى قيل أن مشروع الوقف يرجع إلى ما قبل الإسلام كأوقاف ابراهيم الخليل. (2) ـ ونجد لدى الأديان الأخرى والأمم الأخرى ما يشبه مشروع الوقف في الإسلام.

وفلسفة هذا الشيوع هي أن الوقف بحد ذاته ـ كما أشرنا إليه ـ يعود إلى فكرة إنسانية، ويستهدف معالجة حاجات بشرية ويحقق معنى التضامن الغريزى في الإنسان. ومن المعلوم أن المشاعر الإنسانية متقاربة تقارب الحاجات البشرية.

التأصيل الحقيقي لمشروع الوقف في الإسلام

4 ـ الوقف في حد ذاته خير، وهو نوع من الصدقات التي حث الشارع عليها، فهو داخل في عموم قوله تعالى : **((وافعلو الخير لعلكم تفلحون))**، وعموم الآيات الكريمة التي تحث على الصدقة والبر والتعاون. ومع ذلك فأن للوقف في بعض الأحيان والحالات أثرا سلبيا. ويتحقق هذا فيما إذا تعمد الواقف حرمان بعض الورثة أوادى الوقف إلى تعطيل ثروة معينة من القيام بدورها في التنمية الإقتصادية أو الإجتماعية أو انتهى الوقف إلى صورة غير مجدية لذلك لم يكتف الفقهاء في حكمهم بمشروعية الوقف إلى التوجيه العام بل تحروا عن الأصل والأساس لهذا الحكم. ومنهم من قال (2) : أن الاوقاف التي يقصد بها ايثار بعض الورثة بالميراث كله أو بعضه أو حرمان

---

1) الأستاذ محمد أحمد العمر ـ الدليل لاصلاح الأوقاف.

2) انظر (أبو زهرة ـ محاضرات في الوقف ـ ط 2 ص 48.

الآخرين. أو تطفيف حقوقهم أوقاف غير جائزة ولا يقرها الشرع ولا يرعاها بحمايته.

5 - أن من الصعوبة العثور على الحكم القطعي في مثل هذه الحالات المشابهة التي تخضع لاعتبارات شتى. لاشك أن الفقهاء وجدوا أن الأصل هو أن الإنسان تتحدد ارادته ومكانته بالتصرف فيما يملكه في الحياة وبعبارة أخرى يفقد ذمته المالية بالوفاة. ومعنى ذلك أن حدود ارادته تنتهي عند اللحظة الأخيرة من حياته وتضيق في مرض موته. وبعد موته تنتقل التركة إلى جهاتها الشرعية.

هذه هي القاعدة المنطقية.

ولكن الاسلام كرم الإنسان ومن مظاهر تكريمه له أنه يحترمه في حياته وبعد مماته لذلك نجد أن القرآن الكريم شرع الوصية وتنفيذ الوصية بعد وفاة الموصي مظهر من مظاهر تكريم الإنسان.

ولكن الأمر - مع ذلك - يبقى في اطار الاستثناء والاستثناء لا يوسع فيه.

لذلك كان من حق الفقهاء إن بحثوا عن هذه المسألة وكان من الطبيعي أن يخالف بعضهم البعض الآخر فيها.

6 - إن المبدأ العام الناصح للخير لا يصبح حجة مقنعة تماما لمشروعية الوقف بمعناه المعروف. لذلك استند الفقهاء على روايات من أحاديث وآثار تؤكد تقرير الرسول (ص) وإجازته للوقف منها أنه قيل : «أن النبي (ص) وقف سبع حوائط (بساتين) ومنها (أن عمر قال للنبي (ص) إني أصبت بخيبر ارضا لم أصب مالا قط أنفس عندي منه فيم تأمرني ؟ قال له رسول الله (ص) إن شئت حبرت أصلها وتصدقت بثمرتها فجعلها عمر لاتباع ولا توهب ولا تورث وتصدق بثمرتها على الفقراء والمساكين وابن السبيل وفي الرقاب.

فلما كتب (رض) كتاب وقفه في خلافته دعا نفرا من المهاجرين والأنصار فأحضرهم وأشهدهم فاشتهر ذلك وأقبل المهاجرون والأنصار على وقف بعض أموالهم.

وثبت أيضا أن الخلفاء الراشدين الآخرين حبوا شيئا من أموالهم وتبعهم من أتى بعدهم بحيث لم يخل عصر من العصور إلا وحبس فيه أناس شيئا من أموالهم على جهات خيرية أو على أنفسهم ثم على أولادهم ثم أخيرا إلى جهة خيرية.

فتصبح مشروعية الوقف ثابتة بعموم أمر القرآن الكريم بالخير وبالسنة وبالعرف.

7 - والحقيقة أنه لم يجمع الفقهاء على أصالة الوقف من الناحية الشرعية بل شاع بينهم اختلاف كبير. فمنهم من يشكل أصلا في مشروعيته بالمعنى المتعارف عليه وهو رأى ينسب إلى زعيم مدرسة الرأي أبي حنيفة النعمان (رض) وهو يستند إلى الفكرة القائلة بأن الوقف يؤدى إلى الحبس عن الضرائب وقد نهى عنه الرسول (ص) بعد آية المواريث «لا حبس عن الفرائض» أو يؤدي إلى الأضرار بالورثة والبنات بصورة خاصة.

والحقيقة أن التحسس بمثل هذا التخوف قد راوو الكثيرين. ويدل عليه ما يقال من أن أحد الصحابة وهو المسور بن مخرمة هم أن يقول لسيدنا عمر (رض) حين أعلن وقفه «أنك تحتسب الخير وتنويه وإني أخشى أن يأتي رجال لا يحتسبونه مثل حسبتك ولا ينوون مثل نيتك ويحتجون بك فتنقطع المواريث. ولقد صاحت أم المؤمنين عائشة (رض) باستنكار ذلك فكانت تقول (3) (ما وجدت للناس اليوم في صدقاتهم إلا كما قال الله عز وجل : **«وقالوا ما في بطون الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء»**. والله إنه ليتصدق الرجل بالصدقة العظيمة على ابنته فنرى غضاضة صدقته عليها ونرى ابنته الأخرى وأنه لتعرف عليها الغضاضة لما أبوها أخرجها من صدقته».

8 - وأبرز اختلاف في مفهوم الوقف ومشروعيته هو ما يراه أبو حنيفة (رض) كما أشرنا إلى ذلك آنفا من أن الوقف غير جائز. ويقال أنه يرى أنه غير لازم إلا في ثلاث حالات : (4) -

---

3) المدونة الكبرى ج 2 ص 245.

4) انظر المبسوط ج 12.

أولا ، إذا حكم القاض بلزومه.

ثانيا ، أن يكون الوقف مسجدا أن ينقطع حق الواقف بإقامة الشعائر.

ثالثا ، أن يخرج الوقف مخرج الوصية فيلزم الوقف إذا خرج من الثلث.

ولنا هنا بصدد تفصيل الآراء الفقهية والاجتهادات المختلفة عن هذه المسألة. وأن ما يفيدنا لاكتشاف الجوهر الحقيقي للوقف هو بيان الأبعاد التاريخية للوقف ولا سيما في العراق.

الأبعاد التاريخية للوقف في العراق

9 - وعلى الرغم اكتف تطور الوقف من ظواهر سلبية عبر تاريخه وعلى الرغم من الخلافات الإجتهادية حوله فإن الوقف يعتبر شعارا «إسلاميا»، ومؤسسة خيرية، قامت على دعائمها مشروعات فخمة كان لها آثارها الخالدة في مسيرة الإسلام الحضارية، والثقافية، والإجتماعية، وهو سمة بارزة من سمات الإسلام كان له الأثر الفعال في تشييد صروح العلم والثقافة وفي تأمين الظروف المناسبة للفقهاء والعلماء والأدباء في محراب التأليف، والنشر والتحقيق العلمي والفقهي والأدبي.

ولولا ما اعتزم رجال خالدون من تخصيص ثرواتهم لهذه الجهات لكان من الصعب تحقيق ما تحقق. ذلك أن الدولة الإسلامية، أو الدول الإسلامية التي تعاقبت على حكم المسلمين في العصور الخالية لم تكن بقادرة بسبب أو بآخر على تأمين متطلبات الحركة الواسعة المشهورة في ميادين البحث العلمي.

وفيما يلي نشير إلى أهم الأبعاد الإيجابية للوقف ، -

أ - البعد الديني الروحي (المساجد) :

10 - لقد أدى الوقف خدمة مشهودة في مجال تشييد المساجد والجوامع والتكايا، وتعيين رجال دين مختصين لإقامة الشعائر الدينية كالإمامة والاذان والوعظ الديني.

ومع أن الإسلام ليس بدين كهنوت وأن من حق أى مسلم أن يتولى الإمامة والخطابة والوعظ عند توافر الأهلية العامة دون التوقف على إجازة مجيز، أو شهادة معهد، أو تقرير مرجع مختص إلا أن تعقد الحياة البشرية، وتطورها نحو ضرورة الإختصاص، استدعى وجود جماعة متخصصة للعمل الديني حفاظا على شعائر الإسلام وأهمها صلاة الجماعة.

ولا يخفى ما للمسجد من أهمية رفيعة، فقد كان المسجد مركز اشعاع روحي وعلمي وأخلاقي، وتشريعي، فيه تؤدى الصلوات، وتعقد الندوات، وتلقى المواعظ، ويدرس الفقه، والتشريع الإسلامي، ومن هنا كان أول شيء عمله الرسول (ص) بعد هجرته إلى المدينة هو تأسيس مسجده الأول الذي كان نقطة الارتكاز للدعوة الإسلامية.

ولقد عرف المسلمون مكانة المسجد ورسالته الخطيرة في حياة الأمة الروحية والعقلية والعلمية فانزلوه في نفوسهم منزلة الاكبار والاعظام، وأقاموا المساجد على مثال فريد من العظمة والاجلال.

ولما كان غرض الواقفين هو تحقيق الحديث الشريف (إذا مات العبد انقطع عن دنياه إلا من ثلاث ولد صالح يدعو له بعد موته، وعلم ينتفع به، وصدقة جارية)، كانت مهمة الأوقاف محصورة في أمرين هامين هي ، -

أولا - صيانة أملاك الوقف والعمل على تنمية مواردها.

ثانيا - العناية ببيوت الله ونشر الدين والثقافة الإسلامية وتحفيظ القرآن الكريم وإقامة المؤسسات الخيرية.

لقد أدى الوقف في العراق مهامه الدينية بشكل كامل وحقق التواصل الروحي بين الأجيال بصورة تامة ولو تصورنا غياب الوقف في هذا الميدان لداخل قلوبنا ريب كبير في إمكانية هذا التواصل، ومن تحقيق هذا الإنتاج العلمي الزاخر في ميادين المعرفة كلها. وفي العراق تكونت أول المساجد في البصرة والكوفة من أول الفتح الإسلامي واستمرت في تكاثرها وتكاملها. وفي بغداد (مدينة السلام) أسس أول مسجد في الجانب الغربي عرف بـ (جامع المنصور)، وفي الجانب الشرقي (الرصافة) كان

أول مسجد بنى، يسمى (جامع المهدى) ثم توالت وتكاثرت إلى أن بلغت عددا لا يكاد يصدق (5).

ويكفيك أن تشاهد في بغداد جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني وجامع الامام الأعظم. وجامع مرجان وجامع الحيدر خانه وجامع الخلفاء وعشرات من الجوامع الكبيرة التي يعود تاريخ تشييدها إلى مئات السنين.

ب ـ البعد الثقافي (المدارس والجامعات) :

أن علاقة الأوقاف بالمعاهد العلمية قديمة العهد. وثيقة الصلات تكاد ترجع إلى العهود الأولى للإسلام. فقد ألف المسلمون أن يقفوا جانبا من أموالهم على الإنفاق على حلقات العلم. التي يعقدها الطلاب حول أساتذتهم من كبار العلماء في ابهاء المساجد.

وما أشاد دين بالعلم كما أشاد به الإسلام حيث فرضه على جميع المسلمين والمسلمات وجعل لكبار العلماء الصدارة في الفتوى والرأي والتشريع.

لهذا كان كبار المسلمين يتسابقون إلى وقف أموالهم الطائلة على طلبة العلم وعلى كبار العلماء المنقطعين للبحث والدرس والتنقيب كما كانوا يقفون أموالا كثيرة على انشاء المكتبات وعلى تزويدها بمختلف المصنفات العلمية تيسيرا للبحث والاطلاع.

ولقد حاز العراق قصب السبق في مضمار العلم والثقافة. ودور العلم فقد غذى وقوف العراق الثقافة الإسلامية. عبر عصوره وتنافس أغنياء بغداد في رصد أموالهم وممتلكاتهم لنشر العلوم والمعارف. ومما يشهد بذلك أن العراق كان قبلة لرواد العلم. ومركزا لاشعاع المعرفة. وموطنا لمدرسة الرأي في الفقه. ومدرسة البصرة والكوفة في النحو والبلاغة وعاصمة للمعتزلة أصحاب المدرسة العقلية ومعتكفا للصوفيين الكبار.

ومن أقدم المدارس المشهورة في العراق (المدرسة النظامية ومدرسة الإمام الأعظم ظهرتا في سنة واحدة وكملتا في سنة 459هـ ـ 1069م. وفي تأسيس المدرسة النظامية صار الناس يشعرون (كعادتهم لكل جديد) بصبغة حكومية يراد بها السيطرة على العلماء وأن لا يكون العلم حرا «حيث أن وزير السجوقيين نظام الملك هو الذي قام بذلك فعد أول تدخل في أمور العلم. فأبدى البغداديون النضرة ونددوا بأول مدرس اختير لها وهو أبو اسحق الشيرازى من أكابر علماء بغداد ليتخلف عن القيام بهذا المشروع فأبى أن يدرك فيها من جراء ما سمع من اللوم.

إلا أن العراق لم يقف عند احباط المشروع وإنما استغلوا هذه المؤسسة المشهورة فقام القوم بأمر خيرى من نوعها فاكثروا من المدارس فلم تمضى نحو مائة سنة إلا وبلغت المدارس نحو ثلاثين مدرسة يقصر القصر العظيم عنها وجعل لها مستغلات عظيمة ببذل لم يعرف من قطر (6).

ولعل أعظم جامعة علمية كانت ببغداد في أواخر الدولة العباسية هي المدرسة المستنصرية (631هـ) وهي أول جامعة في العالم الإسلامي عنيت بدراسة علوم القرآن. والسنة النبوية والمذاهب الفقهية. والعلوم العربية. والرياضيات. وقسم الفرائض والتركات. ومنافع الحيوان. وعلم الطب. وتقويم الابدان في آن واحد كما أنها أول جامعة اسلامية جمعت فيها الدراسات الفقهية على المذاهب الإسلامية الأربعة ، حيث أمر الخليفة المستنصر بالله 623هـ ـ 640هـ أن تجعل مدرسة للفقهاء على المذاهب الأربعة (7).

وعلى الرغم من النكبات المريرة التي حلت بالعراق نتيجة غزوات المغول والتتار وتعاقب الولايات الضعيفة ابان العهد العثماني فقد ظلت المعابد عامرة. والمدارس آهلة بطلاب العلم يقصدونها من كل مكان إلى آخر الحكم العثماني. حيث طرأت على البلاد أحداث كان لها أثرها

(5) عباس العزاوي في رسالته إلى الأستاذ محمد احمد العمر في كتابه الدليل لاصلاح الأوقاف مطبعة المعارف 1947.

(6) الأستاذ عباس العزاوي ـ المرجع السابق.

(7) ناجي معروف ـ تاريخ علماء المستنصرية ج 1 ص 27.

في تغيير هذه الحال تغيرا «ظاهرا» فكثيرا ما شوهدت مساجد مندثرة، ومدارس دينية مهجورة.

ولإحساس العراقيين وإيمانهم بضرورة وجود معاهد دينية عالية تولت إدارة الأوقاف بعد الحكم الوطني هذه المهمة وارست قواعد لمدارس دينية استجابة لحاجة المجتمع آنذاك ومن تلك المدارس العالية كلية الشريعة. وكانت تدعى مدرسة جامع الإمام الأعظم في العهد العثماني وأعيد تنظيمها سنة 1918 وأطلق عليها إسم كلية الأعظمية ثم أبدل منهاجها سنة 1923 وفي سنة 1931 صدر نظام رقم 25 لسنة 1931 الذي عدل سنة 1934 بتأسيس دار العلوم. وبعده صدر نظام كلية الشريعة.

والآن تعتبر احدى الكليات الهامة في جامعة بغداد. والخلاصة أن الأوقاف قد أدت مهمة شريفة بالحفاظ على الدراسات الدينية. وعلى الفقهاء طيلة العصور التي لم تكن للدولة فيها اتجاه هذا العصر. ولا إمكانيته في مجال التربية والتعليم. ومعلوم أن العراق في عهد ثورته العملاقة في 17 ـ 30 تموز/1968 وبتوجيه من القائد الرئيس صدام حسين وفر للعراقيين الآن جميع الظروف والإمكانات المادية والعلمية لتعليم أبناء الشعب وتربيتهم في كل المستويات. ولم تعد الدولة بحاجة إلى انفاق الأوقاف في هذا المجال.

جـ البعد الاجتماعي :

(المؤسسات الخيرية وأعمال البر)

إن أية ظاهرة قانونية، أو اجتماعية لابد وأن تمر بمراحل يختلف فيها وضعها الناشىء عن وضعها المتطور طبقا للتغيرات التي تلاحقها.

وأن الوقف مثال واضح لذلك فقد عرض له في سبيل تطوره أمور لم تكن في الحسبان ابان نشوئه حتى أن الوقف عبر تطوره، يعتبر تجربة فقهية زاخرة باستحداثات لم تكن معروفة آنذاك.

فالوقف بدأ عملا خيريا يستهدف إعانة الفقراء والمحتاجين وتأمين المتطلبات الضرورية للمجتمع. ويقال في هذا الصدد عندما قدم الرسول (ص) إلى المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة قال، من يشترى بئر رومة فيجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنة ؟

فاشتراها عثمان بن عفان من ماله وتصدق بها على السابلة (8).

ولقد شهد العراق مؤسسات خيرية كبيرة تنشر البر والخيرات للفقراء والمحتاجين. وأن الإطلاع على الوقفيات العديدة المحفوظة في وزارة الأوقاف والشؤون الدينية في العراق يكشف الكثير من الخدمات الإجتماعية التي أدتها هذه المؤسسة في عصور كان المجتمع العراقي شديد الحاجة إليها.

المبحث الثاني

التطور القانوني لإدارة الأوقاف في العــراق

15 ـ من البديهي أن حكمة الوقف تكمن في تأمين متطلبات الوفاء بالحاجات الضرورية للخدمات الدينية والثقافية والإجتماعية. وأن حبس أموال معينة لتحقيق هذه الغاية لا يكفي لتأمين استمرار تشغيلها. واستثمارها. لذلك اقتضت الحاجة إلى جهة معينة تتولى هذه المسؤولية والى إدارة دائمة.

وأن هذه الإدارة تطورت مع تطور الأزمان وفيما يلي نعالج اجمال التطور القانوني لهذه الإدارة وكالآتي :

أولا ـ إدارة الأوقاف في العراق قبل العهد العثماني.

ثانيا ـ إدارة الأوقاف في العهد العثماني.

ثالثا ـ إدارة الأوقاف في العراق قبل الثورة.

رابعا ـ إدارة الأوقاف في العراق بعد الثورة.

---

(8) زهدي يكن ـ الوقف في الشريعة والقانون نقلا عن نيل الأوطار ج 1 ص 18، الحصات ص 12.

أولا - إدارة الأوقاف في العراق قبل العهد العثماني

16 - كانت الأوقاف تدار في بادىء الأمر من قبل الواقفين أنفسهم أو من ينصبونه لإدارتها والنظر عليها دون أي تدخل من الدولة إلا أن كثرة الوقف وتطور الحاجات والظروف وتعقد العلاقات الإجتماعية، وظهور مشاكل ناجمة عن سوء الاستغلال، استدعت وجود أجهزة خاصة للاشراف على استثمارها واستغلالها للأمور التي حبست من أجلها. وقد كان القضاة في بغداد وغيرها هم أول من تولوا الاشراف عليها بأنفسهم (9).

ومن الطبيعي أن يتولى القاضي هذا الأمر باعتباره مسؤولا عن تحقيق العدل في المجتمع. وكان يقوم قاضي القضاة بما يعود للوقف من إدارة الأمور فينظر في أمر أرباب الوظائف، ومن يصلح منهم من مدرس وإمام ومؤذن ويحاسب أمناءه ومنهم المتولون. وقد تطرق الفقهاء في كتبهم إلى واجب القضاء في هذه الأحوال. ومما هو ثابت في التاريخ.

وفي العهد الأموى صارت للأحباس (الأوقاف) ديوان مستقل عن بقية الدواوين تحت اشراف القاضي ذلك أنه أمر لأول مرة بتسجيل الأحباس في سجل خاص لكي يحمي مصالح المستحقين لها. وأول من تولى هذه الإدارة هو القاضي (توبة بن نمير الحضرمي) في مصر وفي هذا العهد أيضا عين ديوان الأوقاف في البصرة (10) ومنذ ذلك الوقت أصبحت الأوقاف تابعة للقضاة وصار من المتعارف عليه أن يتولى القضاة النظر على الأوقاف بحفظ أصولها وقبض ريعها، وصرفه فيما حبست لأجله.

17 - وفي العهد العباسي تطور الأمر حيث عين صدر الوقف للاشراف على الوقف ويعين من قبل القاضي وهو الذي يشرف عليها.

18 - وجاء دور المغول فاحتفظوا ببقاء هذا المنصب وأودع ذلك إلى «نصير الدين الطوسى» ثم صار صدر الوقوف شهاب الدين علي بن عبد الله. كان في سنة 670هـ صدرا (11) ثم صار جمال الدين الدستجردى صدر ثم وصل بعد ذلك فخر الدين أحمد بن نصير الدين الطوسي فأعيد أمر الوقوف بالممالك جميعها وفي سنة 687هـ كفت يد أولاد نصير الدين الطاوسي عن النظر في وقوف العراق وأعيد الأمر فيها إلى حكام بغداد وكانت قد اضطربت حالة الأوقاف بين أن تكون أمورها بيد أصل الدولة وتودعها إلى من شاءت أو بيد ولاة بغداد. أو أنها تعود لقاضي القضاة فاختلفت السلطة وتنوعت كثيرا فلم تستقر على أمر.

وجاء في مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى المتوفي سنة 749هـ ما نصه :

(سألت الفاضل نظام الدين الحكيم.. إن كانت الأوقاف باقية في نواحي هذه المملكة على ما هي عليها الآن أم تناولتها أيدى العدوان ؟

فأخبرني بأنها جميعها جارية في مجاريها لم يتعرض إليها متعرض في دولة هولاكو ولا فيما بعدها بل كان كل وقف بيد متوليه ومن له حق الولاية عليه.. وكل ما يقال من نقص أحوال الأوقاف بايران جميعا هو من سؤولاة أمورها لا من سواهم) (12).

ثانيا إدارة الأوقاف في العهد العثماني

19 - كان مركز إدارة الأوقاف في عاصمة الدولة (الاستانة) ولها بعض المدراء. وكان الوالي في بغداد هو المرجع الأعلى في الموقوفات العراقية وقد ساهمت عماراته المساجد والمعاهد الخيرية والتدريسية في نشر الثقافة والاحتفاظ بالتراث المجيد.

---

(9) انظر حسن المحاضرة للسيوطي ج 1 ص 167.

(10) الدكتور محمد محمد أمين علي - تاريخ الأوقاف في مصر في عهد سلاطين المماليك. انظر أبو زهرة محاضرات في الوقف ص 9.

(11) انظر محمد أحمد العمر - الدليل لإصلاح الأوقاف.

(12) الأستاذ عباس العزاوي - نقلا عن مسالك الأبصار ج 3 64 نسخة ابا صوفيا المخطوطة. وملحق تاريخ العراق ج 2 ص 39.

وكان يدير الأوقاف في أواخر العهد العثماني في بغداد مدير أوقاف وكاتب ومحاسب وهكذا في ولايتي البصرة والموصل (13).

ويلاحظ أن التقنين شاع أخيرا في مجال الوقف في العهد العثماني أسوة بالميادين الأخرى وأهم الأنظمة التي كان لها أثر في تنظيم أمور الوقف في العراق نظام إدارة الأوقاف المؤرخ في 19/ جمادى الأخرى سنة 1980 (14) ونظام توجيه الجهات المؤرخ في 2/ رمضان 1331.

ثالثا - إدارة الأوقاف في العراق قبل الثورة وبعد الاستقـــــلال

نص القانون الأساسي العراقي (الدستور) في مادته 122 على ما يلي :

«وتعتبر دائرة الأوقاف الإسلامية من دوائر الحكومة الرسمية، وتدار شؤونها وتنظم أمور ماليتها بمقتضى قانون خاص».

واستنادا لهذه المادة فقد صدر قانون إدارة الأوقاف رقم 27 لسنة 1929 الذى ألغى في مادته الرابعة عشرة نظام إدارة الأوقاف المؤرخ في 19 جمادى الآخرة سنة 1980.

وقد كانت دائرة الأوقاف احدى الوزارات العراقية حتى سنة 1929 حيث ألغت المادة الثامنة من قانون الميزانية رقم 26 لسنة 1929 الوزارة واناطت ادارتها بمديرية عامة مرتبطة برئاسة الوزراء وقد اعتبر رئيس الوزراء الوزير المسؤول عنها.

وأهم ما جاء في هذا القانون الذي ظلت أحكامه الرئيسية ثابتة رغم التعديلات الكبيرة التي طرأت عليه هو ما يلي : -

قسم الأوقاف إلى أوقاف مضبوطة وأوقاف ملحقة وأوقاف ذرية وكذلك إلى أوقاف صحيحة وأوقاف غير صحيحة وقد عرف القانون المذكور هذه الأنواع وكالآتي :

الأوقاف الصحيحة هي التي كانت رقبها ملكا ثم أوقفت إلى جهة من الجهات.

الأوقاف غير الصحيحة ما كانت رقبتها أميرية وحقوق التصرف فيها مخصصة لجهة من الجهات.

الأوقاف الملحقة، هي التي تدار بواسطة المتولين وشرط صرف غلتها أو جزء منها إلى المعابد أو إلى جهة خيرية.

الأوقاف الذرية، هي الأوقاف المشروطة غلتها إلى من عينهم الواقف من ذريته أو غيرهم.

وأهم تعديل قانوني طرء على هذا القانون في العهد الملكي هو مرسوم جواز تصفية الوقف الذرى رقم (1) لسنة 1955 والذى نشر في جريدة الوقائع العراقية عدد 3660 في 1955/7/19.

وجاء فيه :

المادة الثالثة «على المحكمة بناء» على طلب أحد المستحقين من المرتزقة أو أحد ورثته المستحقين بموجب هذا المرسوم تصفية الوقف الذرى أو المشترك سواءا كان منشا «قبل نفاذ هذا المرسوم أم بعده».

وقد توالت التشريعات والتعديلات على إدارة الوقف بعد ثورة الرابع عشر من تموز 1958 إلا أن هذه التعديلات لم تتجاوز النواحي الشكلية في معظم الأحوال وأهم قانون صدر هو قانون إدارة الأوقاف رقم 64 لسنة 1966 وبموجب هذا القانون تحملت وزارة المالية رواتب ومخصصات موظفي إدارة الأوقاف (المادة الثالثة) وأهم حكم صدر فيه هو أنه أجاز للديوان وللمتولي استبدال الموقوف الذي تتحقق المصلحة في استبداله بعقار أو بنقد أيهما أنفع للوقف...

13) محمد أحمد العمر - الدليل لإصلاح الأوقاف ص 4.

14) الغي بقانون إدارة الأوقاف رقم 27 لسنة 1929.

(المادة السادسة)

وبمقتضى هذا استبدلت العقارات التي لم تكن صالحة للاستغلال بالنقد ثم نهضت الجهات المسؤولة عن المشاريع بإقامة عمارات شاهقة بدلا من الدور المتفرقة المتهدمة. وقد بدأ الديوان آنذاك باستثمار الأموال المتجمعة نتيجة الاستبدال بتوزيع المشاريع الوقفية على محافظات القطر كافة. ولم نغفل التوسع في تقديم الخدمات المادية والثقافية والاجتماعية للمواطنين.

رابعا : إدارة الأوقاف في العراق بعد ثورة السابع عشر من تموز 1968

استمرت رئاسة ديوان الأوقاف في عملها النشط بعد الثورة لفترة طويلة ثم قرر مجلس قيادة الثورة استحداث وزارة - للأوقاف في سنة 1976 واناط بها مهمة رعاية الشؤون الدينية بصورة عامة لذلك أبدلت أخيرا بوزارة الأوقاف والشؤون الدينية.

وقرر مجلس قيادة الثورة اصدار قانون يحدد أهداف الوزارة واختصاصاتها الواسعة تحت رقم 50 في سنة 1981. وقد حدد أهداف الوزارة فيما يلي : -

أولا : تنمية الوعي الإسلامي ونشر الثقافة الإسلامية وجوهر الرسالة الإسلامية.

ثانيا : رعاية شؤون المقدسات الدينية وتنظيم إدارتها وصيانتها.

ثالثا تأمين متطلبات الاداة الأمثل لفريضة الحج.

رابعا : العناية بشؤون المؤسسات الدينية والخيرية وتطويرها من النواحي الإدارية والفنية والمالية والتنظيمية.

خامسا : رعاية شؤون الطوائف الدينية بوجه عام وتنظيم الشؤون المتعلقة بإدارة أوقافها ومعابدها بوجه خاص.

سادسا : تنظيم شؤون إدارة الأوقاف والأشراف عليها ومراقبتها.

سابعا : استثمار أموال الأوقاف في الأوجه الشرعية المختلفة بما يضمن الحفاظ عليها وتنميتها في إطار المبادىء العامة لخطة التنمية القومية.

ثامنا : العناية بتنفيذ شروط الواقفين الصادقة إلى تحقيق التضامن الاجتماعي وتقدم المجتمع.

تاسعا : توثيق الروابط الدينية مع شعوب العالم الإسلامي بوجه خاص والعالم بوجه عام.

وان وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ماضية الآن وبتوجيه من الرئيس القائد صدام حسين رئيس الجمهورية في التنفيذ الدقيق لأهدافها المحددة وكالآتي : -

1 - في مجال نشر الثقافة الإسلامية، تعنى الوزارة الآن باحياء كتب التراث الإسلامي وتحقيقها وطبعها ونشرها وقد بلغ عدد الكتب التراثية المطبوعة على نفقة الوزارة أكثر من (70) كتابا يبلغ عدد مجلدات البعض منها عشرين مجلدا كما هو الحال في المعجم الكبير للطبراني.

2 - وفي ميدان رعاية شؤون المقدسات الإسلامية فقد خصص ملايين من الدنانير لإعادة تذهيب قبة الروضة الحيدرية والروضة الحسينية في النجف وكربلاء وتم تطوير التكييف والشبكة الكهربائية ونصب الأبواب الذهبية. وكذلك الحال بالنسبة للروضة الكاظمية والحضرة الكيلانية ولجامع الإمام الأعظم.

3 إن رعاية الوزارة للحجاج وتأمين متطلبات الأداء من ناحية الإرشاد الديني والخدمات الإدارية أمر يشهد به كل من يحضر مواسم الحج.

4 تبذل الوزارة جهدها المستطاع لرعاية شؤون الطوائف الدينية في العراق بالشكل الذي يؤمن لها ممارسة شعائرها الدينية بكل حرية.

5 تعمل الوزارة على تأمين المساجد لكل قرية ولكل محلة وتعيين إمام يقوم بالشعائر الدينية فيها

بالإضافة إلى تكوين لجان للوعظ والإرشاد للتجوال في المناطق الريفية وفي غيرها.

6 لم تقتصر الروابط الدينية مع شعوب العالم الإسلامي بوجه خاص والعالم بوجه عام ولذلك فقد وثقت علاقاتها بالمراكز الدينية الرسمية والشعبية في العالم الإسلامي.

وواضح أن مثل هذا الجهد الضخم الذي تبذله وزارة الأوقاف والشؤون الدينية في العراق في الميادين الثقافية والاجتماعية والدينية لا يمكن دون دعم استثنائي خاص من لدن القيادة السياسية وعلى رأسها الرئيس المؤمن صدام حسين رئيس الجمهورية.

فمهما تكن إمكانية الأوقاف في العراق واسعة فإنها لاتبلغ عشر ما تنفقه في هذه الميادين.

ولا بد أن نختم بحثنا بتقدير هذه الجهود المباركة التي تنهض بها وزارتنا وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ولا سيما في مجال طبع المصحف الشريف وكتب التراث الإسلامي.

ومع أني أقدم هذه العجالة المتواضعة لأن الظروف لم تسمح لي بمراجعة المراجع المختلفة فإني أمل منكم القبول مع شكري وتمنياتي بالنجاح لكم.

الدكتور محمد شريف أحمد



مؤسسة الأوقاف ومدارس بيت المقدس

للدكتور كامل جميل العسلي

فلسطين من أقصاها إلى أقصاها حافلة بالأوقاف، ولعلها من أحفل البلدان الإسلامية بها، وهذا أمر طبيعي بالنظر لمكانتها المتميزة في الإسلام ولأن مسجدها الأقصى بارك الله تعالى حوله وجعله أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين وأسرى بنبيه الكريم محمد صلى الله عليه وسلم وجعل منه معراجه إلى السماء، والأوقاف تكثر في مواطن القداسة، لأنها قربات إلى الله تعالى أولا وقبل كل شيء، وقد بدأت الأوقاف في هذه البلاد المقدسة منذ فجر الإسلام، وأقدمها فيها الوقف الذي وقفه الرسول الكريم نفسه على الصحابي الجليل تميم الداري وذريته في أرض مدينة خليل الله ابراهيم... وتتابعت الأوقاف من بعد في العصور الإسلامية المتلاحقة.

وما من هنا في هذا البحث أن نتناول أوقاف فلسطين وبيت المقدس بصورة عامة، ولا جميع أنواع الأوقاف فيها، وإنما سنتناول ناحية واحدة وفي فترة زمنية محددة وإن كانت طويلة، وهذه الناحية هي بيان دور الأوقاف في انشاء المدارس ببيت المقدس في القرون الستة التي اعقبت فتح صلاح الدين للمدينة في سنة 583هـ والقاء الضوء من خلال ذلك على فضل مؤسسة الأوقاف في نشر العلوم والمعارف في الديار القدسية.

والمدارس، بوصفها، مؤسسات منظمة للتعليم ومنشأة خصيصا له، أحدثت في الإسلام بعد أن لم تكن وإنما حدث عملها بعد الأربعمائة من سني الهجرة (1)، وقد كانت بدايتها الحقيقية في نيسابور، ففي النصف الأول من القرن الخامس كانت هنالك أربع مدارس مشهورة في تلك المدينة (2). أما أشهر المدارس التي أسست في القرن الخامس فهي مدارس الوزير السلجوقي نظام الملك وأعظمها نظامية بغداد التي أسست سنة 459هـ وتتابع إنشاء المدارس من بعد في ديار الشام ومصر وغيرهما من ديار المسلمين أما بيت المقدس فقد كان فيها في واسط القرن الخامس للهجرة مدرستان هما، المدرسة النصرية الشافعية ومدرسة أبي عقبة الحنفية (3).

وقد نشأت المدارس في فترة من التاريخ كان فيها الظلام يطبق على الأمة العربية من جراء هجمات المغول والصليبيين والكوارث الطبيعية والأوبئة وسوء نظام الحكم فحفظت اللغة العربية وعلوم الشريعة والتاريخ وجمع

---

1) المقريزي، الواعظ والاعتبار، ج 2، ص 314.

2) حسن المحاضرة للسيوطي، ص 156، المواعظ والاعتبار، ج 3، ص 314.

3) لأبي بكر بن العربي - مجلة الابحاث، مجلد 21، رقم 4،3،2.

أساتذتها هذه العلوم في مصنفات حفظتها من الضياع وقد ساهمت مدارس بيت المقدس في ذلك مساهمة كبيرة. وكانت النهضة الكبرى في انشاء المدارس بالقدس في عصر الأمويين وعصر المماليك والجزء الأول من العصر العثماني.

كان نظام الأوقاف هو العمود الفقرى للمدارس وللمؤسسات التعليمية الأخرى كالمساجد والزوايا والربط والخوانق والمكتبات. كما كان العمود الفقرى لمؤسسات الضمان الإجتماعي والمؤسسات الصحية كلها. إن الدولة الإسلامية لم تقم كدولة بإنشاء هذه المؤسسات. بل إن الذي أنشأها هم الواقفون سلاطين وأمراء واثرياء ورجال علم واتقياء وأشخاص عاديون. ولم يكن من دأب الدولة الإنفاق عليه.. وإنما الدولة كانت تشرف على الأوقاف وتراقب تنفيذ شروط الوقفيات. وتهتم بصيانة العقارات الموقوفة. وتعيين الاكفياء لادارتها. وتمنع سوء الادارة واختلاس أموال الوقف أو التلاعب فيها. ماوسعها جهدها في ذلك. غير أن الأساس في توفير الأموال اللازمة إنما كان دائما العقارات التي وقفها المحسنون. ومن هنا يتبين لنا الدور العظيم للأوقاف في نهضة المؤسسات التعليمية والإجتماعية والصحية جميعها.

والوقف في الشريعة الإسلامية هو حبس العين المملوكة ملكا تاما. عقارا أو منقولا على حكم الله تعالى والتصدق بالمنفعة. ومعنى ذلك أن السلاطين والأمراء لم يكن لهم أن يقفوا أموال الدولة. لأنها ليست مملوكة لهم. فعندما وقف صلاح الدين الأيوبي مثلا المدرسة الصلاحية بالقدس اشترى هو نفسه العقار الذى أراد وقفه من وكيل بيت المال في القدس ثم وقف المدرسة. كما اشترى من الوكيل المذكور الجهات التي وقفها عليها (4). وإذ كان ريع الأوقاف هو وحده مصدر التمويل والإنفاق فإن المدارس كانت تزدهر بمقدار ازدهار العقارات الموقوفة عليها. والعكس بالعكس. غير أن مؤسسة الوقف لم تكن مسؤولة عن تدبير الأموال فحسب. بل أنها كانت مسؤولة عن «التشريعات» التي تنهض بالتعليم في المدارس كما تدلنا عليه الحجج الوقفية. وكما سنتحدث عنه بالتفصيل بعد قليل. وبعد أن نحاول اعطاء فكرة عن مدى انتشار المدارس الموقوفة والعقارات الموقوفة عليها في بيت المقدس.

بلغ عدد المدارس التي أحصيناها في بيت المقدس ابتداء من القرن الخامس الهجرى حتى القرن الثاني عشر الهجرى حوالي سبعين مدرسة ولا أعلم على التحقيق أن ايا من هذه المدارس كانت مدارس خاصة (5) وإنما الذي أعرفه أن هذه المدارس كانت كلها مدارس موقوفة... وكانت كلها تقدم التعليم بالمجان من ريع أوقافها. وأنها كانت تقدم فضلا عن ذلك مرتبات للطلبة ومخصصات مالية لهم.

من المدارس السبعين التي ذكرت تسع انشئت في العصر الأيوبي وأربعون في العصر المملوكي وتسع من العصر العثماني. والباقية لا يعرف بالضبط زمن وقفها (6).

ومن هذه المدارس (10) وقفها سلاطين و(30) وقفها أمراء أو حكام (7) وقفتها أميرات أو نساء ثريات و(10) وقفها تجار و(4) وقفها رجال دين...

إن كثيرا من المدارس أسست بدوافع التقوى والرغبة في نشر علوم الدين... ولكن إلى جانب ذلك كانت هنالك اعتبارات تدعيم الحكم من قبل حكام غرباء هم المماليك خاصة. فأنشأوا المدارس بقصد تدعيم مركزهم عند الناس وتعزيز المذهب السني ولابعاد النفوذ الشيعي الذي كان يسود البلاد زمن الفاطميين. الحكام السابقين. وكانت هنالك أسباب أخرى تتصل بطبيعة النظام المملوكي وفقدان اطمئنان الأمراء والأغنياء على ثرواتهم في ظله.. فقد كانت أموال هؤلاء عرضة للمصادرات كما كانوا هم أنفسهم عرضة للقتل. ولذلك فإن كثيرين منهم لجأوا إلى وقف الأموال خشية مصادرتها وضياعها. وقد تدعمت الأوقاف تدعما كبيرا من جراء هذا كله.

---

4) الانس الجليل لمجير الدين الحنبلي ج 2 / 142.

5) ربما كانت كذلك المدرسة النصرية ومدرسة ابي عقبة اللتين انشئتا في اواسط القرن الخامس.

6) في الملحق المرفق قائمة باسماء المدارس

7) الانس الجليل 2 / 50.

والوقف كان ينشأ عادة بمقتضى حجة شرعية هي الوقفيات. وكانت الوقفيات تختلف صياغة بين الواحدة والأخرى. لكنها جميعا لها أركان أربعة هي الواقف والموقوف والموقوف عليه والصيغة التي يؤدى بها إلى الوقف ولدى استعراضنا للعديد من وقفيات المدارس تبين لنا أنها كانت تحتوى على العناصر التالية. مع اختلاف من حيث الاسهاب والإختصار بين الواحدة والأخرى :

أولا : مقدمة يذكر فيها فضل الوقف وثواب الواقفين ويحدد فيها اسم الواقف والدافع إلى الوقف.

ثانيا : ذكر العقارات الموقوفة على المدرسة وذكر مواقعها وحدودها وأنواعها وتفاصيل دقيقة عن مشتملاتها... الخ.

ثالثا : تفاصيل مختلفة عن المدرسة وجهازها التعليمي : المدرس أو الشيخ وسائر العاملين فيها والشروط التي ينبغي أن تتوفر فيهم وواجباتهم وطلبة المدرسة (الفقهاء) وعددهم والشروط التي ينبغي أن تتوفر فيهم والواجبات التي عليهم القيام بها. وفي سياق ذلك تحدد الوقفية بشكل ما مواضيع الدرس ومنهاج الدراسة.

رابعا : مرتبات العاملين في المدرسة وكيفية دفعها والعملة التي تدفع بها والمؤن التي تصرف كجزء من المرتب أو في مناسبات الأعياد. وكذلك مخصصات الطلبة من دراهم وخبز... الخ.

خامسا : تعيين ناظر على الوقف وبيان واجباته في العناية بالوقف وصيانته واستغلاله والإنفاق من ريعه على المدرسة والعاملين فيها. وغالبا ما كانت الوقفيات تشترط أن يكون النظر للواقف في حياته ثم لأحد أولاده وأحفاده من بعده.

وكان تنفيذ شروط الوقفية بدقة أمر ينبغي مراعاته ويشرف عليه الجهازان الإداري والقضائي.

العقارات الموقوفة على المـــدارس :

انتشرت العقارات الموقوفة على مدارس القدس في جميع أنحاء فلسطين وخاصة في مناطق القدس والخليل وغزة والرملة ونابلس... الخ. وكانت هناك أوقاف في خارج فلسطين من ديار الشام كطرابلس وصيدا. ومنها ما كان في بلاد الروم وغيرها. وكانت الأوقاف على أنواع عدة منها: على سبيل المثال قرى كاملة أو أجزاء من قرى - وهناك في فلسطين مئات القرى التي وقفها الملوك والأمراء والسلاطين على المدارس وغيرها من معاهد العلم وكذلك كانت هناك عشرات المزارع التابعة للأوقاف كما كان هنالك دور وحمامات وخانات وطواحين وبساتين ومصابن ودكاكين ومعاصر وافران... وفي العصر العثماني كانت أراضي الوقف تشكل نوعا رئيسيا من أنواع الأراضي الخمسة في البلاد وهي :

أ/ الأملاك السلطانية - خاص شاهي.

ب/ وأملاك حكام السناجق والألوية - خاص ميرى لوا - (وكان حاكم السنجق) يأخذ مخصصاته بمنحه عدة قرى أو بعض الضرائب في المدن.

جـ/ الإقطاعيات المعروفة باسم الزعامة أو التيمار.

د/ الأراضي الملك في المدن وضواحيها.

هـ/ أراضي الأوقاف.

وقد زادت الأوقاف زيادة كبيرة في المماليك ثم في عصر العثمانيين. وخاصة في النصف الثاني من القرن العاشر الهجرى.

وكانت الأوقاف على المدارس تتفاوت بطبيعة الحال حسب مكانة الواقف وثروته والمدارس التي وقفها سلاطين أو أمراء كبار وقفت عليها أوقاف غنية جدا. ومن الأمثلة على ذلك المدرسة الصلاحية التي وقفها السلطان صلاح الدين الأيوبي ووقف عليها أوقافا سخية كان منها سوق العطارين بالقدس (8) ووادى سلوان (9) وكانت تشمل أوقاف الصلاحية كما يبين دفتر تحرير الأراضي العثماني

---

8) مسالك الابصار 1 / 155. وسجل المحكمة الشرعية بالقدس رقم 184 ص 47 و 475.

9) وقفية المدرسة وكذلك السجل 522 من سجلات الاراضي العثمانية ص 23.

رقم 522 (ص 21)، أرض الجسمانية في القدس وقرية سلوان وحمام باب الاسباط ودكاكين في سوق العطارين ودكانا بخط داود وسويقة باب حطة ودورا متفرقة في القدس وخانا بباب حطة وبستان بير أيوب وبستانا بباب المغاربة وقرية نعليا تابع خليل الرحمن. ومن الأوقاف الكبيرة، بل الضخمة، التي وقفت على المدارس تلك التي وقفها السلطان المملوكي الأشرف قايتباى على مدرسته المعروفة بالأشرفية، وهي تقع في رواق حرم بيت المقدس الغربي. وهذه الأوقاف كما يدلنا سجل الأراضي العثماني رقم 602 ص 24، كانت تتألف من 28 قرية منها 22 قرية تابعة لمدينة غزة، و14 مزرعة وقطعة أرض وبساتين وحمام ودكاكين ومعصرة وخان وفرن بغزة. وقد بلغ مجموع العقارات التي كانت موقوفة على هذه المدرسة 52 عقارا.

ومن الأوقاف الكبيرة كذلك تلك التي وقفها الأمير المملوكي سيف الدين تنكز نائب الشام على مدرسته في القدس سنة 730هـ. وكانت هذه الأوقاف تشمل خانا وحمامين في سوق القطانين وعددا كبيرا من الدكاكين في سوق القطانين وغيره ودورا مختلفة وقرية عامرة تدعى عين قينية (قرب مدينة رام الله اليوم) (10).

ومن الأوقاف الكبرى التي وقفها العثمانيون أوقاف تكية خاصكي سلطان، وهي تكية عظيمة أنشأتها خاصكي سلطان زوجة السلطان سليمان القانوني سنة 959. وكانت تشتمل على مطبخ يوزع الطعام على الفقراء وعلى مسجد وخان ورباط ومدرسة، وقد انتشرت أوقاف التكية في خمسة سناجق من بلاد الشام. وبلغ عدد القرى والمزارع الموقوفة على التكية 34 قرية ومزرعة حوالي نصفها في منطقة الرملة... ومن هذه القرى والمزارع أربع وقفها السلطان القانوني في ناحية صيدا، تعزيزا لوقف زوجته الأصلي (11).

ومن أمثلة أوقاف المدارس الأخرى :

- المدرسة الفارسية ، حصة من قرية طوركرم.
(الأنس الجليل 38/2 و39).
- المدرسة النحوية ، قرية بيت لقيـــا.
(مسالك الأبصار 146/1).
- المدرسة الخاتونية ، مزرعة في ظهر الجبـل.
(الأنس الجليل 36/2).
- المدرسة الدوادارية، قرية بيت نبالا قرب القدس، قرية حجلا قرب اريحا قرية طبرس قرب قاقون، فرن وطاحون بالقدس ومصبنة وستة حوانيت ووراقة وحمام بنابلس وثلاثة بساتين وثلاثة حوانيت وأربع طواحين ببيسان (12).

ومن المدارس التي وقفت عليها أوقاف خارج فلسطين :

- المدرسة العثمانية ، وقفت عليها أوقاف في بلاد الشام وغيرها من البلاد (13).
- المدرسة الطيلونية، أربع قرى في قضاء بلدة كوتاهية من ولاية كرميان في بلاد الروم (14).

إن الإنفاق السخي على أوقاف المدارس قد حقق نتائج باهرة في عدة مجالات ، منها مجال الفن المعمارى، وتهيئة فرص التعليم المجاني لعدد كبير من الطلبة، وتوفير وظائف مجزية لعدد كبير من المدرسين وغيرهم من العاملين في مجالات الإدارة المدرسية مما جعل بيت المقدس مركزا مهما ورئيسيا للعلم والثقافة في العالم الإسلامي كله.

وفيما يتعلق بالنقطة الأولى - أى فن البناء - فقد كانت المدارس تبنى من الحجر الجيد وكان تحفا معمارية تجلى فيها جمال الهندسة العربية الإسلامية. ولما كان أكثر المدارس من بناء المماليك فقد انعكس فيها طرازهم في

(10) وقفية خاصكي سلطان للتكية ووقفية السلطان سليمان القانوني على التكية.
(11) النقش على باب المدرسة الدوادارية بالقدس.
(12) الانس الجليل 2 / 36.
(13) وقفية المدرسة الطيلونية - نشر نصها الدكتور بلج في بحث المقدم الى المؤتمر الثالث لتاريخ بلاد الشام - عمان 1980.
(14)

البناء الذى كان يتميز بكثافة الزخرفة والتزيين. وخصوصا فوق الأبواب العالية وعلى الواجهة الأمامية التي كان يرسم عليها عادة رنك أو شعار الأمير باني المدرسة ويكتب عليها اسمه وسنة الوقف وشروطه أحيانا بالخط المملوكي الكبير الجميل وظهرت المقرنصات فوق النوافذ والأبواب.

كانت المباني تتميز ببوابات عالية في فجوة كبيرة داخل الواجهة وفي أعلى البوابة قوس مرتفع. لكن الباب نفسه لم يكن يشكل إلا جزءا صغيرا من البوابة. وكان هنالك عدد من النوافذ المطلة على الشارع والمغطاة بشعريات من الخشب. وكانت مباني المدارس مؤلفة غالبا من طابقين وجدرانها مبنية من الحجارة الكبيرة التي يبلغ طول الواحدة منها نصف متر يشد بعضها إلى بعض بالجير والرمل.

وكان يتوسط المبنى من الداخل صحن كبير تحيط به من جهاته الأربع أواوين المدرسة.. وكان في المدارس الكبيرة غالبا أربعة أواوين. أما واجهات المباني فكانت تبنى في عهد المماليك من صفوف من الحجارة ذات الألوان المختلفة صف أحمر. وصف بنفسجي. وصف أسود... الخ. وكانت أرض الغرف ترصف عادة بالرخام (15).

وكانت أشرف المواقع لبناء المدارس أقربها إلى الحرم الشريف وكثير من المدارس أنشئت في أروقة الحرم نفسه. وكذلك في الطرق المؤدية إليه من الغرب والشمال.

وما تزال بعض مباني المدارس في القدس قائمة كآثار فنية ناطقة ومن أفخم هذه المباني مبنى المدرسة التنكزية ـ الذى تحتله القوات الإسرائيلية وترابط فيه في الوقت الحاضر ـ ومباني المدرسة الطشمترية الكيلانية والمزهرية والدوادارية. ولاشك أن الإزدهار الإقتصادى في عصر المماليك هو الذي مكنهم من إقامة مثل هذه المنشآت الباذخة في القاهرة ودمشق والقدس وحلب وغيرها.

أما فيما يتعلق بأثاث المدارس وتجهيزاتها فقد كانت بسيطة على وجه العموم. فأرض المدرسة كانت تفرش بالبسط والحصر من مختلف الأنواع والتي كانت تختلف قيمتها حسب غنى المدرسة. وكانت هناك أرائك ومقاعد مبثوثة في أرجاء الأواوين... وفي كل مدرسة كانت هناك بالطبع خزائن تحفظ فيها الكتب من مختلف الأنواع.

وفي الأماكن المخصصة للنوع كانت هنالك فرش ولحف وناموسيات ومخدات.. كما كان هناك ستائر في مختلف الغرف..

وكانت في كل مدرسة اعداد من القناديل التي تضاء بالزيت بعضها مذهب وبعضها نحاسي والشمعدانات والأباريق التي تستعمل للوضوء وغير ذلك والسطول والمكانس. كما كان هنالك أوان للطبخ والأكل من قدور ودسوت وقصاع ومغارف (16).

أما الطلبة، أو الفقهاء، كما كانوا يسمون، فكانوا يلتحقون بالمدرسة عادة بعد انتهاء دراستهم الإبتدائية في المكتب أو الكتاب ويبقون فيها عدة سنوات، غير أن بعض المدارس كانت تشترط مدة معينة لإنهاء برنامج الدروس فيها. فمدة الدراسة في المدرسة التنكزية مثلا كما جاء في وقفيتها، كانت أربع سنوات.. وربما كانت هذه هي مدة الدراسة الشائعة. ولم يكن عدد الطلبة كبيرا في أى مدرسة بل أنه لم يكن يتجاوز في أقصى حدوده السبعين أو الثمانين. غير أنه في العادة كان أقل من ذلك بكثير. وربما كان معدل الطلبة حوالي العشرين طالبا. وليس هذا العدد بالقليل بالنسبة لمدرس واحد. فمعلوم أن المدرسة لم يكن بها عادة سوى مدرس واحد. ومع أن الطلبة كانوا يكثرون أو يقلون حسب شهرة المدرس وعلمه إلا أن الوقفيات هي التي كانت تحدد عدد الطلبة لاعتبارات اقتصادية طبعا... فوقفية المدرسة الأشرفية مثلا (17) تضمنت مخصصات لما مجموعه سبعون طالبا وصوفيا... والمدرسة المعظمية كان فيها 25 طالبا، كما يفيدنا العمرى في مسالك الأبصار (18).. والمدرسة التنكزية كان فيها 15 فقيها أو طالبا (19)... ودار الحديث التنكزية كان فيها 20

(15) هذه المعلومات مستمدة أساسا من الوثيقة رقم 595 من وثائق الحرم القدسي وهي «ورقة ضبط حوائج المدرسة الطازية».
(16) معاهد العلم في بيت المقدس ص 162، عن وقفية المدرسة.

(17) ج 1 ص 146.
(18، 19) عن وقفية المدرسة التنكزية.

طالبا (20)... والمدرسة الطازية كان فيها سنة 984 ـ 18 طالبا. كما تفيدنا سجلات المحكمة الشرعية بالقدس (21).

وكانت هناك وقفيات تتضمن معلومات مفصلة وشروطا تتعلق بقبول الطلاب وبمنهج التدريس وتذكر الموضوعات بل والكتب التي كان على الطلاب أن يدرسوها. كما تحدد الواجبات التي كان يترتب على الطلاب أن يقوموا بها. من ذلك مثلا وقفية المدرسة التنكزية (22). فهذه الوقفية تشترط أن يكون الفقهاء من أهل الخير وتقسم إلى ثلاث طبقات ، مبتدئون ومتوسطون ومنتهون وتشترط أن يواظبوا على دروسهم. كما تشترط على قراء الحديث أن يجتمعوا بعد صلاة الظهر ويقرأ كل واحد منهم ما يتيسر من كتاب الله ويختمون القرآن. ومن شروط الطالب في دار الحديث أن يكون «جيد الضبط حسن القراءة وأن يقرأ في الميعاد من «صحيح البخاري» ثم من «صحيح مسلم». وأن يحفظ في كل يوم حديثا واحدا من الأحاديث الثابتة ثم يعرضه على الشيخ»... وشرط المحدثين أن يكونوا من «أهل الخير والدين والصلاح». أما الصوفية فكان عليهم أن يجتمعوا في صبيحة كل يوم قبل طلوع الشمس... ويقرأ كل واحد منهم القرآن ويرددون الدعوات ويقرأون من «رسالة الإمام القشيرى».

أما وقفية الخانقاه الصلاحية التي وقفها السلطان صلاح الدين الأيوبي (23). فتذكر أن الخانقاه وقفت على «المشايخ الصوفية الشيوخ والكهول والشبان البالغين المتأهلين والمجردين من العرب والعجم» وكذلك على «الواردين من سائر البلاد الشاسعة من الصوفية المعروفين من الخوانق»... وتشترط الوقفية ، «أن يجتمع الجماعة المذكورون باسرهم في كل يوم يقرأون ما يتيسر من القرآن العظيم في ربعات شريفة ويذكرون مما حسن من الذكر ويدعون عقيب ذلك للواقف المحبس.. وللمسلمين أجمعين..» كما تشترط «أن يجتمع الجماعة المذكورون مع شيخهم بعد طلوع الشمس من يوم الجمعة... يقرأون في ربعات شريفة ويدعون عقيب ذلك للواقف والمسلمين ويقرأون بحضور شيخهم ما يتيسر من كلام الأئمة والمشايخ الصوفية...».

والنقش الكائن على باب المدرسة الوادارية يبين أن واقف المدرسة وقفها «على تدريس المذهب الشافعي وعلى شيخ يسمع الحديث النبوى. وقارىء يقرأ عليه وعلى عشرة أنفار يسمعون الحديث وعشرة أنفار يتلون كتاب الله كل يوم ختمة. وعلى مادح النبي. كل ذلك بالجامع الأقصى.. الخ».

أما المدرسة الحسنية فكانت تشترط «أن يجتمع الشيخ والقراء والصوفية والشايل والعامل وكاتب الغيبة والأيتام ومؤدبهم والمعيدون صبح كل جمعة ويقرأون سورة الكهف ويس والواقعة وتبارك ويختمون قراءتهم بالدعاء للواقف» (24)

وبعد انتهاء الدراسة كان الطلاب ينالون الإجازة. وكانت الإجازة تصدر عن الشيخ الذي درس عليه الطالب، ويشهد فيها أن الطالب درس عليه كتابا بعينه أو موضوعا بعينه. وهذه هي الإجازة الخاصة... أما الإجازة العامة فكانت تصدر لطالب ما من الشيخ أيضا يشهد فيها الأخير أنه أجاز طالبه بمواضيع متعددة... وبكل هذه المواضيع.. (أى أن الإجازة لم تكن تصدر عن المدرسة بل عن الشيخ)...

كان الطلاب كما ذكرنا من قبل يبيتون في المدرسة. كما يتعلمون فيها مجانا. وكان كل واحد منهم يتقاضى فضلا عن ذلك مخصصات شهرية إما نقدا أو نقدا ومؤنا وتعطينا الوقفيات فكرة عن هذه المخصصات ،

ففي المدرسة الباسطية المخصصة للأيتام كان اليتيم يتقاضى سنة 834هـ (15) درهما شهريا. وكان يعطى في عيد الفطر (30) درهما بدل كسوة (25) والمدرسة السلامية

20) السجل رقم 57 ص 62 لسنة 984.

21) وهي مدرسة في السجل 92 من سجلات المحكمة الشرعية بالقدس. الصفحة 426 وما بعدها. ومن الجدير بالذكر أن هذه المدرسة كانت مجمعا يضم مدرسة ودار حديث ورباطا للصوفية ورباطا للنساء.

22) هذه الوقفية مدرجة في السجل 95 من سجلات المحكمة الشرعية بالقدس ص 424.

23) دفتر تحرير الاراضي (العثماني) رقم 522 ص 18.

24) دفتر الاراضي 522 ص 20.

25) دفتر الاراضي 522 ص 18.

المذكورة أن يكون عالي الرواية مقصودا بالسماع عليه والأخذ عنه، حسن الضبط. (وقفية المدرسة).

ومن الظواهر التي أصبحت شائعة في وظائف التدريس - وغيرها من الوظائف الدينية أيضا - ان هذه الوظائف أصبحت شبه وراثية في العائلات الكبيرة - فالمدرسة المعظمية مثلا كان التدريس فيها شبه مقصور على أبناء عائلة الديرى (الخالدي اليوم) والمدرسة العثمانية تعاقب عليها مدرسون من آل أبي اللطف (جار الله)، وكان كثير من المدرسين في المدرسة الصلاحية من بني جماعة. وفي المئتي سنة الأخيرة من عمرها، من عائلة أبي اللطف، والخانقاه الصلاحية لبني غانم ثم لبني جماعة..

وتعطينا كثير من الوقفيات فكرة عن الرواتب التي كانت تدفع لشيوخ المدارس ومختلف فئات العاملين فيها.. وكانت هذه الرواتب تختلف حسب مكانة المدرسة والمدرس وحسب إمكانيات المدرسة المالية والأوقاف الموقوفة عليها.. وفي المدارس الكبرى كانت تدفع مرتبات عالية ومجزية... فناظر المدرسة الاشرفية كان يتقاضى 600 درهم شهريا، وكان شيخها يتقاضى 510 دراهم، وازدادت مرتبات العاملين في المدرسة زيادة كبيرة بين سنتي 881 (وهو تاريخ الوقفية الأولى التي وقفها عليها السلطان قايتباي) وسنة 890 وهو تاريخ الوقفية الثانية التي زاد فيها بالوقف زيادة كبيرة فبينما كانت مرتبات العاملين في الوقفية الأولى تتراوح بين 10 دراهم و 100 درهم شهريا ارتفع معدل هذه الرواتب في الوقفية الثانية بحيث أصبح يتراوح بين 100 درهم و 600 درهم، بالإضافة إلى كمية يومية من الخبز لكل موظف (30).

أما المدرسة التنكزية، فكان راتب مدرسها 60 درهم فضة شهريا و 3/2 رطل خبز يوميا وراتب شيخ المحدثين 40 درهما شهريا ورطل من الخبز يوميا، وراتب شيخ الصوفية 60 درهم فضة شهريا و 3/1 رطل زيتون و 3/1 رطل صابون بالإضافة إلى رطل خبز يوميا) وقفية المدرسة.

وفي المدرسة الحسنية سنة 837 كان راتب الناظر وهو في الوقت نفسه شيخ المدرسة 100 درهم في الشهر وكان يصرف له رطل خبز يوميا وكل شهر رطل ونصف من الدبس، وكان مرتب الفراش والبواب وفقيه الأيتام 30 درهم في الشهر، أما القراء الأربعة فيها فكان يصرف لرئيسهم 9 دراهم شهريا وللثلاثة الآخرين 7 دراهم لكل منهم (31).

أما المدرسة السلامية الموصلية فكان مرتب شيخها 15 درهما ومرتب المحدث فيها 20 درهما سنة 838 (32).

ومنذ بداية القرن الحادي عشر بدأ النظام الاقتصادي والسياسي والاجتماعي في الدولة العثمانية يعاني من أزمة متزايدة متصاعدة أدت به إلى الانهيار، وكانت لهذه الأزمة أسباب داخلية نابعة من النظام الإقطاعي نفسه ومن ضعف جهاز الحكم المشرف عليه، وأسباب خارجية أهمها عدوان الدول الاستعمارية على الدولة وتغلغلها الاقتصادي في مرافقها، وما همنا هنا أن نبحث اسباب انهيار الدولة العثمانية ونحللها بالتفصيل ولكننا نقرر أن الانهيار المتعدد الأشكال قد شمل فيما شمله مؤسسة الأوقاف وجميع المرافق التي تشرف عليها، بما في ذلك المؤسسات الدينية والتعليمية والصحية والاجتماعية، وكان ماحدث لمدارس القدس الوقفية مثلا واحدا من أمثلة عديدة شملت مختلف قطاعات الحياة، فابتداء من القرن الحادي أخذت أوضاع الأوقاف تتدهور لأسباب عديدة منها سوء الإدارة والتلاعب بالإيرادات الوقفية وكثير من العقارات الوقفية إختفت واستولى عليها المتولون والنظار وتحولت بشكل أو بآخر إلى ممتلكات خاصة وطمست معالم الوقف، وكان تحكير عقارات الوقف من أسباب تحول كثير من العقارات الوقفية إلى ممتلكات خاصة، وفي ظل أزمة اقتصادية مستفحلة أهملت كذلك صيانة العقارات الوقفية فأخذت في التآكل والانهيار... وكان الظلم الذي تعرض له الفلاحون في قرى الأوقاف ومزارعها من الحكام والإقطاعيين يد طولى في تشريدهم وانهيار المزارع التي يعملون بها مما أدى إلى

30) معاهد العلم في بيت المقدس عن وقفية المدرسة ص 215، 216.
31) دفتر الاراضي العثماني رقم 522 ص 20.
32) الختنية (بضم الخاء وفتح التاء) نسبة الى الشيخ الختني، شيخ المدرسة المنسوب بدوره الى ختن من اعمال تركستان في وسط اسيا.

(الموصلية) كانت تدفع للفقيه (الطالب) بشرط الواقف، 1/2 7 درهم شهريا (26).

والمدرسة الحسنية كانت تدفع للطالب (10) دراهم شهريا و1/4 رطل خبز كل يوم (27).

أما المدرسة التنكزية فكانت تدفع للفقيه المنتهي 20 درهما شهريا، ونصف رطل خبز يوميا وللفقيه المتوسط (15) درهما شهريا، ونصف رطل خبز يوميا وللفقيه المبتدىء (10) دراهم شهريا ونصف رطل خبز يوميا، ولطالب الحديث 1/2 7 درهم شهريا، و1/3 رطل زيت و1/3 رطل صابون شهريا (وقفية المدرسة المشار إليها اعلاه). وكانت المدرسة الأشرفية - وهي في طليعة المدارس الفنية - تدفع للطالب 45 درهما في الشهر (28).

وهكذا فإن مخصصات الطلبة كانت تتراوح في القرنين الثامن والتاسع بين 1/2 7 درهم و45 درهم شهريا حسب غنى المدرسة والأوقاف الموقوفة عليها...

ومما هو جدير بالذكر أن كثيرا من طلبة العلم في القدس كانوا يفدون اليها من أقطار إسلامية متعددة، دانية ونائية، من مراكش حتى السند ومن سمرقند إلى مصر... والقول نفسه يقال عن المدرسين الذين كانوا يفدون إلى القدس أيضا من جميع الأقطار الإسلامية.

وكان المدرس على رأس جهاز كبير من العاملين في المدرسة فيه نواب تدريس ومعيدون وخزنة (امناء مكتبة) ونظار وكتبة وجباة وبوابون وفراشون وكتاب غيبة (لتسجيل الحضور والغياب) ومؤدبو أيتام وشادون وأنواع كثيرة أخرى من الوظائف كالسقاية والشعالة والكناسة وغيرها (29).

كما كان يعمل في المدرسة عادة عدد كبير من قراء القرآن الكريم وكان كثير من هؤلاء يبيتون في المدرسة مع الطلاب كما كان يبيت فيها فقراء ودراويش وعلماء وغيرهم، حيثما توفرت أمكنة فائضة للنوم، بإذن القاضي أو المتولي...

وظاهر من ذلك أن عدد موظفي المدرسة كان يفوق أحيانا عدد الطلبة فيها... وفي كثير من الأحيان كان هناك عدد فائض من الموظفين الذين لم يكونوا يؤدون أي عمل وإنما «تتحملهم» المدرسة، ربما لأن الأوقاف بر وهدفها الصدقة.

وبوجه الإجمال كانت وظائف المدرسة على نوعين رئيسيين : وظائف علمية (أكاديمية) ووظائف إدارية. وأهم الوظائف الأكاديمية بالطبع هي وظيفة شيخ المدرسة أو المدرس لأنه كان للمدرسة في مدرس واحد يفوض إليه تدريسها. وكانت وظيفة التدريس وظيفة جليلة يختار لها واحد من كبار العلماء ذوي السمعة الجيدة. أو معيدان يساعدان الطلبة في فهم الدروس. ومن العاملين الأكاديميين في المدرسة خازن الكتب، في المدارس الكبرى، وكان هذا في بعض الأحيان من كبار العلماء.

والوظيفة الإدارية الأولى في المدرسة كانت وظيفة الناظر. وفي كثير من الأحيان كانت وظيفتا المدرس والناظر تجمعان في شخص واحد. والناظر هو المدير العام للمدرسة يتولى إدارة شؤونها المختلفة. ويؤجر العقارات الموقوفة عليها ويتولى صيانتها ويشتري لوازمها ويصرف الرواتب والمخصصات والمكافآت للطلبة والموظفين.

وكانت الوقفيات في كثير من الأحيان تحدد بدقة مؤهلات (شروط) وواجبات كل عامل في المدرسة، وخاصة مؤهلات الشيخ (المدرس) وواجباته. وهي في سياق ذلك تعطينا معلومات إضافية عن المدرسة وعن منهج التعليم. فمن شروط المدرس في التنكزية مثلا «أن يكون حافظا لكتاب الله تعالى، عالما بمذهب الإمام أبي حنيفة النعمان ملازما لذكر الله»، ومن شروط شيخ الحديث - في المدرسة

26) معاهد العلم في بيت المقدس ص 162.
27) معاهد العلم في بيت المقدس ص 162.
28) في سنة 981 كان في المدرسة الجوهرية مثلا الوظائف التالية : النظارة والمشيخة ومشيخة التلقين والشهادة ومؤدب الاطفال والكتابة والشادية والفراشة والسقاية والشعالة وتفرقة الاجزاء وتفرقة الخبز (السجل الشرعي 56 ص 604) لسنة 981.
وفي سنة 984 كان في المدرسة الطازية 10 موظفين، المدرس والناظر والمتولي ومعيد وامام وشاهد وقفية وكاتب اياب وكان فيها من قراء الأجزاء 25 قارئا (سجل 57 ص 162).
29) معاهد العلم في بيت المقدس، المدرسة الأشرفية - ص 159 - 168.

خسارة كبيرة في ريع العقارات الزراعية الموقوفة على المدارس وغيرها. وهذا يفسر سبب اضمحلال الأوقاف التدريجي ونقصان غلتها إلى حد كبير، الأمر الذي حرم مدارس الوقف من مداخيلها مما أدى إلى ضعفها أو توقفها الكلي عن العمل. وقد حدث هذا لأغلبية المدارس في القرن الثاني عشر.

ومن أسباب التدهور الأخرى لانهيار المدارس النظام الذي كان يسمح بتوريث الوظائف من المشيخة حتى البوابة، مما أدى إلى تولي غير الأكفياء وظائف رئيسية حساسة كالمشيخة والتدريس، بحيث كانوا يعجزون عن القيام بأعبائها حتى لو أرادوا ذلك، ومن نتائج نظام التوريث هذا ان صارت الوظائف تقسم بين عدة أشخاص - هم الورثة - بحيث صار للمدرسة الواحدة ستة أو سبعة شيوخ في بعض الأحيان. وقد استشرت في القرنين الحادي عشر والثاني عشر عادة بيع الوظائف الموروثة بالطريقة التي كانت تعرف بالفراغ أو التنازل. وساعد ذلك كله على انحطاط مستوى التعليم.

وفي القرن الثاني عشر أخذت معظم مدارس القدس المحيطة بالحرم تتحول إلى مساكن... ولم يعد في القدس سوى بعض الكتاتيب التي يتعلم فيها الأطفال مبادىء القراءة والكتابة.

٥ ٥ ٥

وبعد سنة 1967 لم تتورع سلطات الاحتلال الإسرائيلي عن الاعتداء على العقارات الوقفية في القدس، ومن ضمنها مباني المدارس القديمة والمساجد ومختلف الموقوفات الذرية والخيرية، وقد أصاب هذا الاعتداء الكبير من ابنية المدارس التاريخية في المدينة المقدسة. فالمدرسة الافضلية في حي المغاربة نسفت بكاملها مع نسف الحي كله.

والمدرسة الختنية (33) جنوبي المسجد الأقصى، حفر تحتها نفق طويل يهددها ويهدد بنيان المسجد الأقصى نفسه - والمدرسة التنكزية استولت عليها سلطات الاحتلال وأقامت فيها مركزا عسكريا، والمدرسة الطشتمرية بباب السلسلة استولت على جزء منها. وأدى النفق الذي حفره المحتلون تحت الجدار الغربي لساحة الحرم إلى تصدع العديد من المدارس وإيهان بنيانها بصورة خطيرة، ومن هذه المدارس المدرسة العثمانية ورباط الكرد والمدرسة الجوهرية وغيرها... والواقع أن مباني الأوقاف كلها مهددة الآن في ظل الاحتلال كما أن كل شيء آخر باق في فلسطين مهدد.

وفي الختام نأمل أن نكون قد ألقينا ضوءا يوضح معالم الدور الذي لعبته مؤسسة الأوقاف في إنشاء وتطوير مدارس القدس، وهو دور جليل أدى إلى نشر ربوع العلم والثقافة طيلة قرون عديدة في الديار المقدسية ، دور يزودنا بمثال ناصع جلي على ما بذله الأباء والأجداد من جهد في سبيل دعم مكانة المدينة المقدسة وتعزيزها لتقف منيعة صامدة في وجه ما كان يتهددها من الأخطار الصليبية والاستعمارية.. ولم يكن هذا الجهد، على جلاله، سوى حلقة واحدة من سلسلة طويلة كبيرة من الجهود في مختلف مجالات الحياة لتعزيز بيت المقدس العزيزة على قلب كل مسلم وكل عربي.

ولا يخفى ان هذا البحث اقتصر على مدارس بيت المقدس دون معاهد العلم الأخرى، كالمساجد والزوايا والخوانق والربط ودور الكتب، وهذه كلها مؤسسات تعليمية بوجه من الوجوه، وكلها نهضت وأدت رسالتها في مجالات التعليم والتعبد والخدمة الاجتماعية بفضل الواردات الغنية التي وفرتها لها الأوقاف التي وقفت عليها على مدى القرون - وقد أسدت هذه المؤسسات أيضا خدمات جلى للمجتمع الذي نشأت فيه ولكن الحديث عنها له مجال آخر.

(34) هناك فيما نعلم مدرستان فقط أسستا قبل هذا التاريخ في القدس وهما المدرسة المصرية الشافعية ومدرسة ابي عقبة الحنفية وكلاهما من أواسط القرن الخامس للهجرة.

ملحق:

قائمة بمدارس القدس الموقوفة
من أول العهد الأيوبي (34) حتى نهاية العهد العثماني

أ ـ العصر الأيوبي

اسم المدرسة	اسم واقفها	تاريخ الوقف
1 ـ المدرسة الصلاحية	صلاح الدين الأيوبي	588
2 ـ المدرسة الختنية	صلاح الدين الأيوبي	587
3 ـ المدرسة الأفضلية	الملك الأفضل نور الدين ابن صلاح الدين	حوالي 590
4 ـ المدرسة الميمونة	الأمير ميمون القصري	593
5 ـ المدرسة النحوية	الملك المعظم عيسى	604
6 ـ المدرسة البدرية	الأمير بدر الدين محمد الهكاري	610
7 ـ المدرسة المعظمية	الملك المعظم عيسى	614
8 ـ مدرسة شافعية (زاوية الدركاة)	الملك بن رافع ؟	(بين 600/615)
9 ـ المدرسة الأمجدية	الملك الأمجد مجد الدين حسن بن العادل الأيوبي	أوائل القرن السابع

ب ـ العصر المملوكي

القرن السابع

اسم المدرسة	الواقف	تاريخ الوقف
1 ـ دار الحديث	شرف الدين أبو محمد عيسى الهكاري	666
2 ـ المدرسة الدو ادارية	علم الدين أبو موسى سنجر الدو ادار	695
3 ـ المدرسة الأوحدية	الملك الأوحد نجم الدين يوسف	697
4 ـ المدرسة الوجيهية	وجيه الدين محمد بن عثمان بن النجا	700

القرن الثامن

اسم المدرسة	الواقف	تاريخ الوقف
1 ـ المدرسة السلامية (الموصلية)	مجد الدين أبو الفدا السلامي	بعد 700
2 ـ المدرسة الجاولية	علم الدين سنجر الجاولي	715
3 ـ المدرسة الكريمية	كريم الدين بن هبة الله	718
4 ـ المدرسة التنكزية	سيف الدين تنكز	729
5 ـ المدرسة الامينية	أمين الدين عبد الله	730
6 ـ المدرسة الفخرية	فخر الدين بن محمد بن فضل الله	732
7 ـ المدرسة الملكية	ملك الجوكندار	741
8 ـ المدرسية الفارسية	فارس البكي	750
9 ـ المدرسة الكيلانية	الحاج جمال الدين بهلوان الكيلاني	753
10 ـ المدرسة الخاتونية	السيدة أغل خاتون	755
11 ـ المدرسة الارغونية	ارغون الكاملي	759
12 ـ المدرسة الطشتمرية	طشتمر السيفي	759
13 ـ المدرسة الحسنية	شاهين الحسني الطواشي	760
14 ـ دار القرآن السلامية	سراج الدين عمر بن أبي بكر السلامي	761
15 ـ المدرسة المنجكية	سيف الدين منجك	762
16 ـ المدرسة المحدثية	عز الدين العجمي الاردبيلي	762
17 ـ المدرسة الطازية	سيف الدين طاز	263
18 ـ المدرسة البارودية	الحاجة سفرى خاتون	768
19 ـ المدرسة الاسعردية	مجد الدين الاسعردي	770
20 ـ المدرسة اللؤلؤية	لؤلؤ غازي	775
21 ـ المدرسة الحنبلية	سيف الدين بيدمر الخوارزمي	781
22 ـ المدرسة الطشتمرية (باب السلسلة)	طشتمر العلائي	
23 ـ المدرسة البلدية	منكلي بغا الأحمدي	782
23 ـ المدرسة الجهاركسية	جهاركس الخليلي	قبل 791
25 ـ المدرسة الطيلونية	شهاب الدين أحمد بن الناصري محمد الطيلوني الظاهري	قبل 800
26 ـ المدرسة الصيبيبية	علاء الدين علي بن ناصر الدين	800
27 ـ المدرسة الكاملية	الحاج كامل الطرابلسي	حول 800
28 ـ المدرسة الفنارية	شهاب الدين أحمد الطولوني	حول 800
29 ـ المدرسة الحمراء		

القرن التاسع

اسم المدرسة	الواقف	تاريخ الوقف
1 ـ المدرسة باسطية	الشيخ الهروي شيخ الصلاحية وزين الدين عبد الباسط القاضي	834
2 ـ المدرسة الغادرية	مصر خاتون زوجة الأمير ناصر الدين ابن دلغادر	836

3 - المدرسة الحسنية	حسام الدين حسن الكشكلي	837
4 - المدرسة العثمانية	أصفهان شاه خاتون	840
5 - المدرسة الجوهرية	جوهر القنقباي	844
6 - المدرسة المزهرية	زين الدين أبو بكر محمد بن مزهر	885
7 - المدرسة الاشرفية	الاشراف قايتباي	887

جـ - العصر العثماني

1 - المدرسة الرصاصية	بيرم جاويش بن مصطفى	947
2 - المدرسة الخاسكية	خاسكي سلطان	959
3 - المدرسة - الزاوية المنصورية	الشيخ منصور المحلاوي	القرن الحادي عشر
4 - مدرسة مراد باشا	مراد باشا دفتر دار دمشق	القرن الحادي عشر
5 - المدرسة - الخانقاة - الزاوية الأسعدية	شيخ الإسلام أسعد أفندي	قبل 1034
6 - المدرسة الصامتية		
7 - المدرسة الماوردية		
8 - المدرسة - الزاوية - الجركسية		
9 - المدرسة الأحمدية		

د - مدارس لا يعرف واقفوها ولا تاريخ وقفها

1 - المدرسة الحجرية
2 - المدرسة الدهرية
3 - المدرسة السرمرية
4 - المدرسة الفرهادية
5 - المدرسة الدلقمرية
6 - دار الحديث بوادي الطواحين





للدكتور مصطفى محمد رمضان

لعل من أهم مؤسساتنا العلمية - إن لم يكن أهمها على الاطلاق - هو الأزهر. ذلك لأن الأزهر مؤسسة المسلمين الدينية والعلمية التي ضربت في حساب الزمن أكثر من ألف عام (1). والذى ضمن للأزهر هذا الاستمرار هو نظام الوقف الإسلامي الذي دعمه اقتصاديا، وحماه من انقلابات الدول. وكفاه شر المحن المتعاقبة على مدى تاريخه الطويل.

وتاريخ الأزهر العلمى والاقتصادى عبارة عن معالم على طريق تاريخنا الثقافي الطويل. والتاريخ للأزهر هو في صميمه تاريخ للحياة العلمية الإسلامية. والتاريخ العلمي والثقافي لأي أمة مهم جدا لأن تأثير القوى العلمية والثقافية في توجيه الشعوب أقوى من ارادة الحكام. فالأفكار تصنع الحضارة التي نعيش فيها بلونها، وأشد الحكام سطوة وحبا للتغيير هو أقل خطرا من الأفكار التي تنقاد لها الشعوب. والأزهر أقوى مثل على قوة الشعوب في فرض طابعها. فلقد أراد له الحاكم أن يكون حصنا لمذهب معين، ولكن ارادة الشعب الذي يؤمن بالتسامح أبت إلا أن يكون جامعة لدراسة مذاهب أهل السنة والجماعة للوافدين إليه على اختلاف أجناسهم وألوانهم في صحنه العتيق. ومن هذا المنطلق تأتى أهمية البحث في تاريخ الأزهر. وفي العوامل التي ضمنت له الإستمرار والعطاء حتى يومنا هذا.

ولعل الذي يهمنا من هذه العوامل في موضوعنا هذا، هو العوامل الاقتصادية التي شكلت قاعدة اقتصادية ارتكز عليها طوال تاريخه الطويل. اعتمادا على نظام الأوقاف الإسلامية التي يرصدها أهل البذل من الحكام والأثرياء.

وعن العصر الفاطمى توجد عدة وثائق ونصوص تلقى ضوءا على الموارد الأولى للأزهر. وأولى هذه الوثائق وأهمها سجل صدر عن الحاكم بأمر الله بن العزيز بالله في شهر رمضان سنة 400 هـ يوقف فيه بعض أملاكه من دور وحوانيت ومخازن لينفق من ريعها على الجامع الأزهر والجامع الحاكمى وجامع براشدة وجامع المقس ودار العلم بالقاهرة. ويفرد فيه لكل منها نصيبا خاصا ويفصل وجوه النفقة لكل منها.

ومن ذلك فيما يختص بالجامع الأزهر. رواتب الخطيب والمشرف والأئمة. وما ينفق على فرش الجامع وتأثيثه وإنارته من الحصر والقناديل والزيت. وعلى إصلاحه وتنظيفه. وامداده بالماء وغير ذلك من وجوه الإنفاق. وقد

---

1) دخلت الجيوش الفاطمية مدينة الفسطاط في 17 من شعبان سنة 358هـ وفي نفس الليلة التي دخلت فيها الجيوش الفسطاط أسس الفاطميون حاضرة جديدة لملكهم سموها القاهرة تفاؤلا بالنصر. ثم بنى الفاطميون بعاصمتهم الجديدة مسجدا جامعا سموه بالأزهر نسبة إلى فاطمة الزهراء. وبدأوا في انشائه في 24 من جمادى الأولى سنة 359هـ (أبريل 970م) وتم بناؤه وافتتح للصلاة والدراسة في 7 من رمضان سنة 361هـ (972م).

انظر : القلقشندى. صبح الأعشى. طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة 1914م. ج 3 ص 348.

وانظر أيضا : محمد عبد الله عنان. تاريخ الجامع الأزهر. الطبعة الثانية. القاهرة سنة 1958 ص ص 16 ـ 19.

فصل ذلك تفصيلا شاملا في وثيقة كاملة أثبتها المقريزى بنصها في خططه (2).

وتعد هذه أول وثيقة لوقفية صدرت عن أحد خلفاء الفاطميين ورتبت للأزهر بعض النفقات. وينقل المقريزى عن المسبحى (مؤرخ الدولة الفاطمية) في حوادث سنة 405هـ في عصر الحاكم بأمر الله أيضا أنه «قرئ في شهر صفر سجل بتحبيس عدة ضياع وعدة قياس وغيرها على القراء والفقهاء والمؤذنين بالجامع وعلى القوام بها. ونفقة المارستان وأرزاق المستخدمين «ويفهم من الشطر الأول من هذا النص بأن القراء والأساتذة بالأزهر كانوا من المنتفعين بموارد الأعيان المحبوسة في هذا السجل (3)».

أنواع الأوقاف على الأزهـر :

كانت الأوقاف التي تحبس على الأزهر إما أن تكون للأزهر عامة. وذلك مثل الوقفية السالفة التي أوقفها الحاكم بأمر الله في سنة 400هـ. وإما أن تخصص للأروقة المختلفة بالأزهر أو لأساتذة المذاهب الأربعة. أو للإنفاق على تدريس مادة معينة. ولا سيما علوم القرآن والحديث.

ومن أمثلة الأوقاف الخاصة ، المنزل الذي أوقفه عمر مكرم على أحد طلاب العلم. والكائن بالقاهرة بخط طولون بحارة المغاربة داخل درب العطارين. وهذا الطالب هو الشيخ أحمد الشينى الفوى. من أعيان طلبة العلم بالجامع الأزهر ولأولاده من بعده بشرط أن يكونوا من طلبة العلم برواق الفوية (4) بالأزهر. فإذا انقرضوا فيصرف ريعه على السادة المجاورين من طلبة العلم برواق الفوية بالجامع الأزهر. وحررت هذه الوثيقة في سنة 1224هـ.

ومنها ما خصصه عمر مكرم أيضا من أوقافه بعد مماته ، ما هو للسادة أهل العلم والقرآن المنقطعين برواق الصعايدة بالأزهر في كل يوم 130 رغيفا. وللسادة المجاورين برواق الفشنية بالأزهر في كل يوم 50 رغيفا عبرة كل رغيف ثلاث أواق موصوفة بالاستوى (5).

ومنها ما رصد على تجليد المصاحف بالجامع الأزهر. وهي رزقة مقدارها عشرة أفدنة بأراضي ناحية المنصورية بولاية الجيزة. والتي كانت تحت نظر الأمير محمد بك أمير اللوا. وهو الناظر الشرعى يومئذ على أوقاف الجامع الأزهر سنة 1172هـ (6).

ومن الأوقاف الخاصة على الأزهر ما أوقفه الأمير يشبك الدويدار بتاريخ 12 جمادى الأولى سنة 1218هـ على أروقة بالأزهر هي ؛

رواق ابن معمر ورواق المغاربة ورواق الشراقوة والأتراك والأكراد واليمن والجبرت والسليمانية والشوام والصعايدة والدكارنة. ومرتبات لأولاد بعض العلماء الذين عملوا بالأزهر كمعاشات لهم بعد وفاة والدهم. ومقدار هذا الوقف 1320 اردبا من القمح تأتي كل سنة من ناحية روضة الجمالية بولاية الأشمونين. على أن تستغل الغلال المذكورة في صناعة الخبز للمجاورين كل رغيف أربعة أواق. وتوزع الأخباز المذكورة على الأروقة المذكورة والمرتبات المفصلة بنص الوقفية لأولاد بعض العلماء. وجملة ذلك من الأروقة 1842 رغيفا (7).

وذكر على مبارك أن محمد باشا أبو سلطان من أمراء منية ابن خصيب أوقف على رواق الصعايدة مائة وخمسين فدانا من أطيانه بمديرية المنيا. يصرف من ريعها 320 رغيفا كل يوم على الطلبة والمدرسين من أهل الرواق (8).

وقد ظلت هذه الموارد الخاصة تنمو على مر العصور. وتوالت أوقاف أهل البذل من السلاطين والأمراء والكبراء

---

2) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. طبعة دار التحرير. القاهرة في 1967/ 1968 الجزء الثالث ص 157 ـ 159. وانظر الوثيقة أيضا بملحق الوثائق بهذا البحث.

3) محمد عبد الله عنان، مرجع سبق ذكره. ص 71.

4) هذا الرواق أنشأه عمر مكرم لأبناء فوه من أعمال البحيرة. واشترى لهم دارا وأوقفها عليهم. انظر سجلات الباب العالي. بدفتر خانه الشهر العقارى بالقاهرة. مسلسلة 341 مادة 163 ص 74.

5) المصدر السابق. مسلسلة 375 مادة 214 ص 67.

6) المصدر السابق. مسلسلة 254 مادة 532 ص 295.

7) المصدر السابق. مسلسلة 327 مادة 1118 ص 481.

8) علي مبارك الخطط التوفيقيه. ج 4 ص 21.

على الجامع الأزهر خلال العصور، وكان الحكام يعززونها جيلا بعد جيل.

وقد روى عن الملك الكامل من سلاطين بنى أيوب، أنه لما ملك مصر أرسل وزيره ليكشف عن أحوال مصر وجباية أموالها، فكتب له الوزير يخبره أن المرتب من بيت أموال المسلمين في كل سنة كمرتبات العلماء والفقراء مائتان وسبعون ألف دينار، ويحصل بذلك خلل في الخزائن ونقص في الأموال، فكتب له السلطان الكامل يقول : «المال مال الله وهو الرحيم الرزاق أجر الناس على عوائدهم في الاستحقاق ما عندكم ينفد وما عند الله باق، فأنا لا يحب أن يثبت عنا المنع وعن غيرنا الاطلاق، والآثار الحسنة من مكارم الأخلاق، قال صلى الله عليه وسلم : «من تسبب في قطع رزق أخيه المسلم قطع الله رزقه» (9).

وقد استمرت هذه الموارد تزداد شيئا فشيئا حتى تضخمت وبلغت الأوقاف المصرية العامة طبقا لاحصاء سنة 1812م (1227هـ) 600.000 فدان أي أنها كانت تزيد على خمس جميع الأراضي المصرية، لأن احصاء جميع الأراضي المصرية سنة 1813 بلغت فيه مساحة الأراضي المصرية كلها (2.500.000 فدان) (10).

وكانت الدولة تعين ناظرا على أوقاف الأزهر من المماليك يتولى الأشراف على أوقاف الأزهر وادارتها والصرف على الأزهر (11) في العصر المملوكي والعصر العثماني وشيئا فشيئا تدخل العلماء إلى أن أصبحوا يتولون النظارة على أوقاف الأزهر وعلى كثير من الأوقاف الخاصة بالمساجد والمدارس والأسبلة وخاصة في نهاية العصر العثماني.

وكانت تلك الأوقاف مصدر قوة للجامع الأزهر وقد حققت له إستقلالا ذاتيا عن الحكومة، فكان العلماء يفكرون ويعبرون عن آرائهم في حرية بعيدا عن جو الرغبة والرهبة، الرغبة في عطاء الحاكم ونواله، والرهبة من سوطه، وحياة العلم أن يحترم أهله ويصان استقلال رجاله فيفكرون ويعبرون في حرية وطلاقة، أما أن يعملوا في جو من الضغط والإرهاب فلا أمل في أن يدلوا برأي جرىء أو مشورة خالصة.

وفي ظل هذا الإستقلال المالى عاش الأزهر بعيدا عن الخضوع لنفوذ الحكام، فلم يعرف عنه طوال عصوره التاريخية أنه واكب الحكام في نزعاتهم، بل عاش علماء الأزهر وطلابه معززين مكرمين، بمنأى عن الخضوع للحكام على اختلاف أشكالهم وكان لمشايخ الأزهر الجرأة عند اشتداد الخطوب بالشعب أن ينذروا الحكام ويهددوهم بتأليب الشعب عليهم إذا بدا من الحكام إهمال لنصحهم أو رفضوا الإستجابة لوساطتهم، وقد ترتب على هذا الوضع المالي المستقل للأزهر أن مارس علماؤه حرية مطلقة في اختيار الدراسات والبحوث والموضوعات التي تلقى على الطلاب وفي انتقاء الكتب التي يقرأها الأساتذة عليهم دون اشراف من الحكام العثمانيين أو توجيه منهم (12).

جهود العلماء في الحفاظ على موارد الأزهر :

تصدى علماء الأزهر لكل من أراد المساس بأوقاف الأزهر وأرزاق العلماء، فعندما كثرت الأوقاف وأصبحت تهدد دخل الدولة نظرا لأنها كانت معفية من الضرائب، أراد الحكام الاستيلاء عليها، فقد أراد السلطان (الظاهر برقوق) نقض كل ما أرصده الملوك من قبله على المساجد والمدارس والأسبلة وغيرها من وجوه البر، وقال أن هذه الأراضي أخذت بالحيلة من بيت المال، وقد استوعبت نصف أراضي الدولة، وعقد لذلك مجلسا حافلا من العلماء لأخذ الرأي والفتوى في هذا الأمر، وحضر هذا المجلس الشيخ (أكمل الدين) شيخ السادة الحنفية في عصره، والشيخ (سراج الدين عمر البلقينى)، والشيخ البرهان ابن جماعة)

9) عيسى الصفتى، عطية الرحمن في ارصاد الجوامك والأطيان الطبعة الأولى مطبعة جريدة الاسلام القاهرة 1314هـ ص 22.

10) الجبرتى، عجائب الآثار، ج 4 ص 151.

11) محمود الشرقاوى، مصر في القرن الثامن عشر، ج 2 ص 178.

12) د عبد العزيز الشناوى، دور الأزهر في الحفاظ على الطابع العربى لمصر ابان الحكم العثمانى، من أبحاث الندوة الدولية لألفية القاهرة 1969، ص 16 ـ 18.

وغيرهم من علماء العصر. فاتفقوا على أن ما أرصده الملوك والأمراء من «جامكيه أو طين أو رزق يخرج من بيت المال لا سبيل إلى نقضه» (13). وانفصل المجلس على هذا.

يروى لنا محمد بن أبي السرور البكرى في حديثه عن خضر باشا الوالى التركى (تولى باشوية مصر سنة 1006هـ) أنه كان يغلب عليه الشح الزايد وشرع في قطع أرزاق العلماء من القمح فصعد له والد المؤرخ الشيخ (أبو السرور البكرى) وطلب منه عدم المساس بأرزاق العلماء. إلى أن قال : «ولم يزل الوالد رحمه الله يتلطف بالوزير إلى أن أجاز الإعطاء الخاص والعام» (14).

وفي سنة 1121هـ تصدى علماء المذاهب الأربعة للوالي التركي ابراهيم باشا القبودان. لأنه أراد نقض ما أرصده أكابر مصر على الزوايا والمساجد والمدارس. وأعلنوا فتواهم في جرأة وشهامة بأنه لا يجوز نقض ما حبسه أهل البر من الأراضي والعقارات والأرزاق حيث كان المرصد عليهم من العلماء، والفقراء، والأيتام والمفتنين وطلبة العلم (15). لأن هذه الأموال من مال بيت المسلمين وصلت إلى المسلمين من غير قتال وأعدت لمصالحهم وهي واجبة على السلطان وكذا نائبة. كما أنه لا مصلحة في قطع أرزاق المستحقين من بيت المال. وأن تصرف الإمام ونائبه منوط بالمصلحة ولا مصلحة في قطع أرزاق المستحقين من بيت المال. واذا كان فعل الإمام مبنيا على المصلحة فيما يتعلق بالأمور العامة لم ينفذ أمره شرعا أي لا تجب طاعته إلا إذا وافق أمره الشرع. فأن خالف أمره الشرع لم ينفذ ما أمر به أى لا يتبع قوله ولا يطاع بل تجب مخالفته. واستدلوا على صحة فتواهم بقول أبى يوسف في كتاب الخراج : «ليس للإمام أن يخرج شيئا من يد أحد إلا بحق ثابت معروف» (16).

وأضاف العلماء إلى ذلك فتواهم بأن العالم والفقيه وطالب العلم يستحقون أرزاقا من بيت المال وإن كانوا أغنياء، لأنهم تصدوا لنفع المسلمين في المستقبل. وكذلك من يعلم الناس القرآن لتفريغه نفسه لتعليم الناس (17).

وكان في مقدمة هؤلاء العلماء الذين تصدوا لهذه الفتوى الشيخ علي بن السيد علي الحسينى الحنفى. والشيخ علي العقدى الحنفى والشيخ أحمد النفراوى المالكى والشيخ محمد شنن المالكى والشيخ أحمد الشرقى شيخ رواق المغاربة بالأزهر والشيخ محمد الزرقانى شارح الموطأ. والشيخ عبد الباقى القليبى المالكى والشيخ عبد ربه الديوى الشافعي. والشيخ منصور المنوفى. والشيخ محمد الأحمدى الشافعي والشيخ أحمد المقدسى الحنبلى.

وقد كتب هؤلاء العلماء السالفون فتواهم على طريقة السؤال والجواب وعقدوا اجتماعا في بيت «قيطاس بك الغفارى» دفتر دار مصر حينئذ وحضر الاجتماع جمع غفير من أكابر مصر وحكامها وعلمائها وغيرهم. وقرأ عليهم هذه الفتاوى الشيخ عيسى الصفتى (18) فاستجنسها الحاضرون ثم أرسلوها إلى الوالى التركي ابراهيم باشا المذكور فعاند في ذلك. فكتب العلماء والأكابر عريضة إلى السلطان وأرسلوا معها هذه الفتاوى إلى السلطان أحمد خان الخليفة العثماني. فأمر بكتابة خط شريف بأبقاء الارصادات والمرتبات على ما هي عليه من غير نقض ولا ابرام (19) وأرسلت تلك الأوامر السلطانية إلى مصر. وانتصر العلماء في الدفاع عن حقوقهم.

وفي عام 1148هـ (1735م) أرسل السلطان العثماني مرسوما إلى الوالى بأبطال بعض المرتبات الخيرية المخصصة للعلماء وغيرهم. واجتمع أعضاء الديوان لتلقى ذلك الأمر. فلما قرىء المرسوم السلطاني بحضور علماء الأزهر بادر القاضي العثماني فقال : «أمر السلطان لا يخالف وتجب طاعته» فانبرى له الشيخ سليمان المنصورى قائلا : «يا شيخ الإسلام هذه المرتبات فعل نائب السلطان. وفعل النائب كفعل السلطان. وهذا شيء جرت به العادة

13) عيسى الصفتى ـ مرجع سبق ذكره ـ ص 5.

14) محمد بن أبي السرور البكري «النزهة في ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية» مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة ـ رقم 2266 تاريخ ص 34.

15) عيسى الصفتى ـ مرجع سبق ذكره ـ ص 4.

16) المرجع السابق ـ ص 4.

17) المرجع السابق ـ ص 9.

18) مؤلف رسالة عطية الرحمن في ارصاد الجوامك والأطيان الذي تنقل عنه هذه الرواية.

19) عيسى الصفتى ـ مرجع سبق ذكره ص 20.

في مدة الملوك المتقدمين وتداولته الناس وصار يباع ويشترى ورتبوه على خيرات ومساجد وأسبله ولا يجوز أبطال ذلك، وإذا بطل بطلت الخيرات، وتعطلت الشعائر المرصدة لها ذلك. فلا يجوز لأحد يؤمن بالله ورسوله أن يبطل ذلك، وإن أمر ولى الأمر بأبطاله لا يسلم له ويخالف أمره، لأن ذلك مخالف للشرع. ولا يسلم للإمام في فعل ما يخالف الشرع ولا لنائبه أيضا» فسكت القاضي وقال الباشا هذا الأمر يحتاج إلى مراجعة السلطان. وكتب الشيخ عبد الله الشبراوى عرض حالا من انشائه فيه فتوى العلماء وبعدم جواز المنع شرعا وأرسلوه إلى الباب العالى (20).

ويتلخص هذا العرض حال في شرح وجهة نظر علماء الشريعة في عدم جواز قطع تلك المرتبات، لأنها إذا قطعت بطل الاشتغال بالعلم وتوقف حفظ القرآن وحدث خلل في حياة المسلمين في هذا الإقليم أدى إلى خرابه. وخوف السلطان من مغبة قيام المصريين بثورة فقال : «وربما قامت الرعية وهاجت واضطربت أحوالها وماجت لأن قطع المعايش والأرزاق يفضى إلى قبيح الأفعال وسوء الأخلاق».

ثم ذكر له ما فعله الحكام السابقون من بذل وسخاء في هذا الصدد وأفتى بذلك علماء السلف، وطلب منه في النهاية باسم علماء مصر أن يطلق تلك المرتبات وألا يضيق على الناس في أرزاقهم، وختم العرضحال بذكر بعض الأحاديث الشريفة وطلب للسلطان حسن الختام» (21).

والواقع أن الأوقاف التي جاهد العلماء في الدفاع عنها أمام الحكام كانت أهم موارد الثروة لديهم في العصر المملوكي والعثماني فقد أفادوا منها إما بكونهم مستحقين في بنود خيراتها أو عن طريق أن يصبحوا نظارا عليها لادارتها. فكانت ادارة الأوقاف توكل عادة إلى أولئك الذين يشغلون مناصب هامة وإلى العلماء الذين يتمتعون بسمعة طيبة.

وكان قاضي القضاة يعين الناظر الذي يدير الأراضي وكان النظار عادة يعينون من بين العلماء نظرا لمركزهم المرموق وكان العلماء يستغلون الأراضي الموقوفة وينتفعون بدخلها كما لو كانت أملاكهم الخاصة. وكان من حق ناظر الوقف أن يحصل على أتعاب ضئيلة. ولكنه كان يستطيع أن يوزع الدخول حسب فطنته إذا سمحت بذلك شروط الوقف أو إذا سمحت وكان هو قويا بما فيه الكفاية وعلى الأخص إذا كان المستحقون في الوقف قد ماتوا (22).

ولعله من المفيد أن نعرض أسماء بعض العلماء الذين تولوا النظارة على الأوقاف وعلى الأخص قبل استيلاء محمد علي باشا عليها.

فالشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الأزهر (ت 1227هـ) تولى النظر على الأوقاف الآتية :

- وقف كل من سيدى عمرو بن العاصي وابراهيم سعد الجبال في 19 من شوال سنة 1213هـ (23).
- وقف علي باشا في 26 ذي القعدة 1213هـ (24).
- النظر على حصة بوقف جانبك الدودار ووقف القاضى أبو السعادات 21 ربيع أول سنة 1215هـ (25).
- النظر على وظائف بوقف يشبك الدودار في 26 رجب سنة 1215هـ (26).
- النظر على وقف اسماعيل المعاجنى في 16 جمادى الأولى سنة 1220هـ (27).
- النظر على وقف شقرون المغربى في 26 من ربيع الأولى سنة 1224هـ (28).

---

20) الجبرتى - عجائب الآثار - جـ 1 ص 153.
21) صور كتب بعض علماء مصر إلى سلاطين الدولة العثمانية - مصدر سبق ذكره ص ص 13 - 24.
22) د عفاف لطفى السيد، الحياة الإجتماعية والإقتصادية لعلماء القاهرة في القرن الثامن عشر، مجلة الفكر المعاصر، العدد 51 في مايو 1969 ص 72.
23) انظر سجلات تقارير النظر بدفتر خانة الشهر العقارى بالقاهرة، مسلسلة رقم 21 ماده 112 ص 14.
24) سجلات تقارير النظر، بدفتر خانه الشهر العقارى بالقاهرة مسلسلة 21، مادة 124، ص 15.
25) سجلات تقارير النظر، بدفتر خانه الشهر العقارى بالقاهرة مسلسله 21 مادة 276 ص 36.
26) سجلات تقارير النظر، بدفتر خانه الشهر العقارى بالقاهرة مسلسله 21 مادة 311 ص 39.
27) سجلات تقارير النظر، بدفتر خانه الشهر العقارى بالقاهرة مسلسله 24 مادة 314 ص 27.
28) سجلات تقارير النظر، بدفتر خانه الشهر العقارى بالقاهرة مسلسله 25 مادة 314 ص 35.

والشيخ محمد المهدى (ت 1230هـ) الذي عاصر فترة ما قبل الحملة الفرنسية وما بعدها. تذكر سجلات تقارير النظار أنه تولى النظارة على الأوقاف التالية :

- النظر على وقف نفيسه خاتون بنت حسين جوربجي في ذي القعدة سنة 1205هـ (29).

- النظر على أوقاف السلطان الغورى في أول ذي الحجة سنة 1213هـ (30).

- النظر على وقف السلطان برقوق وولده فرج وأتباعه في 27 من جمادى الآخر سنة 1214هـ (31).

- النظر على أوقاف الإمامين الشافعي والليث في 6 رجب سنة 1224هـ (32).

والشيخ محمد الأمير (ت 1232هـ) تولى النظر على الأوقاف التالية :

- النظر على أوقاف الجامع الأزهر في 13 من رمضان سنة 1220هـ (33).

- النظر على أوقاف الحرمين الشريفين في 16 من جمادى الآخرة سنة 1207هـ (34).

- النظر على وقف القاضي عبد الكريم بن غنام وعلى زاويته المعروفة بالقنامية في 17 من جمادى الأولى سنة 1221هـ (35).

الشيخ محمد أبو الأنوار وفا السادات (ت 1228هـ) تولى النظر على :

- وقف الإمام الحسين والسيدة زينب والسيدة نفيسة في جمادى الآخرة سنة 1202هـ (36).

- النظر على وقف طومان باى في 25 جمادى الآخرة سنة 1214هـ (37).

والشيخ عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ (1168 - 1240هـ) تولى النظر على وقف زاوية الشيخ عبد الكريم المعروفة بزاوية الاحمديه في 24 من محرم سنة 1220هـ (38).

- النظر على وقف السلطان انيال وأحمد بن انيال في 6 من جمادى الآخرة سنة 1207هـ (39).

والشيخ عبد الرحمن السجينى كان يتولى النظر على وقف المدرسة الصالحية (مدرسة الصالح نجم الدين أيوب بالقاهرة) في 10 من رمضان سنة 1208هـ (40).

محمد علي والأوقاف المصريـــة :

كان محمد علي أول حاكم مسلم في مصر يتجرأ على حرمة الأوقاف الإسلامية ويضمها إلى أملاك الدولة، وكانت خطوته الأولى في هذا الطريق أنه عمد في سنة 1809 إلى مساواة أراضي الأوقاف بغيرها من الأراضي في دفع الضريبة لحكومته. وكانت أراضي الأوقاف معفاة من الضرائب، وكان العلماء يتولون ادارتها وشئونها عن طريق تعيينهم نظارا عليها، وكان لهم الحق بموجب شروط الواقفين أن يكون لهم قدر معلوم من ريعها، وهو يريد أن يقضي على زعامتهم التي تستند إلى قوة أوضاعهم الاقتصادية فبدأ يصادر مواردهم الاقتصادية لكي يضعف من شأنهم فيقضي على مركز قوتهم الذي يخشاه.

وكانت خطوة فرض الضرائب على الأوقاف غاية في الخطورة حيث كان الغرض من هذا الإجراء التمهيد لاستيلاء (محمد علي) على هذه الأوقاف. وبذلك ينضب معين هذا المورد الضخم عن العلماء وعن مؤسساتهم العلمية، وفي مقدمتها الأزهر فكم من أوقاف أرصدت وحبست غلتها للصرف على المدارس والمساجد وعلى الأزهر وأروقته وقد بلغت هذه الأوقاف في مصر يومئذ حوالي خمس الأراضي المصرية.

(29) سجلات تقارير النظر، بدفتر خانه الشهر العقارى بالقاهرة مسلسله 19 مادة 20 ص 3.
(30) سجلات تقارير النظر، بدفتر خانه الشهر العقارى بالقاهرة مسلسله 21 مادة 123 ص 15.
(31) سجلات تقارير النظر، بدفتر خانه الشهر العقارى بالقاهرة مسلسله 21 مادة 205 ص 26.
(32) المصدر السابق، مسلسلة 25 مادة 343 ص 38.
(33) المصدر السابق، مسلسلة 22 مادة 26 ص 5.
(34) المصدر السابق، مسلسلة 20 مادة 179 ص 19.
(35) المصدر السابق، مسلسلة 24 مادة 321 ص 53.
(36) المصدر السابق، مسلسلة 19 مادة 186 ص 20.
(37) المصدر السابق، مسلسلة 21 مادة 210 ص 26.
(38) المصدر السابق، مسلسلة 24 مادة 234 ص 43.
(39) المصدر السابق، مسلسلة 20 مادة 146 ص 16.
(40) المصدر السابق، مسلسلة 20 مادة 463 ص 43.

واستتبع تقرير الضريبة على الأوقاف فحص حجج الأوقاف حيث طلب محمد علي هذه الحجج ممن يتولون النظارة على الأوقاف وطلب منهم تجديدها. وأرسل إلى حكام الأقاليم أمرا بالاستيلاء على تلك الأطيان إذا لم يقدم أصحابها إلى الديوان بحجج إنشاء الوقف في ظرف أربعين يوما. وكان معنى ذلك التمهيد للاستيلاء على معظم هذه الأراضي لأن الغالبية العظمى من حججها كانت قد بليت أو فقدت وحتى الموجود منها أصبح لا ينطبق على الوقف لتغير معالم الأرض أو للنزاع في استحقاق الوقف.

أثارت هذه الإجراءات مجتمع العلماء ودفعتهم للنهوض في مواجهة محمد علي الذي أبان لهم بما لا يدع مجالا للشك أنه يريد بإجراءات هذه الانتقاص من حقوقهم فثاروا عليه. ففي يوم 17 من جمادى الأولى 1224هـ حضر كثير من المتظاهرين إلى ساحة الأزهر احتجاجا على اجراءات محمد علي وعطلوا الدراسة في الأزهر. فاجتمع العلماء اجتماعا تمهيديا في ذلك اليوم بالأزهر واستقر رأيهم في اليوم التالي (18 من جمادى الأولى) أن يقفوا أمام الباشا ويرفضوا تنفيذ اجراءاته فإذا أصر على مظالمه فإنهم يكتبون إلى الباب العالي لا تزاله عن كرسيه كما أجلسوه عليه من قبل (41).

ولكن أثبتت حوادث التغييرات الإقتصادية بسرعتها وتلاحقها في مصر على يد محمد علي أنه كان أقوى من العلماء، ولجأ إلى التفريق بينهم ونصرة فريق على فريق. فلم يقف أمامه أحد. ففي سنة 1227هـ (1812م) استولى على أراضي الأوقاف الخيرية كلها وكذلك الأوقاف الأهلية (42). وأصدر محمد علي أمره باحصاء هذه الأراضي بالبلاد فبلغ احصاؤها (ستمائة ألف) (600.000 فدان) (43). فضج أصحاب الأوقاف ونظارها بالشكوى وحضر الكثيرون منهم إلى الجامع الأزهر يستغيثون بالعلماء. فذهب العلماء إلى محمد علي بالقلعة وذكروا له أن هذا الاجراء يترتب عليه خراب المساجد والمدارس. فقال لهم «وأين المساجد العامرة؟» ثم أراد أن يعرف المعارض منهم فقال لهم، بأسلوب ملؤه الارهاب والتهديد: «الذي لم يرض بذلك يرفع يده» فلم يتجاسر أحد منهم على رفع يده وابداء المعارضة. ثم قال لهم: «أنا أعمر المساجد المتخربة وأرتب لها ما يكفيها» (44).

والذي يجب أن نلاحظه هنا أن محمد علي بعبارته السالفة أوضح لهم أنه سيتولى هو شئون النظارة على الأوقاف وقبض ريعها والصرف على المساجد والمدارس والأزهر أي أنه سيجعل لهذه المساجد والمدارس ميزانية ابتداء من الآن فصاعدا وهذا ما حدث. فقد رتب للعلماء معاشات ضئيلة ولاشك أن هذه المعاشات كان لا ينالها إلا من كان مواليا لسياسة محمد علي وبذلك أخذت صفة المنح لا الحقوق، وأصبحت عرضة لأهواء الحكام وتحكمهم.

ولاشك أن هذه الإجراءات كانت بمثابة ضربة معول في أساسات الأزهر وغيره من المدارس القديمة في مصر. وفي مركز العلماء الاستقلالي عن السلطة. وقد زلزلت هذه الاجراءات مجتمع العلماء القديم زلزالا شديدا. فلم يتمكنوا من الوقوف بمؤسساتهم العلمية التقليدية أمام المدارس الحديثة التي أنشأها محمد علي. فقد أنشأ محمد علي تلك المدارس بعيدا عن الأزهر وهيأ لها من الأموال الكثيرة والمباني الفاخرة الحديثة وأخذ يقتر للأزهر ما شاء له هواه، وكانت هذه الاجراءات مثار ألم شديد لدى علماء الأزهر. ولقد عبر الشيخ حسن العطار (45) عن هذه المحن التي أصابت مجتمع العلماء بسبب مصادرة محمد علي لأوقاف المؤسسات العلمية والدينية في شعر عند رثائه لأستاذه الشيخ محمد الدسوقي (46) ملوحا بما حل بجماعة

(41) الجبرتي، عجائب الآثار ج 4 ص 101، عبد الرحمن الرافعي، عصر محمد علي ص 91.

(42) د أمين مصطفى عفيفي عبد الله. تاريخ مصر الاقتصادى والمالى في العصر الحديث، ص 83.

(43) أي أنها كانت تزيد على خمس جميع الأراضي المصرية لأن احصاء جميع الأراضي سنة 1813 كانت فيه أراضي مصر (2,500,000 فدان).

(44) الجبرتي، عجائب الآثار ج 4 ص 151.

(45) حسن العطار من كبار علماء الأزهر أيام محمد علي، وتقلد منصب مشيخة الأزهر في الفترة من 1246هـ - 1250هـ حيث وافاه الأجل في هذه السنة.

(46) توفي الشيخ محمد بن أحمد بن عرفه الدسوقي سنة 1230هـ وكان من كبار العلماء متدينا ذا خلق حسن ومن الزاهدين في الدنيا. ومات فقيرا حتى أن الذى كلف جنازته ودفنه كبير التجار السيد محمد المحروقي (الجبرتي، عجائب الآثار، ج 4 ص 247).

العلماء من نكبات فرقت جمعهم وأصابتهم بخطوب الزمان بعد أن كان روض عيشهم يانعا فقال في هذا المعنى :

أحاديث دهر قد ألم فأوجعـــا
وحل بنادى جمعنا فتصدعـــا
لقد صال فينا البين أعظم صولـــه
فلم يخل من وقع المصيبة موضعـــا
وجاءت خطوب الدهر تترى فكلمـا
مضى حادث يعقبه آخر مسرعـــا
وحل بنا ما لم نكن في حسابـــه
من الدهر ما أبلى العيون وأفزعـــا
خطوب زمان لو تمادى أقلهـــا
بشامخ رضوى أو بثير تضعضعـــا
لقد كان روض العيش بالأمن يانعا
فأضحى هشيما ظله متقشعا (47)

وفي صفحات عجائب الآثار لعبد الرحمن الجبرتي صور مؤسفة لما وصل إليه وضع علماء الأزهر عقب ضربهم اقتصاديا حيث تردت أوضاعهم الإقتصادية إلى الحضيض الأمر الذي جعلهم يشاركون الجهال في المآتم والولائم والأفراح ويتكالبون عليها إلى غير ذلك من المظاهر التي لا تليق بالعلماء (48).

حالة الأزهر بعد مصادرة أوقافـــه :

زار المستشرق الانجليزى ادوارد وليم لين (49) القاهرة فيما بين سنة 1825م وسنة 1848م واتصل بكثير من علماء الأزهر يومئذ ووصف لنا طرفا من حالة الأزهر بين الإقتصادية في ذلك العصر فذكر أن معظم طلبة الأزهر الغرباء الذين يسكنون الأروقة توزع عليهم جراية يومية من الطعام تعد لهم من اعتمادات مستمدة من ايراد العقارات الموقوفة عليهم. والعادة أن يتناول طلبة القاهرة وما جاورها مثل هذا الراتب إلا أنهم لا يتمتعون بذلك طويلا. لأن محمد علي استولى على جميع الأراضي الزراعية الموقوفة على المساجد وفقد الأزهر أكبر جزء مما وقف عليه ولا تنفق الحكومة شيئا غير نفقات الصيانة اللازمة وأجور المستخدمين الرئيسيين ولا يتناول المدرسون أجرا وليس لهم وسيلة منظمة لكسب معيشتهم غير التدريس في المنازل ونسخ الكتب إلا إذا ورثوا ملكا أو كان لهم أقارب يعولونهم. ويحترف بعضهم التجارة.

وقد نقص عدد الطلبة الذين لا رواق لهم نقصا كبيرا منذ الاستيلاء على أوقاف الأزهر حتى بلغ عددهم في ذلك التاريخ على الأرجح 1500 طالب مبصر. ومن العميان حوالي 300 طالب.

وذكر لين بأن الدراسة بالأزهر كانت أكثر ازدهارا قبل قدوم الحملة الفرنسية مما صارت إليه في عصر محمد علي. فقد كان العلماء في بحبوحة من العيش فقد كان يكفي أن يقوم الشيخ المتخرج من الأزهر بالتدريس لولدين من أولاد الفلاحين المتوسطي الثروة ليعيش في بحبوحة من العيش. أما الآن فقد انحط شأن هؤلاء الشيوخ حتى يصعب عليهم الحصول على معاشهم إن لم تكن مواهبهم منقطعة النظير (50).

وذكر الأستاذ الإمام محمد عبده أن ما أخذه محمد علي من الأوقاف التي كانت للمساجد كان شيئا كثيرا وأبدله بشيء من النقد يسمى (فائض رزنامه) لا يساوى جزءا من الألف من ايرادها وأخذ من أوقاف الجامع الأزهر ما لو بقي له (اليوم سنة 1902) لكانت غلته لا تقل عن نصف مليون جنيه في السنة. وقرر له بذلك ما يساوى نحو

(47) المصدر السابق. ج 4 ص ص 247 ـ 248.

(48) انظر الجبرتي. ج 4 ص 262.

(49) ادوارد وليم لين من أعظم المستشرقين الانجليز. زار مصر لأول مرة سنة 1825م ومكث بها ثلاث سنين ثم زارها للمرة الثانية سنة 1833 وأقام بها أيضا ثلاث سنين. وتظاهر الإسلام وتسمى باسم منصور افندي. ودرس في الجامع الأزهر على بعض العلماء أمثال حسن العطار والشيخ ابراهيم الدسوقي وغيرهما من العلماء. وزار مصر مرة ثالثة سنة 1842 ومكث بها سبع سنين وترجم ألف ليلة وليلة وأصدر قاموسه الشهير للعربية والانجليزية. ووضع كتابه عن أحوال المصريين وعاداتهم وهو الكتاب الذي اعتمدنا عليه فيما نقلنا. انظر علي مبارك الخطط. ج 11 ص 10 ـ 13 ومحمد عبد الله عنان. تاريخ الأزهر ص ص 241 ـ 242.

(50) المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم في القرن 19. ص 146 من الترجمة العربية للأستاذ عدلي طاهر نور. القاهرة سنة 1950.

أربعة آلاف جنيه في السنة، وأخذ يستميل بعض العلماء بالخلع، أو يدعوهم إلى موائده وأفاضل العلماء كانوا في سخط ماتوا عليه (51).

موقف الاستعمار من الأوقاف الإسلامية :

ظل الأزهر يؤدى دوره في الحفاظ على العلوم الإسلامية وتطويرها بفضل دعم نظام الوقف الإسلامي له على مدى تاريخه الطويل، وعند ما بدأت موجات الإستعمار تترى على الأوطان الإسلامية أدرك الغرب ما لنظام الوقف من قوة في دعم المؤسسات العلمية الإسلامية في استمرارية الحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية، فحاول الإستعمار جاهدا الغاء الأوقاف الإسلامية في كل مكان من البلاد الإسلامية والبلاد التي بها أقليات مسلمة، لكي يضعف قاعدة المؤسسات العلمية من الناحية الإقتصادية.

ورمق الإستعمار الأزهر بعين ملؤها الريبة والخوف فوجه إليه سهامه للقضاء عليه ففي مؤتمر المبشرين العام الذي عقد في القاهرة سنة 1323هـ (1906م) لجميع أرساليات التبشير البروتسانتية في العالم برئاسة القس زويمر) وصف أحد أعضاء المؤتمر ما للجامع الأزهر من النفوذ وإقبال الألوف عليه من الشبان المسلمين من كل أقطار العالم الإسلامي وتساءل عن سر نفوذ هذا الجامع منذ ألف سنة إلى الآن، ثم قال : «إن السنيين من المسلمين رسخ في أذهانهم أن تعليم العربية في الجامع الأزهر متقن ومتين أكثر من غيره، والمتخرجون في الأزهر معروفون بسعة الإطلاع على علوم الدين، وباب التعليم مفتوح في الأزهر لكل مشايخ الدنيا».

وأشار إلى أهمية (أوقاف الأزهر) التي تمكنه من الصرف على طلابه وأساتذته وطالب بضرورة أن يعمل الغرب على إنشاء جامعة نصرانية عالمية في مصر تنافس الأزهر وتقوم الكنيسة بنفقاتها فقال :

«خصوصا وأن أوقاف الأزهر الكثيرة تساعد على التعليم فيه مجانا لأن في استطاعته أن ينفق على 250 أستاذا، ثم تساءل عما إذا كان الأزهر يهدد كنيسة المسيح بالخطر وعرض اقتراحا يريد به انشاء مدرسة جامعة نصرانية تقوم الكنيسة بنفقاتها وتكون مشتركة بين كل الكنائس المسيحية في الدنيا على اختلاف مذاهبها لتتمكن من مزاحمة الأزهر بسهولة وتتكفل هذه المدرسة الجامعة باتقان تعليم اللغة العربية» (52).

وينتقد المبشر الأمريكي زويمر (53) بعض الحكومات الغربية المسيحية التي تعتنى بتنظيم أوقاف المسلمين، ويرى ضرورة القضاء على تلك الأوقاف لأن لها موارد ضخمة يمكن بها عمارة المساجد والمدارس وتسهيل العبادة وتعزيز قوة الإسلام الدينية (54).

ولقد واصل الغرب أعماله التخريبية من أجل أضعاف الأزهر وواتته الفرصة يوم أن كان الإستعمار الإنجليزي قابضا على صولجانه في مصر ويده من حديد في الفترة من سنة 1882 إلى سنة 1952، فقد غدا الأزهر في هذه الفترة مؤسسة تصرف عليها الدولة من ميزانيتها وتقتر له ما شاء لها غرض الإستعمار وهواه وبذلك ضربته في أهم ركيزة له وهي القاعدة الإقتصادية فأضعفت بذلك من مقدرته التعليمية، ومقدرته على التطور الذي يقتضيه العصر. فتأخر عن مجاراة غيره من الجامعات المدنية في التنظيم وسرعة التطور المطلوبة في جو تتقدم فيه الوسائل العلمية في الجامعات العلمانية بسرعة مذهلة.

---

(51) مجلة المنار، عدد 2 يونيو سنة 1902 من مقال للأستاذ الإمام محمد عبده عن المظالم التي أصابت الشعب المصري في عصر محمد علي.

(52) الغارة على العالم الإسلامي، تلخيص لبعض مؤتمرات المبشرين بقلم شاتلييه، ترجمة محب الدين الخطيب، ص 23، 24، الطبعة الثانية 1383هـ المطبعة السلفية بالقاهرة.

(53) صمويل زويمر هو قس امريكي من أصل انجليزي عمل في مجال الاستشراق والتبشير في منطقة الشرق الأوسط لفترة طويلة، وهو منشىء مجلة العالم الاسلامي بالانجليزية، وعقد كثير من مؤتمرات التبشير تحت رعايته، وعمل فترة في مصر وأخرى في البحرين وهو أول من ابتكر فكرة مؤتمر عام يجمع ارساليات التبشير البروتستانتية للتفكير في نشر الانجيل بين المسلمين وعقد أول مؤتمر بالقاهرة سنة 1906 تحت رئاسته، وبلغ عدد مندوبي ارساليات التبشير في هذا المؤتمر 62 مندوبا مابين رجال ونساء.

انظر الغارة على العالم الإسلامي، مرجع سبق ذكره، ص 20.

(54) شكيب ارسلان من تعليقات له على كتاب حاضر العالم الإسلامي، نقلا من كتاب زويمر بعنوان «الإسلام ماضيه وحاضره ومستقبله ج 1 ص 281

ملحق الوثائق

وثيقة رقم (1) :

وقفية الحاكم بأمر الله الفاطمى على الجامع الأزهر والجامع الحاكمى وجامعة لمقسى ودار العلم بالقاهرة.

بتاريخ رمضان 400هـ (1)

«هذا كتاب أشهد قاضى القضاة مالك بن سعيد بن مالك الفارقى، على جميع ما نسب إليه مما ذكر ووصف فيه، من حضر من الشهود في مجلس حكمه وقضائه بفسطاط مصر في شهر رمضان سنة أربعمائة...

«أشهدهم - وهو يومئذ قاضي عبد الله ووليه المنصور أبى علي الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ابن الإمام العزيز بالله، صلوات الله عليهما، على القاهرة المصرية ومصر والأسكندرية والحرمين حرسهما الله، وأجناد الشام والرقة والرحبة ونواحى المغرب وسائر أعمالهن، وما فتحه الله ويفتحه لأمير المؤمنين من بلاد الشرق والغرب - بمحضر رجل متكلم...

«إنه صحت عنده معرفة المواضع الكاملة والحصص الشائعة، التي يذكر جميع ذلك ويحدد في هذا الكتاب، وأنها كانت من أملاك الحاكم إلى أن حبسها على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة، والجامع براشدة والجامع بالمقسى اللذين أمر بإنشائهما وتأسيس بنائهما، وعلى دار الحكمة بالقاهرة المحروسة التي وقفها والكتب التي فيها قبل تاريخ هذا الكتاب...

«منها ما يخص الجامع الأزهر، والجامع براشده ودار الحكمة بالقاهرة المحروسة مشاعا جميع ذلك غير مقسوم، ومنها ما يخص الجامع بالمقسى على شرائط يجري ذكرها...

«فمن ذلك ما تصدق به على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة، والجامع براشده ودار الحكمة بالقاهرة المحروسة، جميع الدار المعروفة بدار الضرب، وجميع القيسارية المعروفة بقيسارية الصوف، وجميع الدار المعروفة بدار الخرق الجديدة الذي كله بفسطاط مصر...

«ومن ذلك ما تصدق به على جامع المقسى ، جميع أربعة الحوانيت والمنازل التي علوها والمخزنين، الذي ذلك كله بفسطاط مصر بالراية في جانب الغرب من الدار المعروفة كانت بدار الخرق، وهاتان الداران المعروفتان بدار الخرق في الموضع المعروف بحمام النار...

«ومن ذلك : جميع الحصص الشائعة من أربعة الحوانيت المتلاصقة التي بفسطاط مصر بالراية أيضا، بالموضع المعروف بحمام الفاوى، وتعرف هذه الحوانيت بحصص الفيسى... بحدود ذلك كله وأرضه وبنائه وسفله وعلوه وغرفه ومرتفقاته وحوانيته وساحاته وطرقه وممراته ومجارى مياهه، وكل حق هو له داخل فيه وخارج عنه...

«وجعل ذلك كله صدقة موقوفة محرمة محبسة بتة بتلة، لا يجوز بيعها ولا هبتها ولا تمليكها، باقية على شروطها جارية على سبلها المعروفة في هذا الكتاب لا يوهنها تقادم السنين، ولا تغير بحدوث حدث، ولا يستثنى فيها ولا يتأول، - ولا يستفتى بتجدد تحبسها مدى الأوقات، وتستمر شروطها على اختلاف الحالات حتى يرث الله الأرض والسموات...

على أن يؤجر ذلك في كل عصر من ينتهى إليه ولايتها، ويرجع إليه أمرها - بعد مراقبة الله واجتلاب ما يوفر منفعتها من أشهارها - عند ذوى الرغبة في إجارة أمثالها فيبتدأ من ذلك بعمارة ذلك، على حسب المصلحة وبقاء العين ومرمتة، من غير إجحاف بما حبس ذلك عليه، وما فضل كان مقسوما على ستين سهما...

«فمن ذلك للجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة المذكور في هذا الإشهاد، الخمس والثمن ونصف السدس ونصف

---

(1) عن تقى الدين المقريزى، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، طبعة دار التحرير بالقاهرة، 1967/1968 ج 3 ص 157 - 159.

التسع... يصرف ذلك فيما فيه عمارة له ومصلحة. وهو من العين المعزى الوازن ألف دينار واحدة وسبعة وستون دينارا ونصف دينار وثمن دينار.

«من ذلك للخطيب بهذا الجامع أربعة وثمانون دينارا ومن ذلك الثمن ألف ذراع حصر عبدانية تكون عدة له بحيث لا ينقطع من حصره عند الحاجة إلى ذلك. ومن ذلك الثمن ثلاثة عشر ألف ذراع حصر مظفورة الكسوة هذا الجامع في كل سنة عند الحاجة إليها. مائة دينار واحدة وثمانية دنانير. ومن ذلك لثمن ثلاثة قناطير زجاج وفراجها اثنا عشر دينارا ونصف وربع دينار. ومن ذلك لثمن عود هندى للبخور في شهر رمضان وأيام الجمع. مع ثمن الكافور والمسك وأجرة الصانع. خمسة عشر دينارا ومن ذلك لنصف قنطار شمع بالفلفلى سبعة دنانير...

«ومن ذلك للكنسى هذا الجامع ونقل التراب، وخياطة الحصر وثمن الخيط وأجرة الخياطة. خمسة دنانير. ومن ذلك لثمن مشاقة لسرج القناديل. عن خمسة وعشرين رطلا بالرطل الفلفلى. دينار واحد. ومن ذلك لثمن فحم للبخور، عن قنطار واحد بالفلفلى. نصف دينار. ومن ذلك ما قدره لمؤنة النحاس والسلاسل والتنانير والقباب التي فوق سطح الجامع أربعة وعشرون دينارا.

«ومن ذلك لثمن سلب ليف وأربعة احبل وست دلاء ادم نصف دينار.

ومن ذلك لثمن قنطارين خرقا لمسح القناديل نصف دينار. ومن ذلك لثمن عشر قفاف للخدمة وعشرة ارطال قنب لتعليق القناديل. ولثمن مائتي مكنسة للكنس هذا الجامع. دينار واحد وربع دينار. ومن ذلك لثمن أزيار تنصب على المصنع ويصب فيها الماء، مع أجرة حملها. ثلاثة دنانير. ومن ذلك لثمن زيت وقود هذا الجامع. راتب السنة ألف رطل ومائتا رطل مع أجرة الحمل. سبعة وثلاثون دينارا ونصف.

«ومن ذلك لأرزاق المصلين (يعنى الأئمة) وهم ثلاثة. وأربعة قومة وخمسة عشر مؤذنا. خمسمائة دينار وستة وخمسون دينارا ونصف منها للمصلين لكل رجل منهم دينارا وثلثا دينار وثمن دينار في كل شهر من شهور السنة. والمؤذنون في كل سنة أربعة وعشرون دينارا. ومن ذلك لكنس المصنع بهذا الجامع ونقل ما يخرج منه من الطين والوسخ دينار واحد. ومن ذلك لمرمة ما يحتاج إليه في هذا الجامع في سطحه وأترابه وحياطته وغير ذلك مما قدر لكل سنة ستون دينارا.

«ومن ذلك لثمن مائة وثمانين حمل تبن ونصف حمل جارية. لعلف رأسى بقر للمصنع الذى لهذا الجامع. ثمانية دنانير ونصف وثلث دينار. ومن ذلك للتبن لمخزن يوضع فيه بالقاهرة أربعة دنانير.

«ومن ذلك لثمن فدانين قرط. لتربيع رأسي البقر المذكورين في السنة. سبعة دنانير. ومن ذلك لأجرة متولى العلف وأجرة لسقاء والحبال والقواديس وما يجرى مجرى ذلك. خمسة عشر دينار ونصف. ومن ذلك لأجرة قيم الميضأة ان عملت بهذا الجامع اثنا عشر دينارا».

وثيقة رقــــم (2) :

اشهاد بوقف على ترميم المصاحف بالجامع الأزهر في 1172هـ (2).

لدى مولانا قائم مقام بحضرة كل من فخر المدرسين العظام عمدة المحققين الفخام كمال البلغاذوى الافهام أوحد الأفاضل العلماء الكرام... (القاب...) مولانا الشيخ (محمد الحفناوى) الشافعى من أعيان أهل الإفادة والافتى والتدريس بالجامع الأزهر والشيخ (عمر الطحلاوى) المالكى والشيخ الإمام.. (عبد الرؤوف السجينى) الشافعى وفخر العلما الأفاضل مولانا الشيخ يوسف الحفناوى الشافعى... والشيخ زين الدين قائم المغربى المالكى شيخ

---

2) سجلات الباب العالى. بدفتر خانة الشهر العقارى بالقاهرة. مسلسلة 254 مادة 532 ص 295.

المذكورة بتصرف ولا شهادة تصرف ولا باستحقاق ولا خراج ولا يقبض خراج ولا بزراعة ولا بوضع يد ولا بغير ذلك بوجه من الوجوه وأن الحق والإستحقاق في كامل الرزقة المذكورة لجهة وقف الجامع الأزهر المرمى إليه أعلاه ولناظره الأمير محمد بيك الموكل المشار إليه أعلاه يقبض خراج الرزقة المذكورة ممن هو في عهدته كائنا من كان وصرف خراج ذلك كل سنة على مهمات الجامع الأزهر المومى إليه أعلاه وفي مصاريفه اللازمة على ذلك بالوجه الشرعي. في ثامن شهر ربيع الثاني سنة اثنين وسبعين ومائة وألف.

وثيقة رقـــم (3) :

* اشهاد بوقف باسم عمر مكرم على طلبة الأزهر 1224 هـ (3).

بحضرة كل من الشيخ الإمام العالم العلامة الهمام... خليل الصفتي المالكي من أعيان أهل العلم بالجامع الأزهر وغيره... أشهد على نفسه حضرة سيدنا ومولانا... عمر أفندى نقيب السادة الاشراف بالديار المصرية حالا شهوده الإشهاد الشرعي في كمال صحته... وسلامته وطواعيته ورغبته في الخير وإرادته له وجواز الإشهاد عليه شرعا أنه وقف وحبس... وأكد وتصدق لله سبحانه وتعالى بجميع كامل المكان الكاين بمصر المحروسة بخط طولون بحارة المغاربة داخل درب العطارين المجاور لمكان الحاج طاهر ولمكان الحاج حسين من ملك مولانا الواقف المشار إليه أعلاه.. وقف هذا من تاريخه ادناه على فخر الفضلا العظام السيد الشريف أحمد ابن المرحوم الشيخ حسين الشيتى الفوى من أعيان طلبة العلم بالجامع الأزهر المشار إليه أعلاه ينتفع بذلك سكنا واستغلالا... أبدا ماعاش وايما مابقى حال حياته ومن بعده على أولاده الذكور من طلبة رواق السادة المغاربة بالجامع الأزهر حالا... والشيخ أحمد سالم النفراوى المالكى عين أعيان أهل الإفادة والتدريس بالجامع الأزهر وغيرهم.

وبعد أن صدر الخصام والنزاع والتكلم والمقال والجدال من الشيخ العمدة الضابط زين الدين خليل المباشر بأوقاف الجامع الأزهر بمصر المحروسة حالا الوكيل الشرعى عن قدوة الأمر الكرام الأمير محمد بيك مير اللوا بمصر حالا والناظر الشرعى يومئذ على أوقاف الجامع الأزهر بموجب تقريره في ذلك المخلد تحت يده بالطريق الشرعى الثابت توكيله عنه في شأن ما سيذكر فيه لدى مولانا الحاكم المومى إليه أعلاه بشهادة من ذكر اعلاه ثبوتا شرعيا وبين الشيخ الإمام العمدة الفاضل الهمام زين الدين (عبد الرحيم السلمونى) شيخ الخدمة بمقام الإمام الأعظم أبى عبد الله محمد بن ادريس الشافعى... بسبب وضع يد الشيخ عبد الرحيم السلمونى المذكور على الرزقة الطانية بأراضي ناحية المنصورية بولاية الجيزة التي عبرتها (عشرة أفدنة) المرصدة على مرمة المصاحف بخلوة الخطيب بالجامع الأزهر بجوار المنبر وأنه فيما قبل تاريخه من نحو مدة سابقة على تاريخه بقبض الشيخ عبد الرحيم السلمونى المرقوم خراج ذلك وقدره في كل سنة ثلاثة آلاف نصف وثلاثمائة نصف وأن ذلك بوقف الجامع الأزهر المذكور وأجاب الشيخ عبد الرحيم السلمونى المذكور بأن مرمة المصاحف بالخلوة المذكورة في تصرفه وأنه كان يقبض خراج الرزقة المذكورة في كل سنة ثلاثمائة نصف فضة بغير زايد على ذلك ويصرف ما بقى في كل سنة على مصاريف الخطوط المرقومة وطال بلينهما الخصام والنزاع بسبب ذلك واستقر الحال بينهما في ذلك على أن اصطلحا صلحا ثابتا على ما يأتي شرحه وبيانه فيه وهو أنه أشهد على نفسه الشيخ زين الدين عبد الرحيم السلمونى وهو بكامل الأوقاف المعتبرة شرعا أنه صدق على أنه لاحق له ولا استحقاق في كامل الرزقة

3) سجلات الباب العالى بدفتر خانة الشهر العقارى بالقاهرة، مسلسلة 341 مادة 163 ص 74.

العلم بالجامع الأزهر عليهم طبقة بعد طبقة وجيلا بعد جيل إلى حين انقراضهم فإذا ما انقرضوا هم وأولادهم وذويهم ونسلهم الذكور طلبة العلم بالجامع الأزهر المذكور ولم يبق منهم أحد يكون ذلك وقفا مصروفا ريعه على السادة المجاورين من طلبة العلم القاطنين برواق الفوية بالجامع الأزهر ثم من بعدهم لمن يكون قاطنا من أهل العلم بالرواق المذكور... وأن النظر على ذلك من تاريخه للسيد أحمد الفوى الموقوف عليه المذكور حال حياته ثم من بعده يكون النظر على ذلك للإرشاد من أولاده الذكور أهل العلم المذكورين ثم من بعدهم للارشد من الموقوف عليهم...

وقد شرط لنفسه الواقف المشار إليه أعلاه في وقفه هذا الإدخال والإخراج والإعطاء والحرمان والزيادة والنقصان والتعديل والتبديل شروطا شرعية باعترافه بذلك لشهوده ومن ذكر أعلاه في يوم تاريخه الإعتراف الشرعي وسلم الواقف المذكور وقفه هذا المتولى شرعى أقامه عليه ليتم أمر التسجيل فتسلمه فارغا غير مشغول عنما يمنع صحة التسلم شرعا تسلما شرعيا فقدم هذا الواقف ولزم ونفذ حكمه وحسم وصار وقفا شرعا قبولا بالطريق الشرعي وثبت حكم متصلا تحريرا في حادى عشر شهر جماد أول سنة أربع وعشرين ومائتين وألف.

وثيقة رقم (4) :

اشهاد وتغيير وقف على رواق الصعايدة بالأزهر 1289هـ.

بعد البسملة والحمد له وذكر الشهود قال :

«أشهد على نفسه السيد الشريف حنفى مكرم المالكى الأزهرى ابن المرحوم السيد الشريف حسين الشهير بالطويل ابن المرحوم السيد الشريف محمد مكرم الكبير الشهير بالطويل كان أخ المغفور له المرحوم السيد الشريف عمر افندى مكرم نقيب السادة الاشراف بمصر كان تغمده الله بالرحمة والرضوان أمين وهو الواقف لما يأتى ذكره فيه والناظر الشرعي يومئذ على وقفه المذكور.

وبعد أن ذكر الوقف وحدوده وهو : جميع الحصة التي قدرها ستة قراريط... الخ في كامل بنا الوكالة المعروفة بخان الحجر والآن تعرف بوكالة الدنوشرى الكاينة بمصر المحروسة بخط باب الزهومة بالقرب من مدرسة الأشرف برسباى بالقرب من سوق الصاغة»... ثم قال «وقف هذا من تاريخه على نفسه حال حياته انتفاعا وسكنا واستغلالا بساير وجوه الإنتفاعات الشرعية. ثم بعد انتقاله إلى دار الكرامة ومحل النعيم يكون وقفا على ما يبين فيه :

فالنصف من ذلك يكون وقفا على السيد لشريف محمد بيومى مكرم المالكى الأزهرى كان ابن المرحوم السيد الشريف صالح افندى مكرم ابن المرحوم السيد حسين الشهير بالطويل المذكور أعلاه والمصونة الست فطومة الهلالية زوجة السيد/ محمد بيومى مكرم الصغير المذكور بنت المرحوم الحاج محمد الهلالى ينتفعان بذلك سوية كانتفاع المشهد المذكور مدة حياتهما ومن بعدهما لأولادهما طبقة بعد طبقة ونسلا بعد نسل وجيلا بعد جيل الطبقة العليا تحجز الطبقة السفلى. فإذا انقرضت ذريتهم يكون ذلك جميعه وقفا على السادة المجاورين برواق السادة الصعايدة (بالجامع الأزهر) بحيث يقدم في ذلك الأحوج فالأحوج بحسب ما يراه الناظر على الرواق المذكور فإن تعذر الصرف والعياذ بالله صرف ريعه على الفقراء والمساكين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

والنصف الثاني باقي ذلك يكون وقفا على زوجة المشهد المذكور وهي المصونة الست زينب خانون بنت المرحوم الحاج محمد الهلالى المذكور أعلاه تنتفع بذلك كانتفاع زوجها مدة حياتها ثم من بعدها يكون منضما وملحقا بالنصف الأول المذكور ويكون حكمه كحكمه وشرطه كشرطه في الحال والمآل والتعذر والإمكان أبد

4) سجلات الباب العالى. دفتر خانة الشهر العقارى بالقاهرة. مسلسلة رقم 19 مادة 12 صفحة 19 خاص بسجلات الوقفيات.

الابدين ودهر الداهرين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

تحريرا في تاسع عشرين شهر الحجة سنة تسع وثمانين ومائتين وألف.

وثيقة رقـــم (5) :

الست زينب هانم كريمة المرحوم محمد علي باشا والي مصر كان المؤرخة في 24 شوال سنة 1277هـ المحررة في محكمة مصر الشرعية نمرة 13 وقدرها 1907 فدانا الكاينة بنواحي مديرية المنصورة.

من جملة ما بها من الشروط بالنسبة للجامع الأزهر وعلمائه الحنفية ما نصه :

«فإذا توفى سعادة يوسف كامل باشا المشار إليه من غير ذرية أو كانوا وانقرضوا يصرف الثلث من ربع الحصة التي قدرها السدس أربعة قراريط المذكورة في مصالح ومهمات وإقامة شعاير الجامع الأزهر الكاين بمصر المحروسة والثلثان باقي ربع الحصة المذكورة يصرفان في ثمن خبز قرصة يلحق بجراية الجامع الأزهر المشار إليه ويفوق على السادة العلماء الحنفية المدرسين به فإن تعذر الصرف للجهتين المذكورتين صرف ربع ذلك للفقراء والمساكين أينما كانوا وحيثما وجدوا (5).

وثيقة رقـــم (6) :

مسجلة بديوان الأوقاف في 20 حصة 1302هـ ذي القعدة (نمرة 58 جزء 12) 401.5 فدان على مساجد ثلاثة ومدرسة ومضيفة بجهة بلاد الواقف بالمنيا وعلى رواقي الصعايدة والفشنية بالأزهر وسجلت بمحكمة المنيا ـ ناظرة الحسبى شيخ الأزهر.

وقد شرط أن يصرف على جهة رواق الصعايدة بالأزهر وخبزا برانقيا 325 رغيفا وزن كل رغيف نصف رطل أعنى اثنين وسبعين درهما على أنه للمدرس ثلاثة أرغفة وللمجاور رغيفين.

وما يصرف على جهة رواق الفشنية مائة وتسعة وثلاثون رغيفا كل يوم (وهي مبينة بالتوزيع التام على أهل الرواق) (6).

وثيقـة رقـــم (7) :

ملخص وقفية كل من المرحوم حسن شاسرى وأخيه رستم افندى ســـــرى.

وقف المرحوم حسن باشا سرى 400 فدان من اطيان عشورية بمديرية القليوبية بناحية منية كنانة ونوى وحسب شروط الواقف المذكور فإن الحصة التي قدرها نصف السدس قيراطان اثنان من ذلك تكون وقفا مصروفا ربعه على ثمن خبز قرصة يشترى ويفرق على السادة المجاورين المقيمين برواق الأتراك. ورواق معمر ورواق الصعايدة بالجامع الأزهر نصفها لرواق الأتراك والنصف الباقى للمجاورين برواقى معمر والصعايدة بالسوية بينهم (7).

وثيقة رقـــم (8) :

ملخص وقفية حضرة أحمد بك الشريف من ناحية ابيار بمديرية الغربيـــــــة.

أشهد على نفسه الأمير أحمد بك الشريف الكبير بناحية ابيار بمركز بسيون ابن المرحوم السيد محمد الشريف أنه وقف وحبس وسبل وتصدق لله سبحانه وتعالى بجميع ملك كامل الاطيان الابعادية العشورية الرزق الاحباسية التي بالأمال إلى ما شاء الله تعالى البالغ قدرها

---

5) انظر سجل /7 ص 29 من سجلات الأزهر بدار الوثائق القومية.
6) انظر : سجل /7 ص 66 ـ 68 سابق الذكر.
7) انظر سجل رقم 7 من سجلات الأزهر بدار وثائق القومية بالقاهرة. وبه بعض ملخصات الأوقاف الأزهر ص 95.

286 فدانا الكاينة بأراضي ناحية معنية بمركز الدلنجات بحيرة وقفا صحيحا شرعيا وحبسا صريحا مرعيا. انشأ الواقف وقفه هذا من تاريخه على نفسه مدة حياته ينتفع بذلك وبما شاء منه بسائر وجوه الإنتفاعات الوقفية الشرعية أبد ما عاش ثم من بعده يكون وقف على المذكور من أولاده واخواه بالسوية ثم لذريتهم من بعدهم للذكر مثل حظ الانثيين.

وشرط الواقف شروطا منها أن يصرف من ريع الوقف المذكور في كل سنة من تاريخه مائة اردب قمحا يصنع خبزا ويفرق على لمشتغلين بالعلم الشريف بالجامع الأزهر من مديريتي الغربية والبحيرة بمعرفة حضرة شيخ الجامع الأزهر وستون بينتو أجر ومصاريف على القمح المذكور حتى يصير خبزا وتحرر بذلك حجة شرعية من هذه لمحكمة مؤرخة في تاريخين ثانيهما في 3 محرم 1308هـ (18 اغسطس 1890) ومسجلة بنمرة 80 (8).

ملاحظة (لم يذكر بالمسجل اسم المحكمة التي سجل الوقف بها ولامكانها).

وثيقة رقــــم (9) :

ملخص لصورة وقفية الحاج موسى على عمدة الفقاعى بمديرية المنيا على رواق الصعايدة بالأزهـــــــــــر (9).

بشهادة حسين المنفلوطى مفتى المنيا وغيره بالمجلس المنعقد بمنزل الواقف أشهد على نفسه وهو في كامل صحته وطواعيته واختياره ورغبته في الخير وارادته له أنه وقف وحبس وسبل وأبد وأكد وخلد وتصدق لله سبحانه وتعالى بجميع الأطيان السواد الخراجية الكاينة بناحية كفر الفقاعى بمديرية المنيا البالغ قدرها 100 فدان مائة فدان الاتى بيان حدودها ومساحتها ومسطحاتها حسب قائمة التحديد الآتى ذكرها وقفا خيريا على رواق الصعايدة بالجامع الأزهر وليس هناك مانع لا يقافها لخلوها من الرهن والدين وقفه هذا على علماء ومجاورى رواق السادة الصعايدة بالجامع الأزهر يصرف ريعه على مايبين فيه، وذلك بأن يصرف من ريع تلك الاطيان على من سيذكر خبزا برانقيا قدره مائتان وعشرون رغيفا كل يوم زنة كل رغيف منها نصف رطل مصرى أعنى اثنين وسبعين درهما يصرف ذلك كل يوم على عدد مخصوص من مدرسى تلك الجهة على حسب ما يأتى بيانه وعلى عدد مخصوص من مجاورى تلك الجهة على حسبما يتفق في التوزيع حسبما يأتى وللنقيب والوكيل عن الناظر قدر معلوم ولشيخ الرواق... الخ.

فإن تعذر الصرف والعياذ بالله تعالى لهذه الجهة يصرف ما كان مرتبا لها لجهة أخرى من جهات الجامع الأزهر بحسب ما يراه الناظر على الوقف المذكور حين ذاك فإن تعذر الصرف لجميع جهات الجامع الأزهر والعياذ بالله تعالى، صرف ذلك للفقراء والمساكين من المسلمين أينما كانوا وحيثما وجدوا.

(هذه العبارة تدل على التضامن بين العالم الإسلامي بصرف النظر عن جنسياتهم) فإن عاد الإمكان للصرف على الوجه السابق عاد الصرف كما كان يجرى الحال في ذلك كذلك وجودا وعدما تعذرا وإمكانا أبدا الا بدين ودهر الداهرين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

والناظر على هذا الوقف صاحبة مدة حياته ثم لأولاده من بعد الارشد فالارشد. ثم من بعدهم يكون لمن يقرر في ذلك حاكم المسلمين الشرعى بمديرية المنيا.

8) انظر سجل رقم 7 الخاص بملخصات لبعض أوقاف الأزهر من سجلات الأزهر بدار الوثائق القومية بالقاهرة ص 95.

9) انظر ، سجل رقم 7 ص 12 ـ 14 من وثائق الأزهر بدار الوثائق القومية (هذه لوقفية محررة من محكمة المنيا مؤرخة في 11 شوال سنة 1305هـ لمرة 164).

مشروعية الوقف الأهلي ومدى المصلحة فيه

للدكتور محمد الكبيسي

مقدمة :

شهد القرن العشرون منذ بداياته انحسارا حادا لكثير من التشريعات والمؤسسات الإسلامية على امتداد الساحة العربية كلها تقريبا. وكان لهذا الإنحسار أسباب مختلفة، كان أشدها أثرا وأبعدها تأثيرا ما كان متعلقا منها بالواقع السياسي للأمة العربية المغلوبة عسكريا وحضاريا - في ذلك الوقت - وسيطرة الاستعمار على مقاليدها العامة بالشكل الذي كان، حتى ظن الكثير يومذاك، أن لا فكاك منه لمن هم عالة عليه في القوة والحياة.

وكان من الطبيعي أن تنفض الأمة الغالبة على الأمة المغلوبة سمتها في الحضارة والفكر، وشخصيتها في القول والعمل، ومنهجها في العلم والثقافة، وهذا ما حدث بالضبط، فقد شهدت الساحة العربية غلبة الفكر والثقافة الغربية، على أى نوع من نظائرها العربية والإسلامية مع بدايات نهضتنا الحديثة، حين فتحنا أعيننا على حضارة الغرب الغازى بعد طول سبات، فرأينا مؤسساتنا وتراثنا وثقافتنا قدران عليها الجمود والتحجر، وغفت عليها الاحن والمحن، وتراكم عليها القدم وكر السنين، ففرض علينا (ثم فرضنا على أنفسنا) أن نتخلى عنها طائعين أو مكرهين، وأوحي إلينا (حتى صدقنا الإيحاء)، إن ذلك شرط لا بد من ركوبه إذا ما أردنا السفر وراء الأمم الناهضة المتقدمة في العصر الحديث، ولا يكون ذلك إلا بأن ننسى أن لنا فضيلة في خلق موروث أو ميزة في تاريخ مجيد، أو سمة في حضارة سابقة.. ومع مرور الزمن ازدادت شخصيتنا ضمورا، وامعنت مؤسساتنا تخلفا وانزواء، وكان الاجدر بنا أن نبدأ بها أساسا للتطور، وأن نعكف على تجديدها قاعدة للتقدم ومنطلقا للنهوض فلو فعلنا ذلك لكنا قد حافظنا على شخصيتنا عند انفتاحنا على العالم في الحضارة وأثبتنا أصالتنا في الأخذ والعطاء عند المشاركة في التحضير، ولكننا لم نفعل، وإنما سلكنا سبيلنا إلى تطوير لا يعرف ما هو حتى اليوم ولم يؤت أيا من ثماره حتى الساعة.

وكان من نتيجة هذا ، أن أصبحت الأمة العربية فريقين (بل أمتين) فريق يدعو إلى ما يدعو إليه السادة الغربيون سالكا طريقهم، ومقتفيا آثارهم، الخطوة الخطوة في الشكل، والقدم القدم في المظهر.. وما خرج من ذلك إلا بوصف المعاصرة والتمدن والتقدمية وغير ذلك من قشور الكلمات التي تجوز على الأسماع من غير عناء، ففتحت

أمام هذا الفريق دنيا الوظائف بلا تحفظ، ومواطن القوة بلا قيود، ودوائر النفوذ من غير حساب.

وفريق بقي على ولائه للأمة من غير جهد ملموس للتطوير متمسكا بقيمها الموروثة من غير تمييز بين الأصالة والزيف منغلقا على نمط من المعرفة لا يتخطاه، فتخلف بذلك عن حلبة السباق إلى الغرض المنصوب حتى صار مسبوقا، وسجن نفسه في متحف التاريخ لا يبرحه إلى حيث يحدد منه مارث، ويوسع منه ما ضاق، ويستبدل منه ما تقادم، فأعطى الفرصة بذلك إلى مناوئيه ومنافسيه أن يوصدوا باب الحضارة العربية والإسلامية بمزلاج الحضارة الغربية الصاعدة بين أضواء الآلة وضوضاء الدعاية وبهرجة الادعاء.

فكيف يمكن لمؤسسات دينية - كمؤسسة الوقف مثلا - وقد عانت من الإهمال والانحلال ماعانت، أن تقف على ساق وقدم في مثل هذا الطوفان الغربي الزاحف على أرض العرب والمسلمين من وراء الاستنفار والاستعمار في الوقت الذي أصبحت الثقافة العربية الإسلامية برمتها من غير ساق ولا قدم ؟

وهذا ما حدث فعلا... فقد تهاوت فكرة الوقف الإسلامية ضمن ما تهاوى من أفكار إسلامية أخرى تحت ضغط الحضارة المتسلطة، والركب الغربي الصاعد المجد. ولم تجد الدعوة إلى الإجهاز على الوقف وغيره من المؤسسات الإسلامية مقاومة يعرف لها وزن، ولا معارضة يحسب لها حساب، وليس وراء وضع كهذا إلا الإنكسار المحتوم.

ومع تراخي الزمن وانهزام النفوس، أصبحت الأوقاف وما يتعلق بها من أموال ورجال عرضة للمنال في الفعل، وموضوعا للمقال عند الذكر حيث لا دافع للضرر ولا مدافع عن الحق.

غير أن هذا الواقع الثابت للأمة الذي أوجزنا وصفه فيما سبق لا ينفي اقرارنا بأن من بين دعاة الغاء الوقف من خلصت نيته للحقيقة كما يراها بخاصة نظره، وتوخى موضوعية الرأي والمصلحة من خلال رؤيته لجانب من الصورة دون بقية الجوانب، فاندفع إلى الدعوة لالغاء الوقف (والذرى) منه خاصة، بحسن نية وسذاجة قصد غير متهم ولا مشوب.

ولقد استند هذا النفر من دعاة الغاء الوقف (الذرى) إلى ثلاثة دعائم أساسية في هذا السبيل :

إحداهما : أن الوقف عموما ليس معروفا في الإسلام بنص صريح.

وثانيهما : اختلاف الفقهاء في جواز الوقف ولزومه.

وثالثهما : أنه مخالف للمصلحة العامة والمصلحة إنما هي في الغائه لا في انشائه وبقائه، وذلك من خلال واقعه المبعثر ووجبه المقهور.

هذا وسوف نناقش في هذا البحث كلا من هذه القضايا في مبحث مستقل.

- المبحث الأول -

مشروعية الوقف الذرى في الفقه الإسلامي

إن البحث في مشروعية الوقف الذرى (الاهلي) يعني البحث في مشروعية الوقف من حيث المبدأ والعموم، وأن تقسيمه إلى خيرى وذرى ومشترك إنما هو اصطلاح فقهي حديث قصد به التنظيم والتمييز، وحقيقة الوقف شاملة لذلك شمول النوع لافراده، فإثبات شرعية الوقف من حيث العموم هو بالضرورة إثبات لكل فصيلة من فصائله.

ومشروعية الوقف عموما ثابتة عند جمهور الفقهاء بادلة وافية، من الكتاب والسنة، وهي معروفة في كتب الفقه الإسلامي بشكل تضيق بها صفحات هذا البحث الموجز (1).

---

1) راجع في ذلك : الام للشافعي 274/1، والخرشي 78/7، والمغني لابن قدامه بهامش الشرح الكبير 185/6، والمبسوط للسرخي 27/12، المحلى لابن حزم 175/9، والبحر الزخار 146/4، وشرائع الإسلام للمحلي 244/1 وغيرها.

إلا أن البحث هنا يقتضي أن نستعرض الأدلة الخاصة بالوقف الأهلي على وجه الخصوص مادمنا بصدد البحث في هذا القسم من الأوقاف... والأدلة على ذلك ما يلي :

الأدلة من الكتـــاب :

أولا : لما نزل قوله تعالى ، **«لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون»** (2) فهم الصحابة الكرام أنهم قدموا بها إلى الصدقة فقال أبو طلحة (3) ، على ما رواه أنس ـ : «أن ربنا ليسألنا من أموالنا، فاشهدك يا رسول الله ، إني جعلت أرضي لله» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ : «أجعلها في قرابتك، في حسان بن ثابت وأبي بن كعب» (4). فدل ذلك على أن وقف الأرض على الأهل والأقارب صدقة مندوب إليها.

قال القرطبي في تفسير هذه الآية (5) : «ففي هذه الآية دليل على استعمال ظاهر الخطاب وعمومه، فإن الصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ لم يفهموا من فحوى الخطاب حين نزلت الآية غير ذلك، ألا ترى أن أبا طلحة حين سمع الآية لم يحتج أن يقف حتى يرد البيان الذي يريد الله أن ينفق منه عباده باية أخرى، أو سنة مبينة لذلك» اهـ.

وقال كثير من المفسرين بمثل ما قال القرطبي في دلالة الآية وعمل أبي طلحة وتوجيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على مشروعية الوقف والصدقة على الأهل والذرية (6).

الأدلة من السنة الفعلية.

ثانيا : روى عن عائشة الصديقة ـ رضي الله عنها ـ : «أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جعل سبع حيطان له بالمدينة صدقة على بني عبد المطلب وبني هاشم» (7).

وليس أوضح دلالة من هذا الحديث على مشروعية الوقف الذرى والاهلي. حيث وقف رسول الله حيطان على أهله من بني هاشم وبني عبد المطلب. ولا معنى للوقف الأهلي إلا هذا.

ثالثا : وفي هذا السباق ماروى ابن طاوس عن أبيه أنه قال ، أخبرني حجر المدرى (8) ـ أن صدقة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأكل منها أهله بالمعروف غير المنكر» (9).

الأدلة من السنة التقريرية.

رابعا : أخرج الشيخان ـ واللفظ للبخارى ـ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال ، أصاب عمر بخيبر أرضا، فأتى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال ، أصبت أرضا لم أصب مالا قط أنفس منه فكيف تأمرني به ؟. فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها».

فتصدق عمر ، أن لا يباع أصلها، ولا يوهب، ولا يورث، في الفقراء، والقربى، والرقاب، وفي سبيل الله، والضيف، وابن السبيل، لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف أو يطعم صديقا غير متمول فيه (10).

---

(2) سورة آل عمران ، الآية 92.

(3) هو زيد بن سهل بن الأسود الأنصارى من أكابر الصحابة شهد مع رسول الله بيعة العقبة والمشاهد كلها، توفي سنة 34هـ على اختلاف في الرواية انظر : الاصابة 1/566.

(4) انظر : البخارى بهامش الفتح 5/246، ومسلم بهامش النووى 7/85، والنسائى 6/240، والبيهقي 6/864، ومسند أحمد الحديث 5179.

(5) انظر : تفسير القرطبي 4/132.

(6) انظر تفسير الشوكاني 1/328، وتفسير ابن عربي 1/280، وتفسير الجصاص 2/18.

(7) انظر تفسير السنن الكبرى للبيهقي 6/160.

(8) هو : حجر بن قيس المدرى اليمني، تابعي ثقة من خيار التابعين ذكره ابن حبان في الثقات. انظر : تهذيب التهذيب 2/215.

(9) انظر : نصب الراية 3/479، وروى هذا الحديث ابن أبي شيبة في مصنفه.

(10) انظر، البخارى مع الفتح 3/259، ومسلم بشرح النووى 1/85 والبيهقي 6/238، والدار قطني 2/303، ومسند أحمد 7/164، وترمذى 2/397، وسنن أبي داود 3/116.

وجه الاستدلال في هذا : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وجه عمر إلى الوقف بحبس أصل الأرض والتصدق بغلتها. ولا معنى للوقف إلا هذا. فجعلها عمر وقفا مشتركا - خيريا وأهليا. حيث جعلها في أهله وفي الناس فأقره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على ذلك.

الأدلة من فعل الصحابة.

خامسا : وروى عن هشام بن عروة ، أن الزبير بن العوام - رضي الله عنه - جعل دوره صدقة موقوفة. وقال رضي الله عنه في صيغة وقفه هذا : «وللمردودة من بناته أن تسكن غير مضرة ولا مضر بها» (11).

وجه الإستدلال : أن جعل الزبير دوره وقفا على المطلقات من بناته أوضح دليل على مشروعية الوقف الذرى. بل أنه دليل يحمل حكمته العظيمة. وهدفه الكريم الذي لا يتحقق إلا بهذا الأسلوب. حيث لا أسلوب غيره ولا سبيل سواه العيلة بعد موت معيلها. وأي جناح على من أراد أن يحقق لبناته ملجأ بعد تشرد. وكفاية من حاجة. ومأوى من فاقة أو طلاق... وليس إمام مسلم كهذا من سبيل إلا سبيل الوقف الذرى. بحبس عين الدار أو الأرض أو العقار والتصدق بغلتها على من قد يتعرض للبأساء والضراء من بناته وأهله وأرحامه ؟ وأى عدل أو حكمة في منع رجل من أن ينحو بحر ماله وتمام ملكيته هذا المنحى الكريم ؟

فكيف يسوغ لمجتمع يوفر لمالك المال حرية التصرف بماله في الحلال والحرام من شرب المسكر ومعاملات الربا. ومظاهر البذخ والسفه. أن يحرم على هذا المالك أن يوظف ماله في سبل الخير. ومواطن البر. وضمانات الأسرة والذرية. إنه والله لمنطق عجيب وتفكير أشد غربة وغرابة في هذا العصر الخالي من معاني الكرم والكرامة والروح.

سادسا : وليس الزبير وحده هو الذي كان على مستوى مسؤوليته عن الضعفاء من عقبة وذريته. بل أن كثيرا من الصحابة الكرام تلمسوا هذا الجانب الكريم من جوانب الإنفاق. وسلكوا هذا المسلك المتحضر باتجاه رعاية الأسرة والذرية.

فقد روى عن عبد الله بن الزبير الحميرى قال : تصدق أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - بداره بمكة على ولده فهي إلى اليوم.

وتصدق عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بربعة عند المروة الثانية على ولده. فهي إلى اليوم.

وتصدق على بن أبي طالب - رضي الله عنه - بأرضه ينبع فهي إلى اليوم.

وتصدق الزبير بن العوام - رضي الله عنه - بداره بمكة في الحرامية وداره بمصر. وأمواله بالمدينة على ولده. فذلك إلى اليوم.

وتصدق سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - بداره بمصر على ولده. ذلك إلى اليوم.

وتصدق عمرو بن العاص - رضي الله عنه - بالاحوط من الطائف وداره بمكة على ولده فذلك إلى اليوم.

وتصدق حكيم بن حزام - رضي الله عنه - بداره بمكة والمدينة على ولده. فذلك إلى اليوم.

قال : ومالا يحضرني ذكره كثير يجزني منه أقل مما ذكرت (12).

نعم أن الصحابة - رضوان الله تعالى عليهم - تسابقوا إلى الوقف بشكل جماعي على ما رواه جابر بن عبد الله حيث قال : (لما كتب عمر ابن الخطاب صدقته في خلافته

(11) انظر : السنن الكبرى 166/6، والبخارى بهامش الفتح 264/5 والدارمي 307/2.

(12) انظر : السنن الكبرى للبيهقي 161/6.

دعا نفرا من المهاجرين والأنصار فأحضرهم وأشهدهم عليه. فانتشر خبرها، فلم أعلم أحد كان له مال من المهاجرين والأنصار إلا حبس مالا من ماله صدقة مؤبدة لا تشترى أبدا ولا توهب.

وتحفل كتب السير والتراجم والحديث بأسماء الكثير من الصحابة الكرام الذين وقفوا بعض أموالهم على دراريهم مثل معاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وعائشة أم المؤمنين وأختها أسماء، وسعد بن أبي وقاص وخالد بن الوليد، وجابر بن عبد الله، وسعد بن عبادة، وعقبة بن عامر، وعبد الله بن الزبير وغيرهم (13).

الأدلة من القواعد الفقهية والقانونية :

في الفقه الإسلامي كما في الفقه القانوني الوضعي ، أن الخلافة على الملكية نوعان ، خلافة إجبارية، وخلافة اختيارية.

والخلافة الإجبارية إنما تنحصر في الإرث، حيث يخرج المال من ذمة المتوفى وملكه إلى ذمة الورثة وملكهم.

أما الخلافة الإختيارية فهي الوصية... حيث يجوز للمالك أن يوصي بما شاء من أمواله لمن شاء من الناس مع مراعاة شرط التقيد بالثلث لما قام عليه الدليل...

وإذا كان من حق المالك أن يملك ملكه لمن شاء تمليكا مضافا إلى ما بعد الموت رغم تعلق حق الورثة به بعد موته، فأن حقه في تمليك من شاء تمليكا منجزا ثابت له من باب أولى لعدم تعلق حق أحد بملكه حال حياته على سبيل الهبة أو التبرع أو نحوها.

ولا أعرف سببا يجعل الفرق مقبولا ووجيها بين أن يتنازل المالك عن ملكه على سبيل الهبة، وبين أن يتناول عنه على سبيل الوقف الذرى... فعلى أى أساس فقهي أو قانوني يقبل ذلك ويرفض هذا. ويباح ذاك من حيث يمنع هذا ؟

وبناء على هذا ، فإن الوقف الذرى يستمد مشروعيته من مشروعية التصرف الشرعي في المال المملوك، ولا سبيل إلى منع الوقف الأهلي شرعا وقانونا مع بقاء ذات القواعد الشرعية والقانونية التي تحكم تصرفات المالك في ما يملك.

الوقف الذرى تنفيذ لنظرة الإسلام إلى الملكيـــة :

تنظر الشريعة الإسلامية الغراء إلى الملكية على أنها حكم شرعي يقدره الشارع في المال المملوك، وبالتالي فإن للشارع الحكيم أن يفيد هذا الحكم بغاية يقدرها أو حكمة يراها أو قاعدة يحددها، وقد أشار القرافي - رحمه الله - إلى هذا المعنى في تعريفه للملك حيث قال (14) ، «الملك حكم شرعي مقدر في العين أو المنفعة»... ثم يقول ، «فالملك حكم شرعي مقدر في العين أو المنفعة» ثم يقول ، «فالملك - في الشرع الإسلامي - إباحة شرعية في عين أو منفعة تقتضي - تمكن صاحبها من الإنتفاع بتلك العين أو المنفعة».

وأن في وصف الملك بكونه صفة شرعية، أو حكما شرعيا، أو قدرة شرعية كما يقول ابن الهمام ، إشارة إلى جعله صالحا ومهيئا لأن ترد عليه القيود التي يفرضها الإستحسان والعرف والمصلحة..

وقد نشأت هذه النظرة إلى الملكية في الشريعة الإسلامية من حقيقة إضافة الملك لله، وهو الذي استخلف الناس فيه من أجل أن يؤدوا وظيفة المال الإجتماعية التي أنيطت به ، «واتوهم من مال الله الذى أتاكم» (15) و«انفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه» (16).

13) راجع في ذلك ، أحكام الأوقاف للخصاف.
14) انظر - الفروض للقرافي 2/ 28.
15) سورة النور - الآية 33.
16) سورة الحديد - الآية 7.

وقد رتب الإسلام على هذه النظرة إلى الملكية نتائج متعددة منها : (17)

أ - أن المال أداة في يد الجماعة وإن كانت ملكيته خاصة. لأنه بالنتيجة يؤول كذلك. ومن هنا كانت إضافته إلى الجماعة في كثير من المواطن صريحة الدلالة على ما قلنا مثل قوله تعالى : **«ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل»** (18).

ب - وجوب بذله وإشاعته عند الحاجة. وتحريم الإستئثار به وعزله عن وظيفته الإجتماعية. والقرآن الكريم يؤكد هذا المعنى في أكثر من موضع مثل قوله تعالى : **«وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل»** (19).

جـ - جعل الشارع الحكيم للسلطة السياسية الشرعية الحق في التدخل للتمكين لهذا المال من أداء وظيفته عندما يقوم مانع دون ذلك ومن ذلك الحجر على السفيه ونحوه. ومصادرة بعض الأموال ونزع ملكيتها من مالكيها في المواطن المعروفة في الفقه الإسلامي.

وبهذا تمتاز طبيعة الملكية في الشريعة الإسلامية عنها في كثير من القوانين الوضعية التي تعتبر الملكية الفردية حقا مطلقا كالقانون المدني الفرنسي في المادة (544) والمدني المصرى القديم في المواد (11 و27) حيث لم يجعلا للمال وظيفة اجتماعية يقيد بها. ويوظف من أجلها. وإنما أطلق للمالك حرية التصرف المطلق كل الإطلاق..

فتعريف الملكية في القانون الفرنسي هي : «الحق في الإنتفاع والتصرف في الأشياء على نحو مطلق كل الإطلاق».

وفي الاونة الأخيرة اتجهت أنظار رجال القانون والإقتصاد إلى مبدأ الشريعة الإسلامية في وظيفة المال يقدم بها المالكون نحو المجتمع وليس هو مجرد حق ذاتي لصاحبه. له فيه حق التصرف المطلق والإنتفاع المطلق.

وليس في وظيفة المال الإجتماعية سمة انبل من اشراك الآخرين فيه بأي طريق. وبأي أسلوب يراه المالك محققا لمقاصد الشريعة الإسلامية.

ومن مقاصد الشريعة الإسلامية ووصاياها صلة الرحم والتكاتف الأسرى والتكافل الإجتماعي.. وأن في الوقف الذرى تحقيقا لكل ذلك كما هو ظاهر فهو يحقق من مقاصد الشريعة الإسلامية في وظيفة المال الإجتماعية ما يلي :

1 - الإنفاق وهو مندوب إليه. وعدم الاحتكار وهو منهي عنه.

2 - السخاء وهو وصف ممدوح في الإسلام. وعدم البخل وهو أمر مذموم.

3 - صلة الرحم وهو مأمور به. وعدم قطعها وهو منهي عنه.

4 - التكافل الأسرى وهو أساس المجتمع الصالح وعدم التفريط في العيلة وهو بداية التمزق والضياع.

فهل بعد هذا يمكن القول بأن الوقف الأهلي ليس معروفا من الدين أو منفعة ؟ وهل هناك أنبل من رجل يتنازل عن حر ملكه لأهله بدون عوض. ويساهم به في اسعادهم من غير مقابل إلا الأجر... وهل يعني الفضل والمروءة والتجرد لله ورسوله إلا هذا ؟

الوقف الذرى وقواعد الأخـــــلاق :

قديما فسر (هوبس) الفيلسوف الانكليزى. كل خلق حميد بأنه قوة أو دليل قوة. فالصبر قوة لأن الضعيف يجزع. والكرم قوة لأن البخيل يعجز عن العطاء. والعدل قوة. لأنه غلبة الإنسان العدل على نوازع طمعه ودوافع هواه. والرحمة قوة. لأنها عون لضعف المريض والعاجز والصغير والمحتاج والمعسر... وقس على ذلك كل خلق حميد تفسره على هذا النحو من التفسير... وهو دليل على شعور القوى

17) انظر : الملكية في الشريعة الاسلامية. بحث للدكتور أحمد الكبيسي ص 3.

18) سورة النساء : 188.

19) سورة الاسراء : 77.

بمسؤولته وتبعته ومصدر الجمال في الأخلاق وهو أن يشعر الإنسان بالتبعة، وأن يدين نفسه بها، ويبني تصرفاته على أساسها.

وعلى هذا فإن مصدر الأخلاق الجميلة هو «عزم الأمور» كما سماه القرآن الكريم... وهو مصدر كل خلق جميل نصت عليه الشريعة الإسلامية.

فالشخصية الإنسانية ترتقي في الجمال الأخلاقي كلما ارتفعت في الاستعداد للتبعة والشعور بالمسؤولية عمن هم في مسؤليته القانونية فعلا، ولمن هم في مسؤوليته الاخلاقية على مدى المستقبل وإن لم يكن مسؤولا عنهم قانونا ولا قضاء ولا شرعا... والمسؤولية الثانية هي أعلى درجة وأعظم فضلا ونبلا وشرفا من المسئولية الأولى القانونية والقضائية. فما من خصلة حث عليها القرآن الكريم إلا كان تقدير جمالها بمقدار نصيبها من الوازع الاخلاقي غير الملزم قانونا ولا قضاء ولا شرعا... أو بمقدار ما يطلبه الإنسان من نفسه ولا يضطره أحد إلى طلبه.

فالحق الذي تعطيه ولا يضطرك القانون ولا القضاء ولا الشرع إليه هو أجمل الحقوق وأكرمها على الله، وأخلقها بالفضيلة الإنسانية فلا قدرة للمسكين واليتيم والأسير على تقاضي الحسنة المختارة. ومن أجل هذا حث القرآن الكريم على البر بهؤلاء وأمثالهم كما لم يفعل مع غيرهم من جهة القوة في الحث والكمال في المدح : «ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا» (20).

ولا تجب على الأمة لعنة تحيق بها، وتستحق النكال من أجلها كلعنة التعاون في رعاية اليتامى والمساكين من غير خاصتك. فما بالك بالتهاون في رعاية اليتامى والمساكين من أهلك وذريتك.

وهنا نقول : ما هو السبيل الممكن لمن دان نفسه بمسؤوليته عن العجزة من عقبه وذريته من غير أن يدينه بذلك قانون أو قضاء، ما هو السبيل أمام رجل كهذا إذا ما أراد أن يضع مسئوليته هذه موضع التطبيق والتنفيذ.. وقد رضي أن ينزل طائعا عن ملك داره أو مزرعته أو عمارته لهؤلاء استجابة لعنصر القوة والجمال في أخلاقه، واستجابة لحبه الفريزى الفطرى لذريته الممتدة ونسله المديد فارقه ما قد يكون فيهم من فقير لا يقوى على عمل ومعوق لا يحسن حرفة ولا صنعة، ومطلقة لا تجد زوجا يحميها، وعاقر ليس لها ولد يعيلها... ماذا يمكن أن يكون أمام رجل كهذا من سبيل غير سبيل الوقف الذرى ؟.

وما هو حكمنا الاخلاقي على رجل تنازل عن ماله الذي هو شقيق روحه إلى من لم يرهم في حياته ليأنس بهم، ولم يوجدوا في عهده لكي يستفيد منهم، ولا هم من جيله لكي يتلقى مدحهم وثناءهم... ما حكمنا الاخلاقي على رجل يمثل هذا التجرد الإنساني، والسمو النفسي، والشعور بالمسؤولية والتبعة من غير أن يضطره لذلك قانون أو قضاء ؟ وأي من الرجلين أقرب إلى قواعد الأخلاق الإنسانية العالية : الرجل الذي تغلبه أنانية النفس فيستأثر بماله دون عقبه ونسله وذريته، أم الرجل الذي ينزل عن قدر من ماله لصالح أهله وذريته وهو لا يرجو من وراء ذلك إلا رضا الله وجزاء الآخرة ؟.

إنك لا تضاهي بين رجلين أو أمتين إلا وجدت أن الأفضل منهما هو صاحب النصيب الاوفى من المسؤولية، وصاحب القدرة الراجحة على النهوض بتبعاته.

ثم أنك لا تضاهي بين رجلين من هذا النوع الفاضل إلا وجدت أن الأسمى منهما هو الذي ألزم نفسه بالتبعة والمسؤولية من غير إلزام من شرع أو قضاء أو قانون.

وهذا ما يفعله الواقف على أهله وذريته.

خلاصة البحث :

تعود إلى حجة المعارضين للوقف عامة والذرى منه خاصة، حيث قالوا : أن الوقف ليس من الدين. فنقول : ان الدين كتاب وسنة وفعل صحابي وقواعد فقهية وإخلاقية. وقد أوجزنا ما يظهر قرب الوقف الذرى من ذلك كله قربا يجعله أثرا من أثارها ونتيجة لمقدماتها.

---

20) سورة الانسان : الآية 76.

ومع ذلك نعود فنجيب باختصار عن التساؤل عما إذا كان الوقف من الدين ؟ فنقول ، إذا كان المراد من هذا السؤال ، هل أن الدين يأمر بالوقف ويفرضه على المسلمين فرضا كما يفرض الصلاة والصيام والزكاة ونحو ذلك فإن الوقف ليس من الدين بهذا المعنى.

أما إذا كان المراد ، هل أن الدين يحبذه ويستحسنه ويندب إليه. فما لا شك فيه أن الوقف من الدين على هذا المعنى. وقد بينا أدلة ذلك من المنقول والمعقول. من حيث كونه وقفا بكل ما تعنيه الكلمة اصطلاحا وإلا فإن انفاق المال على وجه البر والخير مما لا يحتاج إلى حجة أو دليل.

المبحث الثانـــي

اختلاف الفقهاء في جواز الوقف ولزومـــه :

استند بعض دعاة الغاء الوقف إلى القول بأن بعض الفقهاء ذهبوا إلى عدم جواز الوقف أو عدم لزومه.

إلا أن جمهور علماء السلف قد اتفقوا على جواز الوقف وصحته استدلالا بما ذكرنا بعضه في المبحث الأول.

ولا يقدح في هذا الإجماع ما روى عن القاضي شريح من أنه كان يرى الوقف باطلا غير جائز حيث كان يقول ، «جاء محمد ببيع الحبيس» (21).

وقد أجاب العلماء عن قول شريح هذا بأن الحبيس الذي جاء الإسلام ببيعه وعدم اقراره إنما هو ما كان يعتاده الجاهليون من حبس الإبل والغنم وتحريمها تكريما لها إذا ولدت بطونا معدودة. أو التي كانت تنذر فلا تؤكل ولا تركب. وكان الجاهليون يسمونها بأسماء مختلفة وهي البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي المذكورة في القرآن الكريم بقوله تعالى ، **«ما جعل الله من بحيرة إلا سائبة ولا وصيلة ولا حام»** (22).

وقد تكلم الفقهاء في قول شريح ، (جاء محمد ببيع الحبيس) على النحو التالي ، ـ

1. إنه موقوف عليه ومرسل عنه. وأيهما كان لم يلزم. بل الصحيح أن محمدا جاء بإثبات الحبيس كما تقدم من أدلة الجمهور» (23).
2. لفظ شريح هذا يدل على أن الحبس كان معروفا ومشروعا. فجاء محمد بأبطاله. ولم يعرف يقينا عن الجاهليين نظام كنظام الوقف الذي يزعم شريح أن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبطله.

وبذا يقول أن الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ «لم يحبس أهل الجاهلية فيما علمته دارا ولا أرضا تبررا. بحبسهما. وإنما حبس أهل الإسلام» (24).

وقال ابن حزم في ذلك ، «أن العرب لم تعرف في جاهليتها الحبس الذي اختلفنا فيه. إنما هو إسم شرعي وشرع إسلامي جاء به محمد ـ صلى الله عليه وسلم (25).

3. أنه محمول على حبس الجاهلية.

وللإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ توجيه قيم لقول شريح هذا فهو يقول ، (26)

«وقال قائل ، إنا رددنا الصدقات الموقوفات بأمور.

قلت ، وما هي ؟

فقال ، قال شريح ، جاء محمد باطلاق الحبس.

فقلت له ، وتعرف الحبس التي جاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ باطلاقها ؟

قال ، لا أعرفه حبسا إلا الحبس بالتحريم. فهل تعرف شيئا يقع عليه إسم الحبس غيرها ؟

قال الشافعي ، فقلت له ، أعرف الحبس التي جاء بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ باطلاقها وهي غير ما ذهبت إليه. وهي مبينة في كتاب الله عز وجل.

---

(21) سورة المائدة ، 103.
(22) سورة المائدة ، 103.
(23) انظر ، الحياوى الكبير جـ 7 والمحلى لابن حزم 173/9.
(24) انظر ، الأم للشافعي 275/3.
(25) انظر ، المحلى 275/9.
(26) انظر ، الأم 275/3.

قال : أذكرها.

قلت : قال الله عز وجل : **«ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام»..** فهذه الحبس التي كان أهل الجاهلية يحبسونها. فابطل الله شروطهم فيها. وأبطلها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأبطال الله اياها.

ويرد ابن حزم على من قال : كان شريح لا يعرف الحبس ولو كان صحيحا لم يجز أن يستفتي من لا يعرف مثل هذا بقوله : (27)

«وأي فكرة في جهل شريح سنة وألف سنة ؟ والله لقد غاب عن ابن مسعود نسخ التطبيق. ولقد غاب عن أبي بكر ميراث الجدة ولقد غاب عن عمر أخذ الجزية من المجوس سنين.. وبمثل هذا لو تتبع لبلغ أزيد من ألف سنة».

وعلى هذا فلا غرابة في خفاء حديث وقف عمر على شريح ولا ينقص هذا من جلالة قدره وسعة علمه. فقد خفيت كثير من الأحاديث على فقهاء الصحابة. وهم في القرب من رسول الله ما علمنا. وفي الفضل ما لا يرقى إليهم أحد.

الاستدلال برأي أبي حنيفـــة :

يستدل بعض الداعين إلى الغاء الوقف بأن أبا حنيفة لا يجيز الوقف. ولا بد أن لأبي حنيفة أدلته في حكمه هذا. فليس هو ممن يقول من غير حجة أو برهان. فما هو رأي أبي حنيفة ؟

لقد ثبت عن أبي حنيفة روايتان :

الأولى : بطلان الوقف على ما رواه هلال بن يحيى البصرى (28).

الثانية : إنه صحيح غير لازم كالعارية. فيجوز للواقف ولورثته من بعده الرجوع فيه.. وهذه هي الرواية التي رجحها فقهاء الحنفية قائلين : أنها هي مذهب الإمام.

جاء في الدر المختار (29) : «والأصح : أنه عنده جائز غير لازم كالعارية».

وقال في الاسعاف (30) : «وهو جائز عند علمائنا : أبي حنيفة وأصحابه. ثم قال :

وانما الخلاف بينهم في اللزوم وعدمه. فقصد أبي حنيفة - رحمه الله يجوز جواز الاعارة».

وقال السرخسي (31) : «أما أبو حنيفة فكان لا يجيز ذلك. ومراده : أن لا يجعله لازما. وأما أصل الجواز فثابت عنده».

واما كان وجه الرواية عن أبي حنيفة نفسه فإن أصحابه من بعده ذهبوا إلى جواز الوقف ولزومه. فكان هذا مذهب متأخرى الحنفية...

وقد ذهب أبو يوسف إلى هذا بعد مناقشة بينه وبين مالك رحمهما الله في مسألة الوقف. فاذعن أبو يوسف للأدلة التي ساقها مالك في جواز الوقف ولزومه وقال :

«لو بلغ - يريد الدليل - أبا حنيفة : لرجع» أى عن القول بعدم جواز الوقف (32).

وقد عدل أبو يوسف صراحة عن مذهب إمامه أبي حنيفة بعد مناقشته للإمام مالك كما جاء في شرح الباجي للموطأ. وحاشية الرهوني على شرح عبد الباقي لمثنى خليل... فلما اقتنع بحجة مالك قال :

«كان أبو حنيفة يقول : أنها غير جائزة. وأنا أقول : أنها جائزة». فرجع في الحال عن قول أبي حنيفة» (33).

وقد علق الباجي على ذلك بقوله : «وهذا فعل أهل الدين والعلم في الرجوع إلى الحق حين ظهر وتبين» (34).

---

(27) انظر : المحلى 178/9.
(28) انظر : وقف هلال ص 5.
(29) انظر : الدرة (م.خ.ت) مع حاشية ابن عابدين 194/3.
(30) انظر الاسعاف ص 3.
(31) انظر : المبسوط 37/12.
(32) انظر : المبسوط 27/12.
(33) انظر : المنتقى للباجي 122/6، وحاشية الرهوني على الزرقا 130/7.
(34) انظر : المنتقى 122/6.

دليل آخر لعدم جواز الوقف ومناقشته :

يستدل القائلون بعدم جواز الوقف أيضا. بما روى عن عبد الله بن عباس، أنه قال : لما نزلت سورة النساء وفرضت فيها الفرائض - أي المواريث - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «لا حبس عن فرائض الله» رواه البيهقي واللفظ (35) والدارقطني، الطحاوي (36).

مناقشة الدليل :

رد جمهور الفقهاء على هذا الدليل من عدة وجوه :

1 - الوجه الأول : أن الحديث ضعيف - بل هو موضوع كما قال ابن حزم... وابن لهيعة : لا خير فيه، وأخوة مثله، وهما في سند الحديث (37).

الوجه الثاني : أنه على فرض صحته، ليس فيه ما يؤيد دعوى المانعين للوقف، لأن الوقف ليس حبسا عن فرائض الله، وإنما هو تعرف في العين حال حياة الوقف، وهو في هذا كالصدقة العاملة والهبة، ولم يقل أحد بأن فيهما حبسا.

قال ابن حزم :

«إن هذا الإستدلال فاسد، لأنهم لا يختلفون في جواز الهبة والصدقة في الحياة والوصية بعد الموت، وكل هذه مسقطة لفرائض الورثة عما لو لم تكن فيه لورثوه على فرائض الله عز وجل، فيجب بهذا القول أبطال كل هبة، وكل صدقة، وكل وصية، لأنها مانعة من فرائض الله تعالى بالمواريث.

هذه أبرز الأدلة التي ركن إليها القائلون بمنع الوقف، وعدم جوازه وعدم لزومه.

وإذا كنا قد ناقشنا أدلتهم من وجهة نظر جمهور الفقهاء، كما جاءت في كتب الفقه نفسها، فإن لنا أن نقول إضافة إلى ذلك :

إن أعظم حجة على مشروعية الوقف ولزومه هو السنة العملية في أوقاف الصحابة أنفسهم في المدينة حتى بعد وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - وهم رواة حديث رسول الله وأمره ونهيه، ولا سيما وقف عمر بن الخطاب وقد كتب كتابه وأشهد عليه في خلافته كما تقدم وورد فيه أنه : لا يباع ولا يوهب ولا يورث» كما أشار عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يفعل حين استشاره.

ثم أن المصلحة هي أساس التشريع في الإسلام وحيثما تكون المصلحة فثم شرع الله فلننظر ما هو مدى المصلحة في الوقف الأهلي على اعتبار ذلك أساسا لمشروعيته ولزومه وذلك في المبحث التالي.

المبحث الثالث

مدى المصلحة في الوقف الذرى :

رغم ما قدمناه من أدلة مشروعية الوقف، وموافقته لقواعد التشريع واستنباط الفقهاء، فقد تنادلت أصوات كثيرة (منذ بداية القرن العشرين) إلى منع الوقف الذرى انشاء، والغاءه وتصفيته وجودا وواقعا، وهي أصوات لا يجمع بينها جامع في غالب الأحيان، وإنما اختلفت مصادرهم ومذاهبهم في هذا الذى مالوا له ونزعوا إليه في هذه المسألة، فمنهم الناكر المتنكر لكل ما يمت إلى الإسلام بقربى أو وسيلة فرأى في الوقف سببا لنشاط علمي وإنساني على مر العصور الإسلامية، فأراد من حملته عليه غلق نافذة طالما تسرب منها الهواء النقي في أشد حالات التنفس اختناقا، ومنهم من غمض عليه وجه المصلحة الغالبة في الوقف من حيث الكل والمبدأ، ولم يرد منه إلا الجانب الآخر المتعلق ببعض الجزئيات التي صادفت سوءا في التطبيق أدى إلى سوء في

(35) السنن الكبرى 162/6، وسنن الدار قطني 454/2.

(36) انظر : شرح معاني الآثار 96/4.

(37) انظر : المحلى 177/9.

بنية المجتمع. فدعا بحسن نية إلى الغائه وتصفيته منطلقا من دعوى منافاة الوقف الذرى للمصلحة من حيث تكاسل الموقوف عليهم واتكالهم على موارده مما يعطل سعيهم للعمل وحركتهم في المجتمع. وهذه أمور تضر بأصل الاقتصاد.

وايا كان الدافع إلى هذه الحملة على الوقف الذرى على وجه الخصوص فإن اقلاما متعددة النوايا والسجايا قد تظافرت ضده بشكل أدى إلى الغائه فعلا في بعض الأقطار العربية والإسلامية... في الوقت الذي بدأت بعض الدول غير الإسلامية تأخذ بنظام قريب من نظام الوقف الذرى في الإسلام لما رأت بالعين الموضوعية أنه يحقق مصلحة أكيدة في الغالب من أمره. وأن ما يمكن أن ينتج عنه من سلبيات إنما هي من النوع الذي يمكن تلافيه وعلاجه والسيطرة عليه.

ومن هذه النقطة رأيت أن تكون بداية هذا المبحث.. حيث افتتحه ببيان ما هي المصلحة الشرعية التي هي أصل تشريعي على وجه الإجمال ثم ابين مدى المصلحة في الوقف الذرى كما يراه فقهاء الإسلام.

وأخيرا نأتي على وجهة نظر القائلين بانتفاء المصلحة فيه من الناحية الإجتماعية والإقتصادية.

ماهي المصلحة الشرعية :

من المسلم به أن الأحكام الإسلامية كلها تدور مع المصلحة حيثما دارت. وبتفاوت الحكم وجوبا وندبا. أو تحريما وكراهة بتفاوت المصلحة العامة نفسها بين ما ترجح مصلحته على مفسدته أو العكس ولا يلزم فيما ترجح المفسدة فيه ألا تكون فيه مصلحة بحال ـ حيث أن الخير المحض أو الشر المحض لا يكاد يوجد في هذه الدنيا.

وعندما يغلب وجه المصلحة في قضية من القضايا على الوجه الآخر المناقض. تصبح المصلحة راجحة. والمفسدة مرجوحة لا تخرج القضية عن أصلها المشروع... وقد نص علماء الأصول على أن الحكم الكلي المشروع لدليله لا ينقض بجزء يخالفه.

ثم إن تقدير المصلحة أو المفسدة لا يحاط بافهام العامة من الناس ولا يوكل إلى الامزجة والأهواء. ولا يوزن بالظن والجزاف والتخصمين.. وانما وضعت الشريعة الإسلامية. لذلك موازين لا تطفف وضوابط لا تخيب. ودلائل يهتدى بها السالكون من أهل العلم والفهم والمعرفة.

أما أن توزن مصالح المسلمين بموازين الهوى والرغبات أو تناط برأي صاحب أمر مطاع أو صوت مسموع. فليس ذلك من العلم أو الدين بشيء.. وانما يرد ذلك إلى رأي أصحاب العلم من الائمة والمجتهدين الذين وقفوا أعمارهم على رسم قواعد الفقه والاستنباط وانفقوا ماء عيونهم في تلمس المصالح فأقاموا عليها الدليل. وتتبعوا الحوادث فاستنبطوا لها الأحكام وحققوا أصول الدين فرسموا لمن بعدهم حدودها وأبعادها على ما يرضي الله ويحقق الهداية للناس. وأن من بلية الوقف على امتداد العصور إنما في جملة من المتنفذين الذين كانوا ولا يزالون يصوغون وجه المصلحة العامة في الوقف صياغة تطابق مصالحهم الشخصية ورغباتهم الخاصة. فأفسدوا بذلك أهدافه الخيرة ومساهماته الجادة في البر والخير والمصلحة الحقيقية. الا أن هذا الواقع المؤسف لا يقتضي الغاء الوقف بقدر ما يقتضي اصلاحه من العطب وحمايته من العبث وتقويمه على الطريق.

واني استشهد هنا بشهادة شاهد عيان مارس العمل في هذا المجال (الوقف) زمنا طويلا حتى وضع كتابا في اصلاح الوقف بعد أن ساءه ما يلقاه هذا المرفق الكريم من عبث العابثين واستغلال المتنفذين هو المرحوم محمد أحمد العمر... مدير الأملاك والحقوق في مديرية الأوقاف العراقية منذ 1946/4/13. فيقول في كتابه (الدليل لإصلاح الأوقاف ص 93) : «المتنفذون كثيرون في هذه البلاد وأقصد بالمتنفذين من كانت لهم صولة وجولة ولهم تأثير وكلام مسموع لدى الوزراء والرؤساء. إما لثروتهم وإما لسبق تسلمهم منصبا وزاريا أو منصبا هاما... وقد ابتلت بهم دائرة الأوقاف أكثر من أي مصلحة حكومية أخرى. لأن الأوقاف لها كثير من الأملاك والعقارات التي يستأجرها هؤلاء المتنفذون أو التي تجاور أملاكهم أو التي تتركز مطامعهم

في سلبها. ولدى مديرية الأوقاف أسماء كثيرة ممن استغل نفوذه في الإمتناع عن دفع بدل الإجارة مدة سنين طويلة حتى كاد يذهب بها مرور الزمن. وبعضهم اغتصب أرضا للوقف دون أن يدفع أجرها. وبعضهم اغتصب أرضا بحجم مختلفة وهم كثيرون وأساليبهم كثيرة.. وحيث أننا نكتب كتابنا متوخين أن يكون ذا صبغة علمية نهدف به الإصلاح لا الطعن في الأشخاص فقد اكتفينا بالتنويه هذا».

يبقى علينا أن نفهم أن مهمة تقنين الأوقاف ووضع تعليماته ومحاولات إصلاحه كانت توكل إلى هؤلاء وأمثالهم ومن يأتمر بأمرهم. ولك أن تتأمل أى مصلحة يمكن لأمثال هذا الفريق من الناس أن يحققوها للوقف.

وجه المصلحة في الوقف الـــذرى :

أثبت التطبيق العملي أن في الوقت الذرى مصلحة غالبة تؤيد مسلك الفقهاء في تناول أحكامه، ومذاهبهم في إقامة الأدلة على صحة مشروعيته، وأن ما قد يكون فيه من مفسدة مرجوحة لا تخرجه عن أصل وصفه، إضافة إلى أن تلك المفاسد الجزئية إنما هي خارجة عن طبيعته، عارضة له بعد وضع حكمه وحكمته...

وهذا أمر لم تخل منه مسألة حتى أركان الإسلام نفسها، هما أكثر ما داخل الصلاة والحج وغيرهما من بدع وإضافات دخيلة عليهما من غير أن يحيل ذلك بأصل شرعيتها، وأن الواجب في حالة كهذه إنما هو العمل على تصحيح المسار من غير أن تهدم معالم الطريق، والجهاد في سبيل تجديد مارث وتقويم ما انحرف من غير التعرض لأصل الشيء بالنقص والتمزيق... وأن أي باحث يعرف مقاصد الشريعة الإسلامية ومواردها ومسالك المجتهدين ومذاهبهم ومراميهم في ما وضعوه من قواعد كلية للاستنباط، ونظريات عامة في الفقه، سيجد نفسه على الطريق السوى الذي يوصله إلى الإيمان بغلبة وجه المصلحة في الوقف الذرى كما هو الحال في الوقف الخيرى تماما من حيث أنه حركة يمكن أن تحقق للفرد الواقف والأسرة الموقوف عليها وللمجتمع أكثر من مصلحة مشروعة مؤملة.

أما مصلحة الفرد الواقف في الوقف الذرى فهي تتلخص في أنها تحقق الرضا، والطمأنينة في نفسه مسؤولية، وتحقق بالتصور بالتفوق أخلاقيا، وتحقق الأمل والرجاء في الله دينيا.

ويدل على ذلك ما روى عن زيد بن ثابت - رضي الله عنه - قال : «لم نرخيزا للميت ولا للحي من هذه الحبس الموقوفة. أما الميت فيجرى أجرها عليه. وأما الحي فتحبس عليه ولا توهب ولا تورث ولا يقدر على استهلاكها (38).

وأما مصلحة الأسرة الموقف عليها فهي ضمانة متوخاة على قدر الإمكان تحفظ للفقير منهم وقاية ماء الوجه من ذل المسألة، وللعاجز منهم مشقة الحاجة، وللمقطوعة والمردودة سلامة العيش وستر الحياة.. بل أن الوقف هذا قد يحفظ للأسرة عميدا مهابا يحقق التماسك ورئيسا مقتدرا يلم الشعث ويرعى الحرمات ويصل الرحم، وإلا فإن عمر ابن الخطاب لم يكن يخبط خبط عشواء حين جعل وقفه إلى حفصة، ومن بعدها إلى الأكابر من الخطاب.

وأما مصلحة المجتمع فهي تتلخص في مساهمة الوقف الذرى في مبدأ التكافل الإجتماعي، وكفاية المحتاجين والمعوزين فيه، ولقد ساهم الوقف على مستوى التطبيق الفعلي في امساك الحياة على الكثير من الناس حين تنكرت لهم سبل العيش، وتفرقت من حولهم مسالك أهلهم وذويهم، فكان لهم في ما وقف لهم آباؤهم وأحفادهم ملاذا، آمنا، ومصدرا للرزق معقولا، فاحتمل الوقف بهذا مسؤولية المجتمع عند بعض فصائله.

وعلى هذا ، فإن الوقف وظيفة اجتماعية قد تبدو ضرورية في بعض الأحوال والمواقع، فلقد شاء الله أن يجعل الناس مختلفين في الصفات الإنسانية، متباينين في الطاقة والقدرة، ومن أجل هذا كان الغني إلى جانب الفقير، والغبي العاجز إلى جانب الذكي القادر، والضعيف المعدم

38) انظر : مقدمة كتاب الاسعاف.

إلى جانب القوي المليء. وكان لابد للشارع الحكيم ـ وهو بصدد تنظيم الحياة ـ أن يأمر الغني بملاحظة الفقير، والذكي بإرشاد الغبي، والقوي بإعانة الضعيف.

وقد أخذ تنفيذ هذا الأمر اشكالا عديدة، وصورا مختلفة منها الواجب المفروض، ومنها المستحب المندوب إليه، ومنها ما هو مادى يتعلق بالمال، ومنها ما هو معنوى خاص بالخلق والشمائل... وهكذا كانت الحياة في المجتمع الإسلامي متكافلة متعاونة.

إلا أن أوجه الإنفاق إذا كانت كثيرة ومتنوعة، فإن أفضلها ما كان عن شعور بالتبعة من غير الزام، يبذله المسلم عن رضا نفسه من غير جبر أو إكراه من قانون أو قضاء، ثم إن فضل الانفاق من هذا القبيل ما كان منظما مضمون البقاء إلى أمد يقوم على أساس واضح ومستقر، وينشأ من أجل هدف محدد، ويرمي إلى غاية إنسانية مشروعة، وهذا هو الوقف الذرى بعينه الذي يحقق للواقف معنى قوله عليه الصلاة والسلام : (إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث.. وذكر منها : أو صدقة جارية) (39).

ويحقق للموقوف عليه معنى قوله تعالى : **«قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين»** (40).

وقوله : **«واولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله)** (41).

ويحقق للمجتمع معنى قول عمر بن الخطاب : (ليصلن الراعي حقه في صنعاء وماؤه في وجهه)، وذلك حين ألح عليه بعض الصحابة أن يقطعهم أرض العراق وفارس فأبى وقال : «فماذا يكون للذرية والأرامل والأيتام» (42)، فأراد لهؤلاء رزقا ثابتا وعطاءا مستمرا.

وهذه هي المقاصد التي توخاها رسول الله، صلى الله عليه وسلم ـ من الوقف حين رأى أن فيه الخير للواقف والموقوفة عليه والمجتمع: بما لا يوجد في الصدقات الأخرى، وفي ذلك يقول الدهلوي في حكمة الوقف (43) : «فاستنبطه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمصالح لا توجد في سائر الصدقات، فإن الإنسان ربما يصرف في سبيل الله مالا كثيرا ثم يفنى، فيحتاج أولئك الفقراء تارة أخرى، وتجيء أقوام آخرون من الفقراء فيبقون محرومين، فلا أحسن ولا أنفع للعامة من أن يكون شيء حبسا للفقراء وابن السبيل، يصرف عليهم منافعه ويبقى أصله».

المصلحة في الوقف الذرى أظهر منها في الخيرى :

إن معظم المعارضين للوقف الذرى مشروعية ومصلحة يقرون بمشروعية الوقف الخيرى من هذين الجانبين فلا يرون به بأسا، ولا يشحذون في وجهه قلما ولا يجردون سيفا.

وإذا كان الأمر كذلك فإننا نقول لهم : أن المصلحة التي ترونها في الوقف الخيرى ستجدونها في الوقف الأهلي بشكل أكثر ظهورا وأشد وضوحا كما تلمس ذلك صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فقد كان الوقف أول عهده في الإسلام متجها إلى جهات من وجوه الخير والبر العام يشترك فيها الواقف وأهله وأقاربه وسائر الناس، ثم بدأ الصحابة بعد ذلك يحبسون الأموال على أولادهم.

ويرون ذلك وسيلة لصيانة المال عند التبديد، ولدوام انتفاع أعقاب الواقف منه كما تقدم في وقف الزبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ وقد كان هذا نواة لما سمي بعد ذلك بالوقف الذرى (الأهلي) فما سبب هذا الاتجاه الجديد عند صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

إن هذا الاتجاه إلى الوقف الأهلي بدل الخيرى كان وليد فكرة حدثت بين الصحابة لما كثر بينهم الواقفون أموالهم وقفا خيريا على وجوه البر، وفي سبيل الله، كما تقدم من حديث جابر : «فلم يبق أحد كان له مال إلا حبس من ماله صدقة مؤبدة لا تشترى ولا توهب ولا تورث».

---

39) انظر صحيح مسلم بشرح النووى 85/11 وسنن أبي داود 117/3.
40) سورة البقرة الآية 215.
41) سورة الانفال : الاية 75.
42) انظر : الخراج لأبي يوسف، بتحقيق الدكتور أحمد الكبيسي.

فقد خشي بعض الصحابة من أن يؤدى هذا التداعي على الوقف الخيرى إلى انقطاع المواريث. وقد قام هذا الحذر في نفوسهم منذ أن أشهد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - زمن خلافته على وقفه الذي وقفه على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

فقد روى أبو بكر الخصاف عن عبد الله بن جعفر عن أم بكر بنت المسور عن أبيها أنه قال :

«حضرت عمر بن الخطاب حين قرأ علينا كتاب صدقاته وعنده المهاجرون فتركت (أي : لم أظلم) وأنا أريد أن أقول : يا أمير المؤمنين أنك تحتسب الخير وتنويه... وإني أخشى أن يأتي رجال قوم لا يحتسبون مثل حسبتك. ولا ينوون مثل نيتك فيحتجون بك فتقطع المواريث. ثم استحييت أن افتات على المهاجرين. وإني لأظن لو قلت ذلك ما تصدق منها بشيء» (44).

وهذا يعني : أن الوقف الخيرى قد يرد عليه الخوف من تعطيل أحكام المواريث المنصوص عليها في الكتاب العزيز. ولا يرد مثل هذا على الوقف الأهلي. يقول أحد الكتاب الأفاضل في الوقف (45).

وبناء على هذا - فيما يظهر - اتجه فريق من الصحابة إلى أن يحبسوا أموالهم على أولادهم وأعقابهم ويسمون ذلك صدقة أيضا لما فيها من ترجيح برهم وصيانة المال لطبقاتهم ودوام نفعه فيهم. فيكون في ذلك فتح طريق جديد لإزالة محذور قطع المواريث وحرمان الإنسان أولاده وأعقابهم من أمواله. بل فيه صيانة المال لانتفاع الأعقاب النازلة. دون أن يتمكن الأولاد الصلبيون من استهلاكه وتبديده... وهذا المعنى هو ما أشار إليه زيد بن ثابت - رضي الله عنه - حين قال : «ولم نر خيرا للميت ولا للحي من هذه الحبس الموقوفة. أما الميت فيجرى أجرها عليه. وأما الحي فتحبس عليه ولا توهب ولا تورث ولا يقدر على استهلاكها.

ويستأنس لهذا بنهي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لسعد بن أبي وقاص حين أراد أن يتصدق بكل ماله وأجاز له ذلك في الثلث وقال له : «الثلث والثلث كثير إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم فقراء يتكففون الناس» (46).

المصلحة في دوافع الوقف الـــذرى :

لا تقتصــر المصلحــة فــي الوقف الـذري علـــى المنفعة المادية للموقوف عليهم. ومجرد الأجر والثواب للواقف. ومجرد التكافل والتكامل للمجتمع... وإنما تتعدى ذلك إلى حقيقة الدوافع له وطبيعة البواعث عليه... إذ أن الأمور بمقاصدها. وإنما الأعمال بالنيات. والحكم على أي عمل إنما يرتكز أساسا على نوعية منطلقاته ومصادره ودوافعه الفكرية أو النفسية. وبقدر ما يكون في الدوافع من المصلحة المشروعة يكون في العمل نفسه من الشرعية والقبول.

ومما لا شك فيه أن للوقف عامة أهدافا عامة. وأن للوقف الذرى خاصة أهدافا خاصة (47).

وأصل الأهداف الخاصة في الوقف الأهلي قائم على أساس أن هذه الشريعة لم تغفل الجوانب الخاصة للطبيعة البشرية. فإن الإنسان يدفعه إلى فعل الخير دوافع عديدة لا تنفك في مجملها عن مقاصد الشريعة الإسلامية وغاياتها. ومن هذه الدوافع :

الدافع الديني : من حيث ما يعتقده الواقف. فيكون وقفه بهذا الشكل نتيجة من نتائج الرغبة في الثواب. أو التكفير عن الذنوب وبذلك فالوقف عبادة مستحبة كسائر العبادات المستحبة الأخرى وهو بهذا الوصف يكتسب الحماية من المنع منه والكف عنه. وليس من المعقول ولا المشروع منع المصلي من النوافل والمالك من التصدق والمتمكن من أداء العمرة. لأن ذلك من الوسائل

(43) انظر : حجة الله البالغة 2/116.
(44) انظر : الأوقاف للخصاف ص 7.
(45) انظر : مصطفى الزرقا، أحكام الأوقاف ص 13.
(46) انظر : سبل السلام 3/104، والبخارى بهامش الفتح 5/236 وصحيح مسلم بشرح النووى 11/81.
(47) انظر كتابنا : أحكام الوقف في الشريعة الإسلامية 1/139.

إلى مرضاة الله عز وجل. فكيف يمكن تصور صحة المنع عنها، والله يقول : **«وابتغوا الله الوسيلة»** (48).

الدافع النسبي : حيث تتغلب العاطفة النسبية في الغالب والأغلب ـ على النزعة الفردية والأنانية للفرد. فينتج عن ذلك غلبة العاطفة النسبية على الرغبة والمصلحة الشخصية فيندفع الواقف بهذا الشعور إلى أن يؤمن لذريته النسبية موردا ثابتا، صيانة لهم عن الحاجة والعوز في مستقبل أيامهم.. وما أكثر ما تشغل هموم العيال فكر أبيهم وقلبه ومشاعره.. وهي هموم نبيلة يكرمها الله ويثيب عليها.. وفي ذلك يقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «إن من الذنوب ذنوبا لا يغفرها إلا الهم للعيال».

وليس المراد بالهموم هنا هو مجرد الشعور به والإحساس بوطأته وإنما المراد من الهموم الغافرة للذنب ما وضع منها موضع التنفيذ، وما ترجم منها إلى تصرف ينفع العيال ويحقق مصالحهم، وأساليب ذلك كثيرة... ولعل الوقف الذرى من أبرزها خيرا، وأبعدها اثرا وأبقاها نفعا.

وفي هذا المعنى جاء توجيه الرسول الكريم لسعد بن أبي وقاص الذي مر ذكره قبل قليل، فقد عاد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في مرض موته، فقال له سعد : يا رسول الله إن لي مالا كثيرا ولا يرثني إلا ابنة لي.. أفأتصدق بكل مالي. فقال : لا، فقال : بشطره، فقال : لا. فقال : بثلثه. فقال رسول الله : الثلث والثلث كثير... إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس في أيديهم».

فهذا تقدير رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لموقع الذرية من أبيهم فإن بنتا واحدة لأب غني كانت جديرة برأي رسول الله في أن يجعل لها وحدها ثلثي الثروة واستقله، حيث استكثر على سعد أن يتصدق بثلث ماله... وكان رسول الله يود له أن يترك أكثر من ذلك فما بالك بمن نظر في مستقبل الأيام، واستشف من وراء الموت والغيب حال أولاده العديدين وذريته الممتدة فارقه أنين المريض العاجز، وشظف الفقير المعدم، وضياع الأرملة الوحيدة والمطلقة الحائرة.. فأراد أن يقطع لهم من حشاه سترا، ويسرج لهم من نور عينيه سراجا، فتغلب على حبه الفطرى للمال وحرصه الغريزى على الثروة، فوقف لهم أجود ما يجد، وأنفس ما يملك فأي مصلحة في منعه من ذلك من خلال العقل أو الدين أو الخلق الإنساني.

الدافع الغريزى : صحيح أن الشريعة الإسلامية لم تأت لتحقيق غرائز الإنسان وأهوائه المجردة، وصحيح أنها لا تجعل الهوى والشهوات مقياس الحق والصواب، فإن النص في ذلك صريح بقوله تعالى : **«ولو أتبع الحق أهوائهم لفسدت السموات والأرض»** (49).

غير أن الشريعة الإسلامية لا تمانع في تحقيق الغرائز الإنسانية المشروعة ما دامت تابعة لوضع الشارع الحكيم وغرضه من تحت الأذن الشرعي (50).. وعلى هذا الأساس كانت شهوة الإنسان الحبيسة في الزواج، وشهيته للمال في الملكية من الغرائز المشروعة في الإسلام، بل هي عبادة في مقاصدها الخيرة كما جاء في الحديث الشريف.

قالوا : يا رسول الله ـ أيضع أحدنا شهوته في رحم امرأته وله فيها أجر ؟

فقال : أرأيت لو وضعها في محرم أكان عليه فيها إثم ؟

ومن هنا نقول : أن غريزة الإنسان المشروعة تدفعه إلى التعلق بما يملك من مال، والاعتزاز بما قد يرثه من أرض أو دار أو عقار، وهو معني بالإحتفاظ بما تركه له أباؤه وأجداده من ثروة ثابتة حققت له الهيبة في النفوس، والمكان في الحياة والمكانة في المجتمع، وهو لذلك يخشى على هذا من اسراف ولد سفيه أو عبث قريب طامع، فيعمل على التوفيق بين هذه الغريزة وبين مصلحة ذريته بحبس العين عن التملك والتمليك، وإباحة المنفعة لهم من بقاء ذكرهم وحفظ مكانتهم وبقاء هيبتهم واحترامهم في بيئتهم ومجتمعهم.

---

48) سورة المائدة : الآية 35.

49) سورة المؤمنون الآية 71.

50) الموافقات للشاطبي 2/122.

ولما كانت هذه المشاعر تحث على الخير، وتبعث على المشاركة وتحقق التكافل والنفع، فلا وجه لمنع الوقف الذرى الذي يحقق ذلك كله، مادام مدفوعا إليه باغراض تحقق مصالح الناس المشروعة.

المصلحة في الوقف الذرى ومفاهيم العصر الحديث

تتميز عناوين الشريعة الإسلامية الإجمالية وقواعدها الكلية بصلاحيتها لكل زمان ومكان، نظرا لما تتسم به من شمولية في استيعاب المستجدات، ومرونة في تفريع الأحكام، مع إثبات أصولها على وجه التأييد.

ومن أجل هذا كانت حركات التجديد الإسلامية مجدية إلى أقصى حد ممكن فيه جعل الأحكام الفرعية قادرة على مواكبة التطور في كل عصر وجديرة بصياغة الحياة التشريعية والتنظيمية في كل ظرف، وصالحة لتغطية حاجات الناس ومصالحهم في كل بيئة.

وقد نتج عن هذا الواقع الثابت، صمود التشريعات الإسلامية على مستوى الفكر والنظر، حيث لم تستطع التشريعات الوضعية في العصر الحديث تجاوزها أو الحلول محلها على وجه التسليم، وأن محاولات الاستبدال التي جرت لبعض المفاهيم الإسلامية جاءت صورة مجتزأة من الصورة الإسلامية الأصلية لاتصل إلى كمالها ولا تقدر على تحديها - والأمثلة على ذلك كثيرة من تشريعات الأسرة والقوانين المدنية وغيرهما.

ومن هذا القبيل أيضا فكرة الوقف الأهلي في الإسلام، فبرغم ماعانت هذه الفكرة من تعسف الفكر الحديث وخطل التفكير، فإنها في النهاية قد فرضت نفسها على أكثر الأعداء الفكريين غلوا ولجاجة - وهم الذين توصلوا بالنظر العقلي القائم على المصلحة إلى تلمس مدى النفع في هذه الفكرة الإسلامية فانتهجوها نهجا يجعلها قريبة منها ولا تطابقها في الشمول والكمال، تتشبه بها ولا تضاهيها في التأصيل والتفريع، تجرى في ميدانها وهي عاجزة عن اللحاق بأدنى خطواتها، حيث يبقى بينهما ذلك الفرق الهائل في السبق الزمني وهو فضل لمن سبق، والسبق التشريعي وهو شاهد للأصالة، والسبق التنظيمي والتنظيرى وهو علامة النضج وجماع الارتقاء.

وفي هذا المقام نتحدث عن الوقف الأهلي في النظام الانجلو الأمريكي والنظام الفرنسي، فنقول : (51).

الوقف الاهلي في النظام الانجلو امريكي :

يعرف النظام الانجلو أمريكي اليوم نوعا من التصرفات المالية يسمى الترست (   ) وقد عرفه معهد القانون الأمريكي بأنه :

«علاقة أمانة خاصة بمال معين تلزم الشخص الذي يحوز هذا المال بعدة التزامات تهدف إلى استغلاله لصالح شخص آخر، وتنشأ هذه العلاقة نتيجة للتعبير عن إرادة إنشائها (52).

ويمكن تعريفه بما يقربه من الأفهام بأنه : وضع مال في حيازة شخص معين يمسى (الامين)، أو الوصي، ليستغله لمصلحة شخص آخر يسمى للمستفيد أو المستحق.

ويحقق (الترست) الأهداف التالية :

توفير الحماية للأرامل ويتم ذلك بأن يعهد الشخص (الواقف) بالأموال التي يريد تركها لزوجته، أو لذريته إلى أمين يتولى استثمارها وتسليم ريعها إلى هؤلاء ويسمى هذا النوع من الترست بـ (ترست السفيه)، لأنه يحمى السفهاء وغيرهم من الصغار أو عديمي الخبرة - ونظرا لعدم اقتصاره على حماية السفهاء فإن البعض يسميه (الترست الوافي).

من طريق هذا النظام (الترست) أمكن القيام بكثير من الأعمال ذات النفع العام التي تعتمد على تبرعات الأفراد والهيئات الخاصة، فبدلا من أن يقوم راغب التبرع بالإشراف على تحقيق الغرض النبيل الذي يريده، وقد لا تتوافر له الخبرة اللازمة ولا الوقت الكافي، فإنه يقوم بنقل ملكية الأموال المتبرع بها إلى أمين أو مجلس أمناء ليقوموا باستغلالها في تحقيق الغرض المقصود، ويسمى هذا النوع بـ (الترست الخيرى) (   ).

---

(51) راجع كتابنا : أحكام الوقف، 1 /29.

(52) انظر : القانون المدني المقارن للدكتور محمد لبيب شنب ص 67 بالرونيو.

والأمين أو الوصي في هذا النظام يصح أن يكون شخصا اعتباريا، كما يصح أن يكون شخصا طبيعيا، ونفضل الأولى لأنها أقدر على هذه المهمة.

ولهذا فإن المصارف وبعض الشركات الخاصة بالترست هي التي تناط بها هذه الأمور لعدم تأثرها بعوامل المرض والسفر والموت وما إلى ذلك.

ولا يشترط ـ في الترست ـ تعيين المستفيد بذاته، بل يجوز تعيينه بأوصافه أو طبقته، كأولاد المنشىء، أو أحفاده، أو الفقراء أو طلبة الكلية الفلانية ونحو ذلك... كما يجوز تخويل الأمين سلطة تعيين المستفيدين وتحديد نصيب كل منهم في غلة الترست.

ويتميز الترست الخيرى عن الترست الوافي (الأهلي) بأن الأول يجوز أن يكون مؤقتا أو مؤبدا. أما الثاني فلا يكون إلا مؤقتا كما أن من حق المجتمع كله ممثلا في المدعي العام أن يطالب أمام القضاء بتنفيذ الترست الخيرى، أما دعاوى الترست غير الخيرى فترفع من قبل المستفيدين.

وينتهي الترست في الحالات التالية :

1 ـ بحلول الأجل المحدد، إذا كان مؤقتا.

2 ـ بالرجوع فيه من قبل المنشىء إذا كان قد احتفظ لنفسه بهذا الحق في صيغة الإنشاء.

3 ـ بإرادة المستفيدين إذا أجمعوا على انهائه.

هذا موجز لنظام «الترست» وأنت ترى أنه قريب جدا إلى نظام الوقف الإسلامي، ولا يتميز عنه بميزة، ويبقى الفرق بعد ذلك بين النظامين تلك الثروة الفقهية الهائلة التي تركها العلماء المسلمون وهي ثروة تشهد لعلماء الإسلام بالتفوق النظرى من غير شك، والدقة التشريعية من غير منازع، والرحابة في النقاش الحر والجدل العلمي والاجتهاد القائم على الحجة الراسخة والدليل القويم.

الوقف الأهلي في النظام الفرنسي (53) :

يعرف القانون الفرنسي اليوم نوعا من التصرفات المالية التي لها شبه بالوقف (الأهلي)، فقد أباح هذا القانون أن يهب الأب أو يوصي بعقار إلى أحد أولاده بشرط أن ينتفع به مدة حياته ثم ينقله إلى أولاده من بعده.

ويطلق على هذا التصرف في القانون الفرنسي اسم : «الهبة المتنقلة».

ولها في القانون الفرنسي أحكام من أبرزها :

1 ـ من حيث التكيف.. يصح أن تكون العطية في اشهاد هبة أو وصية.

2 ـ ومن حيث صاحب الحق في التصرف.. هو الأب أو الأم أو الأخ.. الخ ممن عدهم القانون الفرنسي من بين الأقارب فقط.

3 ـ ومن له حق الانتفاع.. إذا كان المتصرف أحد الأبوين فإن الذي له حق الانتفاع أولا ، أولادهم بعد وفاتهم، ويلاحظ أن الانتقال يكون من درجة واحدة بلا فارق في الإنتفاع بين ذكر وأنثى.

والدافع إلى هذا الاستثناء (حيث أن الهبة المتنقلة غير شرعية في القانون الفرنسي من حيث المبدأ) هو الرغبة في السماح للأب أو الأخ بوقاية الصغير من إسراف وتبذير مورثه بغرض عدم جواز تملك جزء ولو صغير من أملاكه.

وهكذا نرى أن فكرة الوقف الأهلي في الشريعة الإسلامية قد انتقلت إلى بعض دول المتقدمة ماديا بعد أن اذعنوا لجدواها وتلمسوا مدى المصلحة الأكيدة منها، وأن هذا الاقرار من العقل البشرى المعاصر بصحة وجه المصلحة في الوقف الأهلي جدير بأن يجعل الذين ينفون عنه أي نوع من أنواع المصلحة أن يعيدوا النظر في موقفهم هذا بعد أن نهج الغربيون وهم قدوة بعض الناس عندنا ـ هذا النهج الإسلامي في (الترست) و(الهبة المتنقلة).

---

(53) أما الوقف الخيرى فإن القانون الفرنسي ينص عليه صراحة، ولنفس الغرض الذي يوقف المال من أجله، وقد عرفه القانون الفرنسي بأنه : «رصد شيء محدود من رأس المال على سبيل الدوام للعمل خيرى عام أو خاص».

مناقشة وجهة نظر المعترضين على الوقف الأهلي :

ناقشنا في المبحث الأول وجهة نظر القائلين بعدم مشروعية الوقف الأهلي في كتاب أو سنة. فبينا هناك مشروعيته في الإسلام.

وفي المبحث الثاني ناقشنا وجهة نظر بعض الفقهاء المانعين للوقف مثل شريح وأبي حنيفة في احدى الروايات عنه.

وفي هذا المكان سنناقش وجهة نظر المعارضين لفكرة الوقف الأهلي القائمة على أساس الاقرار بمشروعيته من حيث المبدأ إلا أنهم يعترضون على استمراره الآن لانتفاء المصلحة فيه وعدم الجدوى منه. قائلين أن المصلحة الآن إنما هي في عدمه لا في وجوده. ويبررون وجهة نظرهم هذه بقولهم :

1 ـ إن الوقف الأهلي يمنع مستحقيه من التصرف في الأموال الموقوفة فتخرج الثروة في ميدان التعامل والتداول إلى دائرة الركود والجمود. وهو بهذا يقضي على الملكية ومزاياها. وهذا مخالف للمصلحة الاقتصادية.

2 ـ أنه مدعاة لخراب الموقوفات من أرض وعقار ونحوهما نتيجة لسوء إدارتها من قبل النظار والمديرين لانتفاء المصلحة الشخصية فأدى ذلك إلى إهمالهم وعدم عنايتهم بها. وهذا مخالف للمصلحة العمرانية.

3 ـ إنه يورث التواكل في المستحقين الموقوف عليهم لأن دخلهم منه يقعد بهم عن العمل المنتج. اعتمادا على موارده الثابتة وهذا مخالف للمصلحة الإجتماعية (54).

هذه هي جملة المبررات التي اتخذها المعارضون للوقف الأهلي حجة لحملتهم عليه. وهي مبررات قد تعد من قبيل النظر المعقول في الظاهر فقط. حتى إذا ما اخضعت للبحث والنقاش فإنها تتلاشى كما يتلاشى الملح في الماء.

فماذا يمكن أن يقال في هذه المبررات ؟

أ) إن الأموال التي تشبه الوقف الذرى في عدم التعامل بها كثيرة جدا مثل الدوائر الحكومية والجامعات والمستشفيات ونحو ذلك مما لا حصر له... وأن للمصلحة فيها وجها آخر غير وجه الناحية الإقتصادية. فلا تقتصر المصلحة إذا على هذه الناحية دون غيرها... وأن ما يقال في الوقف الأهلي يجب أن يقال في هذه المباني والمنشآت الكثيرة... ولا يقول بذلك عاقل.

على أن أبرز أهداف الإقتصاد هو توفير الحاجات الضرورية للفرد والوقف الأهلي يحقق هذا الهدف لمجموعة من الناس.

ب) وأما قولهم ، أن الوقف يقضي على مزايا الملكية. فإننا نقول العكس. أى أن منع الوقف الأهلي هو الذي يؤدى إلى ذلك. لأن من مزايا الملكية حرية المالك في التصرف بماله بكل وجه مشروع. خاصة إذا كان يحقق له مصلحة مشروعة وهل هناك مصلحة أشد شرعية من شعور المالك بأنه تجاوب مع مسؤوليته تجاه مستقبل الفقراء والعاجزين والأرامل من ذريته ؟

كيف لا... ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد حذر من تضييع الذرية بقوله ، (كفى بالمرء إثما أن يضيع من يعول).

فماذا على مالك أراد أن يتلافى بماله ما يمكن أن يؤدى بعياله إلى الفاقة والضياع ؟

أما المبرر الثاني. فيقال فيه ، أنه ينطبق على جميع موظفي الدولة فهم جميعهم موكلون بأعمال ليست لهم فيها مصلحة شخصية. ولا يمنعهم ذلك من أداء واجبهم على الوجه المطلوب. استجابة لوازع الدين أو دوافع الضمير. أو قوارع العقاب والحساب.

ومديرو الأوقاف ونظاره من هذا القبيل أيضا. يقال فيهم ما يقال في أي موظف آخر.. والأمر بعد ذلك أمر إدارة وحزم وهي مسألة قد تشتد حينا وتتراخى حينا آخر. ولا يكون ذلك مدعاة لإلغاء الوظائف الحكومية من أساسها عند التقصير. وإنما هو مدعاة للإصلاح والتجديد على قدر المستطاع.

---

(54) انظر ـ الاقتصاد السياسي للدكتور عبد الحكيم الرفاعي.

وأما المبرر الثالث، فيمكن أن يقال فيه أيضا، أن آفة التواكل لا تقتصر على الموقوف عليهم وحدهم على فرض وجودها ظاهرة فيهم - وهو أمر مشكوك في شموليته - وإنما يتعداهم إلى بعض الوارثين وهم أكثر من مستحقي الوقف الأهلي بكثير - وكذلك الموصى لهم بمال. وهو سبيل يمكن سلوكه بمحاذاة سبيل الوقف... والمال الموصى به أو الموقوف كان سيصبح مالا موروثا لو خرج عن سبيل الوقف أو الوصية وهكذا نرى أن الوقف الأهلي أقل نسبيا لآفة التواكل المدعاة من حيث أنه تمليك للمنفعة دون العين على خلاف الإرث.

ومع هذا نقول، أننا لا ندعي أن نظام الوقف الأهلي نظام نموذجي في هذا الباب. وإنما فيه من بعض السلبيات ما يوجد في أي تصرف آخر من التصرفات المالية. غير أن العبرة بغلبة المصلحة على المفسدة وليس بخلوه من المفسدة تماما. وكما قلنا، فإن الخير المحض أو الشر المحض قلما يوجد في هذه الدنيا.

إن كل تدبير تشريعي فيه محاسن ومساوىء، ولا يخلو أمر من هذا التقابل. والعبرة في ايهما تطغى على صاحبتها. وقد رأينا أن في الوقف الأهلي من المصالح والمنافع ما يجل عن التقدير. وليست الكلمة خالصة للاقتصاد والنواحي المادية الأخرى. وإنما هناك مصالح غير مادية لها وزن كبير في السياق التشريعي على وجه الإجمال... ومن ذلك احترام رغبة المالك المشروعة في حفظ ماله من عبث الذرية وحفظ الذرية من عثرات الزمن. ووقاية نفسه من الأنانية والاستحواذ.



الوقف الإسلامي

وأثره في الحياة الاجتماعية بالمغرب

للأستاذ سعيد بوركبة

●● ألقيت هذه المحاضرة في المعهد العالي للدعوة الإسلامية بالرياض بمناسبة الزيارة التي قامت بها جمعية علماء خريجي دار الحديث الحسنية، بناء على الدعوة الموجهة إليها من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وذلك بتاريخ 22 فبراير 1983 ●●

خلق الله الإنسان في هذه الحياة ودعا بنيه إلى التعارف والتعاون، والتآزر والتناصح، والتكافل الاجتماعي، وأهاب بأقويائهم أن يساندوا ضعفاءهم، وبأغنيائهم أن يساعدوا فقراءهم، حتى يسعدوا بسعادتهم، ويسيروا في مسيرة واحدة متراصة، متلاحمة الأجزاء، ومن بين الظواهر التي تقوي الأواصر، وتشد الأزر، وتزرع المحبة في القلوب، ظاهرة الإحسان التي منها : الوقف في سبيل الخير.

ونظرا لأهميته ومكانته في المجتمع الإسلامي، فإني سألقي عليه بعض أضواء تكشف عن خطره العظيم.

أولا : تعريف الوقف :

فقد عرفه ابن عرفة بقوله :

1) «إعطاء منفعة شيء مدة وجوده، لازما بقاؤه في ملك معطيه ولو تقديرا».

وبنظرة فاحصة إلى هذا التعريف، نلاحظ فيه أن الوقف يقتصر على إعطاء منفعة شيء لشخص ما، أو لخدمة مصلحة إنسانية اجتماعية، ما دام ذلك الشيء على قيد الوجود، كما نلاحظ فيه : أن الملكية تبقى لصاحب الشيء الموقوف، ولا يمكن بيعه ولا هبته ولا إرثه كما يتضح ذلك فيما بعد.

وقد استبعد بكلمة منفعة : إعطاء الذوات.. والأصل في الحبس : المنفعة، وإن كان الحبس قد يكون للانتفاع كالمدارس، لأن الانتفاع إنما يصار إليه إن شرطه المحبس، أو جرى عرفه به (1).

ومما تجدر ملاحظته : معيار التفرقة بين مالك المنفعة ومالك الانتفاع، فمالك المنفعة، له أن يكريها، أو يعيرها لغيره، بينما مالك الانتفاع، ليس له إلا الانتفاع بنفسه، فلا يكري ولا يعير.

2) الوقف لغة : الحبس، يقال : وقف فلان داره على كذا، أي حبسها.

---

1) البهجة في شرح التحفة.

وشرعا ، أورد الفقهاء له عدة تعريفات، يتقارب بعضها مع بعض ـ فقد أورد فيه الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله قوله :

«أجمع تعريف لمعاني الوقف عند الذين أجازوه، أنه حبس العين وتسبيل ثمرتها، أو حبس عين للتصدق بمنفعتها، أو كما قال ابن حجر العسقلاني في فتح الباري :

«إنه قطع التصرف في رقبة العين التي يدوم الانتفاع بها، وصرف المنفعة».

فقوام الوقف، في هذه التعريفات المتقاربة ، حبس العين، فلا يتصرف فيها بالبيع، والرهن، والهبة، ولا تنتقل بالميراث، والمنفعة **تصرف لجهات الوقف على مقتضى شروط الواقفين** (2).

3) وقد قال عنه الدكتور زهدي يكن (3) :

«الوقف له معنيان ، معنى في اللغة، ومعنى في الاصطلاح.

ومعناه في اللغة ، الحبس والمنع، وجمعه ، وقوف، وهو مصدر وقف، تقول ، وقفت الدار، إذا حبستها، ولا تقول ، أوقفتها، لأنها لغة رديئة «ويطلق المصدر «الوقف» على اسم المفعول، فيقال ، هذا البيت «وقف» أي موقوف، ومن ثم جمع على أوقاف.

2) الأصل في مشروعية الوقف

والأصل في مشروعية الوقف ،

1) ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال ، «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة أشياء ، صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له». رواه الجماعة إلا البخاري وابن ماجة.

2) عن ابن عمر ، «أن عمر بن الخطاب أصاب أرضا من أرض خيبر، فقال ، يا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أصبت أرضا بخيبر لم أصب مالا قط انفس عندي منه، فما تأمرني ؟ فقال ، إن **شئت** حبست أصلها وتصدقت بها، فتصدق بها عمر على أن لا تباع ولا توهب ولا تورث، في الفقراء، وذوي القربى، والرقاب، والضيف، وابن السبيل، لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف، ويطعم غير متمول «وفي لفظ غير متأثل مالا». رواه الجماعة.

وفي حديث عمرو بن دينار، قال في صدقة عمر ،

«ليس على الولي جناح ان يأكل ويؤكل صديقا له غير متأثل». «وكان ابن عمر هو يلي الناس صدقة عمر، ويهدي الناس من أهل مكة، كان ينزل عليهم» أخرجه البخاري.

3) عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قدم المدينة، وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة، فقال ، من يشتري بئر رومة، فيجعل فيها دلوه مع دلاء المسلمين، بخير له منها في الجنة، فاشتريتها من صلب مالي «رواه النسائي، والترمذي، وقال ، حديث حسن (4).

وفي رواية للبغوي في الصحابة من طريق بشر بن بشير الأسلمي عن أبيه أنها كانت لرجل من بني غفار عين يقال لها ، «رومة» وكان يبيع منها القربة بمد، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ، تبيعنيها بعين في الجنة ؟ فقال ، يا رسول الله، ليس لي ولا لعيالي غيرها، فبلغ ذلك عثمان، فاشتراها بخمسة وثلاثين ألف درهم، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال ، أتجعل لي ما جعلت له ؟ فقال ، نعم، قد جعلتها للمسلمين».

وللنسائي من طريق الأحنف عن عثمان، قال ، «اجعلها سقاية للمسلمين وأجرها لك».

4) ـ أخرج ابن ماجة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ، إن مما يلحق المومن من عمله وحسناته بعد موته ، علما نشره، أو ولدا صالحا تركه، أو مصحفا ورثه، أو مسجدا بناه، أو بيتا لأبناء السبيل بناه، أو نهرا أجراه، أو

---

2) محاضرات في الوقف، ص ، 41، الطبعة 2، 1971 ـ دار الفكر العربي.

3) الوقف في الشريعة والقانون ص ، 41، الطبعة ، 2، 1971 ـ دار الفكر العربي.

4) نيل الأوطار، جـ 6 ص ، 127 لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني اليمني.

صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته».

ووردت خصال أخرى بالإضافة إلى هذه، فيكون مجموعها عشرا، نظمها السيوطي فقال :

إذا مات ابن آدم ليس يجري
عليه من فعال غير عشر
علوم بثها ودعاء نجل
وغرس النخل والصدقات تجري
وراثة مصحف ورباط ثغر
وحفر البئر أو اجراء نهر
وبيت للغريب بناه يأوي
إليه، أو بناه محل ذكر (5)

5) وعن أنس رضي الله عنه، قال : «لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، وأمر ببناء المسجد، قال : «يابني النجار ثامنوني بحائطم هذا، فقالوا : والله لانطلب ثمنه إلا إلى الله تعالى».

6) وعن سعد بن عبادة رضي الله عنه، أنه قال : يا رسول الله إن أم سعد ماتت، فأي الصدقة أفضل ؟ قال : الماء، فحفر بئرا، وقال : «هذه لأم سعد».

وعن أنس رضي الله عنه، أنه قال : «كان أبو طلحة أكثر أنصاري بجوار المدينة مالا، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء (بستان من نخيل بجوار المسجد النبوي) وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، فلما نزلت هذه الآية :

(لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) قام أبو طلحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن الله تعالى يقول في كتابه : لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون» وأن أحب أموالي إلي بيرحاء، وأنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله، حيث شئت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، قد سمعت ما قلت فيها واني أرى أن تجعلها في الأقربين، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه.

8) - وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال : «من احتبس فرسا في سبيل الله إيمانا واحتسابا، فإن شبعه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة حسنات» رواه أحمد والبخاري.

وبالنظر إلى ما ورد في هذه الأحاديث الشريفة، تتبين مكانة الوقف في الإسلام، وأنه كان شيئا عظيما ينمي عمل المحسنين، ويكون سببا في تخليدهم في الحياة من جهة، ومن جهة أخرى يكون مدعاة لمجازاتهم في الدنيا والآخرة، خاصة وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إن الصدقة الجارية التي يتصدق بها المحسن على غيره تبقى ثابتة في الحياتين : الدنيا والآخرة، وقد عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصدقة الجارية : الوقف الذي يقفه شخص ما على شخص آخر، أو على مصلحة إنسانية عامة..

وإذا كانت الصدقة الجارية لها هذه الفائدة الكبرى على صاحبها، فإن هنالك شيئين آخرين يشابهانها، ألا وهما :

1) العلم الذي يخلفه العالم للناس ينتفعون به في دينهم ودنياهم.

2) الولد الصالح الذي يخلف أباه في هذه الحياة، فإن أباه بعد وفاته، يعطيه الله من الأجر الشيء الكثير..

وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نوه بالصدقة الجارية، فإنما قصد من وراء ذلك حث أمته على التعاون فيما بينها، والتكافل فيما بين أفرادها، وجماعاتها.

والتعاون والتكافل في المجتمع من شأنهما أن يساندا مساندة فعالة، تجعل من أفراده يشعرون وكأنهم في أسرة واحدة يتعاطفون فيما بينهم، يحسن أغنياؤهم إلى فقرائهم ومن لهم فضل أموال إلى من ليس لهم فضل هذه الأموال.

5) فقه السنة للسيد سابق، المجلد : 3 ص : 379.

وإذا كان المسلمون يدخلون في اعتبارهم ذوي القربى، واليتامى، والمساكين، وأبناء السبيل، والفقراء، والعاطلين عن العمل، والأرامل وغيرهم، فإنهم يكونون عندئذ مؤمنين حقا، فيصدق عليهم قول الرسول صلى الله عليه وسلم : «المومن للمومن كالبنيان يشد بعضه بعضا».

وهكذا تتكون منهم دعامة قوية وسد منيع أمام عوادي الزمان ومصائبه، وإن أعظم شيء يفعله المسلم تجاه أخيه المسلم الفقير المحتاج، أن يدخل عليه السرور، ويسهم في إزالة شدته وكربته اللتين يعاني منهما، ويكون بعمله هذا مشكورا عند الله، وعند الناس، وينطبق عليه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من فرج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة..» الحديث.

فالوقف إذن، يقوم بدور فعال في إنقاذ الكثير من مخالب الفقر والخصاصة، ويجعله يعيش عيشة هنيئة في رغد واتساع.

أركان الوقف

أركان الوقف أربعة :

الواقف، والموقوف، والموقوف عليه، والصيغة.

أولا : الواقف : وهو الذي ينشئ الوقف.. وحتى يصح وقفه، لا بد من أن يتوفر على عدة شروط :

1) أن يكون أهلا للتبرع. 2) بالغا. 3) عاقلا. 4) حرا. 5) غير محجور عليه لسفه، أو غفلة، أو دين.

فالبلوغ إذن، شرط أساسي في صحة الوقف وإجازته، وعليه، فوقف الصبي لا يصح، سواء كان مميزا أو غير مميز.

كذلك العقل من الشروط الأساسية، أما المجنون، فلا يصح وقفه، لكونه لا يتوفر على عنصر الإدراك، وإذا كان المجنون على هذه الوتيرة، فإن المعتوه يقاس عليه، وإذا صح قياسه عليه، فإن وقفه يكون باطلا.

والفرق بين الجنون والعته - كما يقول الدكتور زهدي يكن - أن الجنون خلل في العقل تجري معه الأقوال والأفعال على خلاف ما يوجبه العقل، والعته : نقص في العقل يختلط معه الكلام، فبعضه يشبه كلام العقلاء، وبعضه يشبه كلام المجانين، وكذلك باقي أموره وأفعاله [6].

وإذا كان الفقهاء يشترطون في الواقف أن يكون بالغا عاقلا، فإن هناك فيه شرطا آخر، لا يقل أهمية عنهما ألا وهو عدم الحجر عليه، أما المحجور عليه، فإن وقفه باطل.. ويحجر على الشخص : اما لسفه، أو غفلة، أو دين قد أحاط بكل أحواله.

فالسفه إذن، هو تبذير الأموال وانفاقها في غير مجالها، بينما الغفلة : انفاق الأموال في مواضع الإنفاق، ولكن صاحبها لا يستطيع فهم المعاملات المالية، بل يغبن فيها، إما لانقطاعه عن الأسواق، وإما بثقته في غير من هو أهل للثقة، ومنشأ ذلك : نقص في الإدراك في مواضع البيع والشراء [7].

أما الشخص الذي أحاط الدين بماله، فإنه لا يصح وقفه، اللهم إلا إذا أجازه غرماؤه، فعندئذ يكون جائزا.

هذا ما يخص الواقف، وقبل أن أنتقل إلى الموقوف، أي أن أشير إلى بعض العناصر التي لها صلة بالواقف، وهي عنصر الملكية في الموقوف، وعنصر القربة في الوقف، وشروط الواقفين.

ملكية الموقوف

اتفق العلماء، على أن الوقف لا يكون إلا في عين مملوكة لصاحبها ملكا تاما، وأن تكون معرفة تعريفا كاملا، فإذا كانت معروفة بالشهرة اكتفى بشهرتها عند الحنفية، وإن لم تكن معروفة بالشهرة، وجب حدها بحدودها الأربعة.

---

6) الوقف في الشريعة والقانون، ص : 26.

7) انظر أبا زهرة في كتابه : محاضرات في الوقف ص : 124.

والملكية في الوقف ـ بناء على ما قاله أبو زهرة ـ **لا تخرج عن الواقف عند المالكية، وفي بعض** الأقوال عند الأمامية، فقد قيل عنهم :

إن الملكية تبقى للواقف، فلا تخرج عن ملكه، ولكنها ملكية مقيدة، فليس له حق بيعها، ولا التصرف في رقبتها..

والملكية عند بعض الامامية، تنتقل إلى الموقوف عليهم كالمذهب الحنبلي..

وبعض العلماء من الشيعة الامامية، يقول : إن الوقف إن كان على جهات عامة لا تملك، كالفقراء والمساكين، والمصاح، والقناطر، كان الملك لله.

وإن كان الوقف في غير ذلك فالملك للموقوف عليهم..

على أن القول الراجح عند الامامية، هو ما يتفق مع رأي الإمام مالك، وهو أن الملكية لا تخرج عن ملك الواقف، وفقا لما قاله خليل بن اسحاق في مختصره :

«والملك للواقف لا الغلة».

وروى هذا القول عن الإمام أحمد، وجاء في «المغنى» أنه ينسب إلى الشافعي رضي الله عنه.

قال أبو زهرة : وحجة القائلين بكون الملكية لا تخرج عن المالك : إنها تقوم على النص وعلى وجوه من الرأي.

أما النص فهو قول النبي صلى الله عليه وسلم لعمر في بعض الروايات :

«حبس الأصل وسبل الثمرة».

وتحبيس الأصل لا يقتضي خروجه عن ملك الواقف، بل إقراره في ملكه.

وأما الرأي فلأن الوقف إنما هو تصرف بين غلات الأعيان الموقوفة ولم يتجاوز ذلك إلى الأعيان إلا بالقدر الذي يلزم، لاستيفاء الغلات منها، وذلك لا يقتضي أن تخرج الأعيان عن ملك صاحبها.

والملكية عند الإمام أحمد بن حنبل، تخرج عن ملك الواقف إلى ملك الموقوف عليهم، بينما هي عند أبي حنيفة **لا تنتقل في الوقف اللازم، بل تكون حقا لله تعالى،** لأنه إزالة مالك عن العين والمنفعة على وجه القربة بتمليك المنفعة، فانتقل الملك لله..

والملكية عند الشافعية ومذهب الحنفية في أرجح الأقوال، تخرج من ملك الواقف إلى غير مالك من العباد، فتكون على ملك الله تعالى، وعلى ذلك الظاهرية ومن نحا نحيهم من الفقهاء.. فقد قال ابن حزم في كتابه : المحلى :

«إن الحبس ليس إخراجا إلى غير مالك، بل إخراج إلى أجل المالكين، وهو الله سبحانه».

عنصر القربة في الوقف :

عندما شرع الوقف، ليكون صدقة يتقرب بها الواقف إلى الله سبحانه وتعالى بالإنفاق في أوجه البر بالصدقة الجارية، وفق ما ورد في الحديث الشريف.

ففي نطاق المذهب المالكي : لا يشترط عنصر القربة في جهة الوقف، بل المشترط ألا يكون معصية، كالوقف على شراء أسلحة في حرب محرمة يكون فيها اعتداء وبغي..

وفي نطاق المذهب الشافعي : لا يشترط عنصر القربة في الوقف ابتداء، بل المشترك ألا يكون في معصية..

أما في نطاق المذهب الحنبلي : فإنه يشترط أن يكون على بر، أو على أمر معروف، يدل على ذلك ما ورد في الشرح الكبير من المقنع، حيث نص على أن الوقف لا يجوز إلا على بر أو معروف كولده، وأقاربه، والمساجد، والقناطر، وكتب الفقه، والعلم، والقرآن ، والسقايات، والمقابر، وفي سبيل الله، وإصلاح الطرق، ونحو ذلك من القرب، ويصح على أهل الذمة، لأنهم يملكون ملكا محترما.

وتجوز الصدقة عليهم، قال الله تعالى :

﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم، ومن يتولهم، فأولئك هم الظالمون﴾.

وإذا جازت الصدقة عليهم، جاز الوقف عليهم، كالمسلمين.

وروي أن صفية بنت حيي بن أخطب زوج النبي صلى الله عليه وسلم وقفت على أخ يهودي لها.

وأما في نطاق المذهب الحنفي : فقد شدد الحنفية في اشتراط الصدقة أكثر من غيرهم، فاشترطوا أن يتمحض الوقف لجهة البر والقربة، ولو مآلا، فهم أجازوا الوقف على من لا قربة له في الوقف عليه، ولا معصية، على شرط، ألا يتمحض الوقف له، بأن يكون على جهة لا تنقطع، وهي لا تحصى آحادها ولا تستوعب.

وتجدر الإشارة، إلى أنه يشترط لتحقق القربة عند الحنفية أمران :

1) أن تكون قربة في نظر الشرع الإسلامي،
2) أن تكون قربة في نظر الواقف (3).

شروط الواقفين

أولا : في نطاق المذهب المالكي :

يرى المالكية، أنه إذا اشترط الواقف في وقفه حرمان البنات من الاستحقاق في الوقف، أو تقييد استحقاقهن بعدم الزواج، فإن ذلك الشرط يكون ممنوعا. وقد اختلفوا مع اشتماله على هذا الشرط على خمسة أقوال :

1) أن الوقف يفسخ، وإن حازه الوالي عليه والمستحقون.

2) أن الوقف يفسخ، ويعود ملكا حرا لمالكه إذا لم يكن قد حيز، فإن كان قد حيز لم يفسخ، ولا يدخل البنات لتمام أركانه، ولكنه يكون آثما، لأنه ارتكب محرما.

3) أن يدخل فيه البنات، ويلغى الشرط، وإن حيز، وذلك لأن الشرط محرم، فلا يلتفت إليه، وذلك لحق البنات الذي نهي عن حرمانهن منه.

4) أنه إن كان لم يحز، فإن البنات يدخلن ويلغى الشرط، وإن حيز، لا يدخلن ولا يلغى الشرط، إلا إذا رضي الموقوف عليهم، إذ الحيازة جعلت لهم حقا عينيا، فلا يسلم حق البنات إلا برضى هؤلاء.

5) أنه لا يفسخ ولا يدخل فيه البنات، إلا برضى الموقوف عليهم، سواء، أحازوا الوقف أم لم يحوزوه، لأن الوقف أوجد للموقوف عليهم حقا، فلا يسلم حق البنات إلا برضاهم، وقد اعتمد في ذلك على ما ورد في المدونة من أن عمر بن عبد العزيز، هم بإبطال الأحباس التي فيها حرمان البنات.

ثانيا : في نطاق المذهب الحنفي :

أوضح العلامة ابن القيم الجوزية في كتابه ، اعلام الموقعين، ج ، 3 ص ، 94 ـ 95 أن شروط الواقفين أربعة ،

شروط محرمة في الشرع، وشروط مكروهة لله سبحانه وتعالى، وشروط ترك ما هو أحب إلى الله ورسوله، وشروط تتضمن فعل ما هو أحب إلى الله ورسوله..

فالأقسام الثلاثة الأولى، لا حرمة لها ولا اعتبار، والقسم الرابع هو الشرط الواجب الاعتبار.

قال أبو زهرة ، وبهذا التقرير من تلميذ أبي تيمية، يتبين أنه يرى أن كل شرط يخالف أمرا مقررا في الشريعة، أو أصلا من أصولها، أو يخالف أمرا حبب إليه الإسلام، ولو لم يوجبه، لا يكون له اعتبار الشرط الشرعي، وفي الحقيقة، إن ابن القيم كشيخه ابن تيمية وكأكثر المذهب الحنبلي، ينظرون في الأحكام إلى المآلات، وهو ما يسمى في الفقه الإسلامي بالذرائع، فإن الحكم فيها يأخذ حكم المآل، فإذا كان الفعل في ذاته مباحا، ولكنه يؤدي إلى حرام، يكون حراما، كبيع السلاح في الفتن، فإنه عند الحنابلة يكون باطلا، لأنه يؤدي غالبا إلى أن يسهم حامل السلاح في هذه الفتن القائمة، وذلك حرام، فما يؤدي إليه غالبا يكون حراما.

وأما شروط **الواقفين بالنسبة للمذهب الحنفي،** فيرى فقهاؤهم أنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام ،

---

(3) انظر أبا زهرة في كتابه ، محاضرات في الوقف، ص ، 87.

1) شروط مبطلة للوقف، مانعة من انعقاده، وهي الشروط التي تنافي اللزوم، والتابيد كان يشترط الواقف عند إنشاء الوقف أن يكون له حق بيعه، أو هبته، أو أن يعود إلى ورثته بعد موته، أو يصير ملكا لهم عند احتياجهم إليه.

2) شروط باطلة، إذا اقترن بها الوقف صح، وبطلت هي من غير أن تؤثر فيه، وهذه هي الشروط التي يكون منهيا عنها، أو مخالفة للمقررات الشرعية، أوليست في مصلحة المستحقين، كاشتراط نقود يعطيها المستحقون في سبيل نيل استحقاقهم من الغلات، فإن هذه الشروط تكون باطلة ويصح الوقف.

3) شروط صحيحة، يجب الأخذ بها وتجب رعايتها والعمل على تنفيذها، وهي الشروط التي لا تنافي مقتضى الوقف، وليس فيها مخالفة للمبادئ الشرعية، ولا ضرر بالوقف والمستحقين كاشتراط الغلات لجهة معينة، واشتراط أداء دين ورثته من الغلات إذا لزمتهم ديون، واشتراط أن يكون لمتولي الوقف الزيادة والنقصان في المرتبات، واشتراط أن يكون الاستحقاق في الغلات على مقدار الحاجة، واشتراط الصرف لأقاربه الفقراء على جهة الأولوية في الأوقاف الخيرية..

فكل هذه الشروط يجب الوفاء بها، ويجب تنفيذها (9).

فإذا تفهمنا هنا عن هذه الشروط، فإن هناك شروطا عشرة أخرى، لها أهميتها، وقد كثر استعمالها في أوقاف المتأخرين، وهذه الشروط، هي الزيادة والنقصان، والإدخال والإخراج، والإعطاء والحرمان، والإبدال والاستبدال، والتغيير والتبديل.. وقد أوضح أبو زهرة بأن هذه الشروط متداخل بعضها في بعض.. فالإعطاء والحرمان يدخلان في الإخراج والإدخال، ويدخلان في الزيادة والنقصان، والاستبدال يدخل في الأفعال.

فالزيادة : أن يزيد الواقف في أحد الأنصبة، والنقصان : أن ينقص من نصيب مستحق معين، أو جهة معينة.. والإدخال : هو جعل من ليس مستحقا في الوقف من أهل الاستحقاق والإخراج : أن يجعل المستحق غير موقوف عليه، بأن يخرجه من صفوف المستحقين..

والإعطاء : أن يؤثر بعض المستحقين بالعطاء مدة ودائما..

والإبدال : أن يخرج العين الموقوفة عن جهة وقفها ببيعها..

والاستبدال : شراء عين أخرى تكون وقفا بدلها.
والتغيير : هو ما يلحق المصارف والأعيان الموقوفة..
والتبديل : هو التبديل الذي يلحق كا الأعيان الموقوفة والمصارف أيضا..

والتفضيل : أن يزيد الواقف في نصيب بعض المستحقين، ولا يزيد في نصيب آخر، بينما التخصيص هو أن يميز بعض المستحقين بشيء لا يعطيه لغيرهم.

تلكم كانت أهم الشروط التي تشترط في الوقف.

ثانيا : الموقوف :

أكثر الفقهاء على أن الوقف يكون على وجه التأبيد، وقد خالف في ذلك الإمام مالك والامامية من الشيعة، وقرروا أن الوقف يجوز أن يكون مؤقتا..

ولذلك اشترط الحنفية أن تكون العين الموقوفة صالحة للبقاء، ليمكن حكم التأبيد فيها.. ولهذا قرروا أن الأصل في الوقف أن يكون عقارا، وجواز وقف غير العقار يجيء على خلاف الأصل.. وقد قرروا أن المنقول يجوز أن يكون وقفا في أحوال استثنائية :

أولها : أن يكون تابعا للعقار، والتابع للعقار قسمان :

1) ما اتصل بالعقار اتصال قرار وثبات، وذلك كالبناء والأشجار، لأن البناء والأشجار عندهم من المنقول، وليست من العقار، وقد خالفهم الإمام مالك رضي الله عنه. وهذا النوع من المنقول يدخل في العقار تبعا له من غير نص عليه.

---

9) أبو زهرة : محاضرات في الوقف، ص : 143 ـ 144.

2) ما كان منقولا وخصص لخدمة العقار، كالمحاريث والبقر العوامل فيها، ونحو ذلك مما هو مخصص لخدمتها، وهذه تدخل في الوقف عند الحنفية بالنص عليها.

ثانيها : أن يكون قد ورد أثر بجواز وقفه، كوقف الأسلحة والكراع، (الحيوانات المخصصة للحروب) وهذه يجوز وقفها، لأنه يروى أن خالد بن الوليد، قد وقف سلاحه للغزو في سبيل الله تعالى.

ثالثها : إذا جرى به عرف، وذلك كوقف الكتب والمصاحف، فإن العرف قد جرى بوقفها، والعرف مصدر فقهي عند الحنفية ما لم يعارض نصا، وإلا كان عرفا فاسدا، والعرف الفاسد غير معتبر بإجماع العلماء.

وإذا كان الحنفيون يشترطون في الموقوف أن يكون - في الأساس - عقارا، فإن غيرهم من المالكية والشيعة الأمامية، والشافعية والحنابلة، أجازوا وقف المنقول، كما أجازوه في العقار.

ويجب لفت النظر، إلى أنه يجوز وقف المنقول في المذهب المالكي، سواء أكان عينا ذهبا وفضة بقصد السلف، كما ورد في المدونة، أم كان طعاما بقصد السلف.. وفي هذا الأخير خلاف داخل المذهب المالكي..

فبعض الفقهاء قال بجواز وقف الطعام. وبعضهم قال : بعدم الجواز.. والراجح الأول - وإلى ذلك أشار العلامة خليل في مختصره حيث قال : «وفي وقف كطعام تردد».

وقصد بالتردد تردد المتأخرين من الفقهاء في النقل، أو لعدم نص المتقدمين.. أم كان حيوانا، أم عرضا من العروض التجارية..

وإلى ما ذكر أشار الإمام ابن عاصم في تحفته حيث قال :

الحبس في الأصول جائز وفي
منوع العين بقصد السلف
ولا يصح في الطعام واختلف
في الحيوان، والعروض من سلف

وإذا جاز الوقف في العقار المفرز، فهل يجوز في العقار المشاع ؟

وجوابا على ذلك، أنه يجوز في المشاع، كما جاز في المفرز عند بعض المذاهب الفقهية.

فقد قال أبو زهرة في هذا الصدد ما يأتي :

يرتبط الكلام في الشيوع بالكلام في اشتراط **القبض..** فالفقهاء الذين اعتبروا الوقف تاما من غير حاجة القبض يجيزون الوقف مع الشيوع، والذين قد اشترطوا القبض، حكموا بأن الوقف لا يتم مع الشيوع بل لا بد من الإفراز والقسمة.

فمالك رضي الله عنه، **شدد في اشتراط القبض..** ولم يكتف منه بالتمكين، بل **اشتراط الحيازة سنة،** ومنع وقف المشاع قبل قسمته، لأن الحيازة لاتتم مع الشيوع.

ومحمد من أئمة الفقه الحنفي الذي اشترط القبض لتمام الوقف، قرر : ان وقف المشاع لا يتم إلا بعد قسمته، إذا كان قابلا للقسمة، وعلى ذلك قسم المشاع إلى قسمين :

- أحدهما : مشاع يقبل القسمة، وهذا لا يتم الوقف فيه إلا بالقبض.

- ثانيهما : مشاع لا يقبل القسمة، فالوقف فيه، يتم من غير حاجة إلى القسمة.

وأساس التفرقة عند الامام محمد : أن المطلوب **هو القبض الكامل..**

فالقبض الكامل فيما يقبل القسمة، **يكون بالقسمة..** والأعيان التي لا تقبل القسمة أكمل **قبض فيها هو التمكين** من الانتفاع بها (10).

ثالثا : الموقوف عليه :

والموقوف عليه، إما أن يكون إنسانا : واحدا، أو متعددا، وإما أن يكون مؤسسة اجتماعية أو ثقافية، وإما أن يكون مكانا مقدسا، أو حيوانا أو غير ذلك..

وأيا ما كان الموقوف عليه، فقد اشترط فيه أن يكون الوقف عليه قربة في ذاته ولدى الواقف..

---

10) محاضرات في الوقف لأبي زهرة.

«ويتفرع عليه : ما وقفه غير المسلم على فقراء المسلمين وأهل ملته وما وقفه المسلم على فقراء المسلمين وغير المسلمين. وما وقفه المسلم وغير المسلم على بيت المقدس. وما وقفه غير المسلم على مسجد غير بيت المقدس. وما وقفه المسلم وغير المسلم على بيعة أو كنيسة..

فالأربعة الأولى صحيحة. والخامس غير صحيح..

وقد اضاف الدكتور زهدي يكن - زيادة على ما سبق - عدم صحة الوقف على الأغنياء. وعدم اشتراط وجود الموقوف عليه. وقت الوقف. وعدم اشتراط أن يكون الوقف على الأشخاص. واشتراط ألا يكون الموقوف عليه ميتا. وعدم اشتراط أن يكون الموقوف عليهم معدودين ومحصورين.

رابعا : الصيغة :

والصغية. هي رابع الوقف. ولها ألفاظ متعددة . وكما تكون صريحة. تكون كناية.

فالصريحة. كأن يقول الواقف : حبست أرضي. أو داري على الفقراء. أو على أولادي. أو على غيرهما.

والكناية : لا بد فيها من النية. كأن يقول : أرضي جعلتها للفقراء. فإن تعورف الوقف بهذا اللفظ. كانت وقفا بدلالة العرف. وإلا سئل عن قصده. فإن كانت نيته منصرفة إلى الوقف كانت وقفا. وإلا كانت ميراثا. لا وقفا (11).

4) أقسام الوقف

والوقف أقسام متعددة. وأشهرها قسمان :

1) وقف خيري.

2) وقف أهلي أو ذري أو معقب.

فالوقف الخيري. هو ما يقفه الواقف على وجه البر والإحسان. ويتعلق بأشياء كثيرة. وهو قد كان - وما يزال - معمولا به إلى الآن في كثير من الدول العربية والإسلامية..

والوقف الأهلي. هو الذي يقفه الواقف على أولاده. أو على أولادهم إلى أن ينقرضوا.. وتسميته بالأهلي تسمية مصرية..

أما السوريون فيسمونه الوقف الذري..

أما عندنا في المغرب فيسمى : **الوقف أو الحبس المعقب.** غير أن مما يجب لفت النظر إليه. أن الوقف الأهلي ألغي في سوريا. مثلما ألغي بعد ذلك بقليل في مصر. بقانون رقم : 180 سنة 1952. وأعقبه قانون آخر رقم : 247 سنة 1953. وقد عدل رقم : 547 سنة 1953 (12) فجعل هذا القانون النظارة على الأوقاف الخيرية كلها لوزارة الأوقاف عليها ولاية بل تكون النظارة للمحكمة. مالم يشترط الواقف النظر لنفسه.

وإن الباعث على إلغاء الوقف الأهلي في مصر - كما يقول أبو زهرة - يتفق مع المنطق الذي قام عليه الإصلاح الاقتصادي والاجتماعي في مصر. فإن إزالة الإقطاع والحد من الملكية الزراعية كانت تقتضي ذلك حقا. لأن أراضي زراعية كثيرة كانت موقوفة. وقفا أهليا. وكان هذا الوقف يبلغ في مصر نحو 19 ألف فدان كل عام (13).

وقد ألغيت من قانون 1946 : الأحكام التي تتخالف مع قانون إلغاء الوقف الأهلي. وما انبنى عليه من قوانين.

وبإلغاء الوقف الأهلي في مصر وسوريا. وبالحقوق التي اكتسبتها وزارة الأوقاف. بالنسبة للأوقاف الخيرية. انقطع الوقف بشطريه : الأهلي. والخيري.

والأهلي مقطوع بحكم القانون. والخيري. قطع لما لوحظ من الانقطاع بين ذرية الواقف. والوقف والتصرف المطلق لوزارة الأوقاف في إرادته. بل إنه لوحظ أن الذين وقفوا - وكان لهم حق الرجوع - رجع كثير منهم عن أوقافهم..

وانتهى أبو زهرة إلى القول بأنه لم يبق من الأوقاف الخيرية إلا وقف المساجد. وما يوقف عليها. فإن الناس ما زالوا يقبلون على هذا النوع من الوقف الخيري..

---

11) الوقف في الشريعة والقانون ص : 39 - 40.

12) محاضرات في الوقف لأبي زهرة. ص : 38.

13) المرجع السابق : ص : 38 - 39.

ولا شك أن أحجام الناس عن الوقف الخيري قد يكون سببا في تجنب عيوب الوقف بشكل عام، ولكنه من الناحية الاجتماعية، لا يخلو من ضرر..»

ومما تجدر ملاحظته، أن هناك من البلدان العربية من ألغت الوقف مطلقا، سواء منه : الخيري، أو الذري، وهذا فيه قطع الطريق على المحسنين من أن يستمروا في البرور، كما هو حرمان لعدة فئات من المجتمع من أن يتمتعوا بأنواع البر والإحسان، وخدمة لمكرمة التكافل الاجتماعي التي نادى إليها الإسلام..

أما في المملكة المغربية، فإن المشرع المغربي قد الغى في غضون سنة 1977 الحبس المعقب عندما تأكد من ضالة مردوده على الموقوف عليهم، وتعرض الكثير من الأوقاف إلى الخراب والاندثار ولم تجد من يرممها ويصلحها، وقد كان هذا بناء على فتاوى المجالس العلمية ورابطة علماء المغرب.

وكانت المجالس العلمية التي أفتت في الموضوع آنذاك، تتجسد في :

1) المجلس العلمي بفاس.
2) المجلس العلمي بمكناس.
3) المجلس العلمي بمراكش.
4) المجلس العلمي بتارودانت.
5) المجلس العلمي بتطوان.
6) الأمانة العامة لرابطة علماء المغرب بطنجة.

واعتبارا لمحتوى هذه الفتاوى، وإعمالا لمضامينها، ألغى المشرع المغربي الحبس المعقب، مراعاة منه للأوقاف المتلاشية التي لم تجد من يصلحها، ومراعاة منه لمصالح المحبس عليهم أيضا، وذلك بظهير شريف بمثابة قانون رقم : 33. 77. 1 بتاريخ 24 شوال 1397 (8 أكتوبر 1977) في شأن الأحباس المعقبة والمشتركة، وقد نشر هذا الظهير في الجريدة الرسمية تحت عدد : 3388 مكرر، بتاريخ 26 شوال 1397 (10 أكتوبر 1977).

وقد اشتمل هذا الظهير على 8 فصول :

تناول في **الفصل الأول** منه عدة تعاريف للحبس المعقب...

وفي الثاني : إمكان الرجوع في الحبس من طرف المحبس متى كان الحبس على الذرية، أو العقب، بينما لم يستطع أن يرجع في الحبس إذا كان مخصصا لجهة البر والإحسان.

وفي الثالث : أوضح بأنه يمكن تصفية الحبس المعقب بمبادرة من السلطة المكلفة بشؤون الأوقاف، إذا تبين لها أن المصلحة العامة، أو مصلحة المستفيدين تستوجب ذلك.

وفي الرابع : بين أن تتم التصفية في الحالة، وفقا لمقتضيات الفصول : 5، 6، 7، 8.

وفي الخامس : بين أن الأوقاف العامة تستحق من كل حبس معقب تقررت تصفيته، نسبة الثلث، واستثنى من ذلك حالتين لا يمكن للأوقاف العامة أن تأخذ منهما أية حصة، وهاتان الحالتان، هما :

1) إذا كان المحبس عليهم يسكنون دارا ولا يملكون غيرها.

2) إذا كان الأمر يتعلق بأرض فلاحية لا تتجاوز مساحتها 10 هكتارات، وكانت هي المورد الوحيد الذي يتعيش منه المحبس عليهم.

وفي السادس : بين أنه إذا كان ورثة المحبس ما زالوا كلا أو بعضا على قيد الحياة، سواء كانوا هم المستفيدين وحدهم أو معهم غيرهم أو كان بعضهم مستفيدا، وبعضهم محروما، فلا يقسم الثلثان الباقيان إلا بين الورثة، ذكورا وإناثا طبق الفريضة.

وإذا انقرض ورثة المحبس، يقسم الثلثان الباقيان على المستفيدين من الحبس، **حسب** الحصة المحددة، لكل واحد منهم في رسم التحبيس، ويعتبر الحجب في هذه الحالة ملغى **بقوة القانون،** ويستحق المحجوبون نصيب آبائهم في القسمة.

وفي السابع : بين أنه يعهد بإجراء التصفية إلى لجنة خاصة، يحدد تشكيلها، ومسطرة عملها بمقتضى

مرسوم... واعتبر القاضي المكلف بشؤون القاصرين عضوا بقوة القانون في هذه اللجنة كلما تعلق الأمر بمستفيد قاصر تحت ولايته.

ومن الملاحظ أنه صدر فيما بعد، مرسوم يتعلق بالتصفية..

وفي الثامن : نص على نشر الظهير المذكور أعلاه بمثابة قانون بالجريدة الرسمية وبهذا الظهير الشريف ألغيت الأوقاف المعقبة بالمغرب، ولم يبق الآن فيه إلا الأوقاف الخيرية..

وبهذا نكون قد انتهينا من الشق الأول من الموضوع، وهو : الأوقاف الإسلامية..

وننتقل الان إلى الكلام عن الشق الثاني وهو، أثر الأوقاف الإسلامية في الحياة الاجتماعية بالمغرب.

وبالرجوع إلى المظان التي تتعلق بالأوقاف، نجد بعضها يوضح - بجلاء - مكانتها وأثرها في الحياة الاجتماعية بالمغرب لا في المجالات الإنسانية فحسب، وإنما في مجالات الحيوانات البكماء، ومن بين آثار هذه الأوقاف، أنها كانت سببا في التخفيف من بؤس البؤساء، وسببا في إبعاد شبح الأمراض التي تعكر صفو حياة الإنسان واستقراره وهدوءه.

ولا شيء يبعد الأمراض عن الإنسان وينفيها عنه أكثر من إنشاء مستشفيات، تخفف من بلوائها، سواء كانت هذه المستشفيات تتعلق بعلاج أمراض عضوية، أو بعلاج أمراض نفسية، أو عقلية.

فبالنسبة للأمراض العضوية، قد أسس لها مصحات وأرصدت لها أوقاف كثيرة، تجعلها تقوم بواجبها أحسن قيام، مع تيسير الأطر التي تعنى بعلاج المصابين أو التخفيف عنهم مما يلاقونه من آلام ومتاعب الحياة.

وبالنسبة للأمراض النفسية، والعقلية، والعصبية، قد أنشئت لها بدورها بيمارستانات، تعالج كل الأمراض المستعصية، وتحارب كل العقد التي يمكن أن تكمن في نفسية الإنسان، وتسيطر على إرادته، وهذه المستشفيات، وهذه البيمارستانات عرفها العالم العربي في أبعد عصوره، ومن بينه المغرب، فقد أنشئت فيه مستشفيات وبيمارستانات، وخصصت لها أوقاف، تجعلها تقوم بمهامها على شكل أفضل..

ويرجع إنشاء البيمارستانات فيه إلى عهد الدولة الموحدية التي برزت في غضون القرن 6 الهجري.

وقد استمرت الدول التي تعاقبت على المغرب في المنافسة بين أنواع البر والإحسان حتى عهد دولة المرينيين..

فقد أورد الدكتور عبد الهادي التازي (14) أنه كان للسلطان أبي الحسن المريني فضل تجديد المارستان في مدينة فاس، واقتفى أثره السلطان أبو عنان المريني في العناية به والتحبيس عليه، فكان قدوة لعدد من المحسنين والمؤسرين الذين أشفقت قلوبهم على الأسرى والمنكوبين، فقدموا العطاءات الجزيلة المتوالية، فلم تمض مدة حتى كانت للمارستان نظارة على حدة، تتعهد المصابين والمتعبين بأمراض نفسية، والمحرومين والغرباء.. وإضافة إلى ظاهرة المارستان التي يحبس عليها الكثير من الأوقاف، لتعالج الأمراض النفسية، والعقلية..

هناك ظواهر وقفية، قامت بدور مهم في التآزر والتكافل الاجتماعيين، حيث نلاحظ أن الواقفين حبسوا كل ما يملكون على المعتوهين والمقعدين، والزمنى والمكفوفين.. وإن أوقاف أبي العباس السبتي في مراكش، لتعتبر أكبر شاهد على ذلك..

فهذه المؤسسة يلتجئ إليها المكفوفون، فيسعفون بما هم في حاجة إليه من أنواع الإسعاف والرعاية، كما نجد أوقاف سيدي علي بوغالب، تساند ملجأ كبيرا لأصحاب القروح والجروح.

وإذا كانت هذه الأوقاف تحقق من ويلات الأمراض، والعاهات، فإن هنالك أوقافا تتوفر على كثير من الأموال وضعت من أجل تسليفها للمحتاجين بدون فائدة ولا عوض، كانت هذه الأموال موضوعة بخزينة في قبة القيسارية،

---

14) في كتابه القيم : جامع القرويين، ج : 2 - ص : 457.

يستقرض منها المحتاج، ويعيد القرض متى وجد.. كما خصصت أوقاف يصرف كراؤها في شراء أواني الفخار، تعطى للصبيان الصغار إذا تكسرت، وخافوا متابعة أوليائهم.. إلى جانب هذا خصصت أوقاف أيضا لترويج المقلين، وشملهم بكل أنواع المساعدات، ولا سيما الإناث منهم، فقد يعطين ما يحتجن إليه من ملابس ومن أنواع الحلي اللاتي هن في حاجة إليها، زيادة على الدور التي تقام فيها الولائم لهن.

وبالإضافة إلى ما ذكر، نجد أوقافا خصصت لإنشاء حمامات وأفران وأرحية، تيسيرا على المسلمين، كما أسست قناطر، ومساجد وأحياء جامعية للطلاب، ومؤسسات ثقافية وتربوية، فشجع العلم وذووه، وخصصت أوقاف من أجل إعطاء ريعها لطلاب العلم والمعرفة، فكان هذا منحة لهم، لمواصلة الدراسة، والمواظبة عليها..

ولم تكن الأوقاف مقصورة على هذه الأشياء وإنما تجاوزتها إلى أشياء أخرى، سواء كانت تتعلق بالإنسان، أو كانت تتعلق بغيره من الحيوان..

وقد خصصت أوقاف لتجهيز الضعفاء والغرباء ممن يموتون دون أن يتركوا ما به يسترون إلى مثواهم الأخير..

كما خصص ريع عدد من الفدادين لشراء الحبوب لتغذية الحيوانات العجماء التي لا تملك التعبير عن حاجاتها، ولعلاج الحيوانات التي تتعرض للأمراض، وتتكسر أضلاعها أو أجنحتها.

فكان للأوقاف من هذا كله آثار جليلة في الحياة الاجتماعية من جهة، وفي الحياة العامة من جهة أخرى.. واعتبرت ـ بحق ـ أداة صادقة للضمان الاجتماعي..

وهكذا عرف الإسلام الضمان الاجتماعي ونادى إليه في أكمل صوره وفي أرقى مظاهره قبل أن يعرفه الغرب منذ عدة قرون كثيرة..

ومن الجدير بالملاحظة، أن الأوقاف أسهمت بدور فعال في الثقافة الإسلامية الأصيلة وتركيزها، حيث كانت كل من جامعتي القرويين بفاس، وابن يوسف بمراكش محط عناية ورعاية، وتكريم واعتبار، من لدن الأوقاف، فشجعت العلماء، وطلاب العلم، وأصناف المعرفة، ورواد البيان.

كما أسهمت الأوقاف بدور فعال في الميدان الحربي، حيث أعطت بسخاء ـ كل الإمكانات المادية لتجهيز الجيوش وشراء الأسلحة..

وها هو التاريخ يحدثنا بأن المنصور السعدي، استعان بأموال الأوقاف لتسيير حملة عسكرية لقمع تمرد نشب داخل البلاد، وقد بلغت تكاليف ذلك ؛ ثمانين ألف دينار (15).

ومن بين الأوقاف المغربية أيضا، الأوقاف التي خصصت لمكة المكرمة، ولغيرها من البيوت المقدسة..

ونظرا لأهمية الأوقاف وأثرها في الحياة العامة والاجتماعية منها بصفة خاصة، فإني أغتنم الفرصة هنا، فأسجل ما صاغه العلامة الأديب عميد كلية الشريعة بفاس ورئيس المجلس العلمي بها الحاج أحمد ابن شقرون في هذا المجال شعرا، وذلك في قصيدته التي قالها بمناسبة أسبوع فاس لتحقيق فكرة الإنقاذ التي دعت إليها منظمة اليونيسكو في أبريل 1980 ـ 1400 هـ.

جاء من بينها قوله ؛

اصخ تدر ما اسدى أخ الذوق من جدا
وفي حبس يستحسن السبق للخير

إذا عطب اللقلاق يوما فإنه
بمال من الأوقاف يجبر من كسر

وإن لم تجد أنثى مكانا لعرسها
فدار من الأوقاف تنقذ من فقر

وإن لم تجد عقدا لجيد، فإنه
يعار من الأوقاف يوصل للخدر

---

15) انظر كتاب ؛ جامع القرويين، للدكتور عبد الهادي التازي جـ 2 ص ؛ 476، نقلا عن الاستقصا في تاريخ المغرب الأقصى جـ 5 ص ؛ 160.

وإن جن مجنون، فإن علاجـــــــه
بمال من الأوقاف يصرف للفــــــور
تعالج موسيقى دماغا مـــــن الأذى
بها يعزف الفنان مبتسم الثغـــــر
وقد أوقفوا جبر الأواني، ربمـــــا
يهشمها طفل، فتقطع من أجـــــر
ولكن بمال الوقف يأخذ غيرهـــــا
بلا عوض منه، فيسلم من خســـر
وقد أوقفوا دار الوضوء لنســـــوة
يردن صلاة في حياء وفي ستــــر
وقد أوقفوا وقفا يخص مؤذنـــــا
يؤذن للمرضى بعيدا من الفجـــر
ليكشف عنهم من كثافة غربـــــة
حجاب ظلام الليل والسقم والوتـــر
مبرات أوقاف الألى قصدوا إلــــى
معان من الإحسان جلت عن الحصـــر

ونكتفي بهذه الأبيات التي وردت في هذه القصيدة العصماء التي تعد أبياتها بأربعة وستين بيتا.

ومجمل ما تقدم فإن للأوقاف الإسلامية بالمغرب، أثرا كبيرا في الحياة الاجتماعية، استطاعت أن تؤدي خدمات جلى لكثير من المحتاجين والمعوزين والأيتام والأرامل وغيرهم..

وإذا ما أراد الدارس أن يقف على أهمية الأوقاف المغربية منذ عصور التاريخ، فإن عليه أن يتوجه إلى الخزانات المغربية، وخاصة منها الخزانة العامة بالرباط التي ما تزال تحتفظ فوق رفوفها بالكثير من كنوز السجلات الوقفية التي تكشف مدى مساهمة المغاربة في نطاق الإسعاف والإنقاذ والإسعاد، ما يحتاج فيه إلى إنقاذ وإلى إسعاد..

وهذه السجلات، هي ما يعبر عنها بالحوالات الوقفية - وقد قال عنها فضيلة الأستاذ الجليل محمد المنوني في مقال له بمجلة البحث العلمي الصادرة بتاريخ جمادى الثانية 1392 وجمادى الأولى 1393 هـ الموافق يوليوز 1972 ويونيو 1973، العدد 20 - 21 ص 86، تحت عنوان، مجموعة المصادر التاريخية المغربية ،

(..... وبهذا كانت الحوالات تضم معلومات نادرة وقيمة، لتصوير المجتمع المغربي وتاريخه وحضارته.. وأقدم المعروف منها يرتقي إلى أيام المرينيين، ثم تتكاثر تدريجيا، وتكثر مع العصر العلوي..

ومن حسن الحظ، أن تكون الخزانة العامة بالرباط تحتفظ بمجموعة من أصول هذه الوثائق وصورها، وقد سجلت لائحة المصورات على الشريط بنفس الخزانة حسب التسلسل العددي لأرقام الأفلام تبلغ ، 70 ميكروفيلما، مشيرا إلى رقم كل فيلم من هذه الأفلام..)

وهذه الوثائق تعتبر دخيرة كبرى، ومادة خاما في نطاق الأوقاف المغربية، لا يستغني عنها باحث متخصص في هذا المجال.. ومن يقف عليها، فسيرى ما للمغرب من أياد بيض في هذا المضمار، وكيف حافظ على تراث عظيم جسد - بحق - ما قام به من مساع حميدة في مختلف المجالات الإنسانية، وحتى لا أطيل في الكلام، أذكر بقول مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم «نضر الله امرأ سمع مقالتي، فوعاها، فأداها كما سمعها، فرب مبلغ أوعى من سامع، وحامل فقه إلى من هو أفقه منه».

ونظرا لهذه المنقبة الكبرى، وهذه المكرمة العظمى، لمن يسمع كلام رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فيعيه، ويبلغه لغيره كما سمعه، فإني أعود فأذكر بقول النبي الكريم ،

«إذا مات الإنسان انقطع إلا من ثلاثة أشياء ، صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

الوقف في الفكر الإسلامي

للأستاذ محمد بن عبد العزيز بنعبد الله

الوقف من خصائص الإسلام، ومميزات نظامه العام، وسمات حضارته الرائدة... وهو من أعظم القوانين الاجتماعية التي أثرت في عمران البلاد الإسلامية، وأخلاق أهلها.. كما أنه من أعظم سبل الخير وأقدسها، وطرق البر وأنفعها... فكم أشاد الهياكل، وأنار المنائر، وأعان على المعارف والمفاخر... والوقف يتغيا إيصال الخير والنفع للموقوف عليهم، والقيام بعمل عام يستهدف فائدة الجميع، كمدرسة لتعليم العلم؛ أو خاص كشخص من الناس..

والوقف كان له خلال العصور الماضية دور رئيسي في قيام المؤسسات الاجتماعية في الوطن الإسلامي، ومن الواجب أن يستفاد منه الآن، في تنفيذ قوانين التكافل الاجتماعي على وجه يضمن تحقيق العدالة الاجتماعية في بلادنا لمختلف الفئات.

والوقف أيضا، نظام مشروع عاش أكثر من ثلاثة عشر قرنا كان خلالها مصدرا للخير، ومنبعا ثرا غزيرا يفيض بالعرف والبركات على جهات البر المختلفة، ووجوه الخير المتعددة، وقد وقى كثيرا من البيوت العظيمة، والأسر الكريمة، طرائد الشقاء، وفرائس الفاقة، ألم الجوع، ومرارة الحرمان !!.. كما حمى أولئك المشردين الذين تغاديهم الفاقة، ويراودهم الموت، ويضطربون اضطراب المهيض في القفص، يعلك الألم والبؤس نياط قلوبهم، فأصبحت بيوتهم كالقبر الرهيب، يغشاه الحزن، وتخيم عليه الوحشة !..

كما أسعف الوقف أيضا، أولئك المنكوبين والمكروبين، والمضغوطين، والمكظومين الذين عضهم الدهر بنابه، وأناخ عليهم بكلكله، فباتوا يتلمسون نفسا من الكرب، أو شعاعا من الرجاء، حيث انفرد بهم البؤس في ظلام الدور، ومنعتهم الأنفة عن الخروج إلى النور، فضاق بهم العيش، وانسدت أبواب الرجاء في وجوههم، وتفاقمت الخطوب من بين أيديهم ومن خلفهم، وعن أيمانهم... واستحكم الضنك عليهم، فهم يدمنون الصيام من الجوع، ويلبسون الظلام من العري، حتى منعهم العوز من الخروج إلى الشارع، لأن الخجل يمضهم، واستقروا في بيوتهم، لأن الهم يقضهم ويقعد بهم، فيحسبهم الجاهل أقوياء من الصبر، أغنياء من التجمل ؟؟!

وما كان أشد الألم والأسى في عبارة المقري صاحب «النفح»، وهو يصف لنا ذرية سلاطين الأندلس، وهم بمدينة فاس على عهده يأخذون من أوقاف الفقراء

والمساكين، ويعدون من جملة الشحاذين.. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم !!..

والوقف بدا في العصور التي تسود فيها الحياة الدينية، وسعى إليه المومنون الذين سمت أرواحهم، وتعالت نفوسهم، فآثروا الزهد والعفاف في الدنيا عن التمتع بملذاتها ونعيمها، فهو ظاهرة اجتماعية انبثقت من الخلق الإسلامي الذي يسمو بالفرد إلى حظيرة القدس، ويصعد به إلى معارج الكمال...

ولقد كانت هناك رغبة ملحة في فعل الخير، كدافع من دوافع الوقف... ولا ريب أنه كانت هناك نفوس مليئة بحب الخير، والجنوح إلى نبيل المقاصد، وبخاصة في تلك العصور التي كان للدين فيها سلطان كبير على حياة الناس الروحية... هذا إلى ما طبعت عليه النفوس الإنسانية من الميل إلى الخلود، وبقاء الذكر بعد الموت، فكان الكثير من الأثرياء ينشئون المدارس، ويجعلون لأنفسهم بها أضرحة يدفنون فيها بعد وفاتهم، ويقفون عليها الأوقاف المغلة، وكان ذلك من الأمور الشائعة في مختلف مجتمعات العالم الإسلامي..

ومنذ كانت مؤسسة الوقف، وهي تسعى دائما لعمل الخير، وتنمية المجتمع، وإشاعة روح السخاء، والبذل الذي يحرك أبناء الأمة الوسط، ويقود خطاهم إلى فعل الخير ويأخذ بضبعهم إلى ساحات التعايش والتعاون، وباحات التكافل والتآزر، كما يدلهم على منابع العرف والإحسان، ويبعث في نفوسهم معاني الإسلام، تمهيدا للمستقبل المشرق الواعد، وتوطئة لمقدم جيل إسلامي صميم، أشد أخذا بالإسلام في نهضته الحديثة الراقية..

وطوال تاريخ الإسلام المجيد، نهض الشعب المسلم في كل العصور لأداء واجبه في حمل رسالة الإسلام، وذلك عن طريق وسائل الإحسان الوقفية التي يزخر بنماذجها تاريخه وأمجاده، فلم يقصروا في حبس العقارات على كل ما يخطر في البال من طرق الإنسانية، ووسائل المدنية...

وتمثلت تلك النهضة الشعبية، في وقف إمكانات مختلفة مالية وعينية على وجوه الخير والبر، تنفق من أجل الدعوة والجهاد، والعلاج والتعليم، وبناء المساجد، وتحفيظ القرآن، وتدريس علومه، وإغاثة الملهوف، ومساعدة الفقير، ومؤازرة المعوزين الذين يعيشون في ذلكم البؤس الدفين الصامت الذي يستعين على ضحاياه بكبرياء نفوسهم، فيسلبهم الحس والحركة، ويمنعهم الأنين والشكوى، إلى أن يستوفوا أجلهم المكتوب.. فتذهب بهم المنون، وهم في وحدة الفقر، ووحشة الفاقة والحرمان !!..

وبفضل نظام الوقف، فقد انمحى، أو كاد، الفقر في كثير من البلاد الإسلامية، ولم يكن التسول والاستجداء شائعين، كما هو الشأن اليوم في العالم الإسلامي عامة، أو في بلاد المغرب خاصة على نسقه الحالي الفادح المزري، لأنه كان توجد إذ ذاك، بيوت للضيافة، وفي نطاق الكرم القبائلي، ولا سيما من ذوي النجدة والأريحية، والشهامة والمروءة... وقد لاحظ المقري، نقلا عن ابن سعيد، أن التسول في الأسواق على النمط المشرقي، كان مستقبحا في الأندلس إلى النهاية.. وقال : إنهم إذا رأوا شخصا قادرا على الخدمة يطلب، سبوه وأهانوه، فضلا عن أن يتصدقوا عليه، فلا تجد بالأندلس سائلا إلا أن يكون صاحب عذر. (نفح الطيب ج : 1 / 205) ولقد كان المحتسب يمنع التسول بصوره المعروفة.. إذ أن في ذلك كسلا عن الكد، والكسل مستقبح في الأندلس.. (المصدر السابق).

وذكر ابن خلدون في مقدمته أن السائلين يختلفون باختلاف الأمصار في العمران، ووصف ما شاهده في زمنه، إذ يقول : «فإن السائل بفاس أحسن حالا من السائل بتلمسان أو وهران، ولقد شاهدت بفاس السؤال يسألون أيام الأضاحي أثمان ضحاياهم، ورأيتهم يسألون كثيرا من أحوال الترف، واقتراح المآكل، مثل سؤال اللحم والسمن، وعلاج الطبخ والملابس والماعون، كالغربال والآنية... ولو سأل سائل مثل هذا بتلمسان أو وهران لاستنكر وعنف وزجر..» (ج : 3 / 861).

من أجل ذلك، ظهر المغاربة مبرزين، قديما وحديثا، في رحاب الوقف، وتباروا في ميدان البذل والعطاء، والأريحية والسخاء، وتساندوا في هذه الحلبة ذات الأبعاد الرحيبة، فحازوا قصب السبق في مضمارها، فكانوا بذلك أندى كفا، وأطيب أنفاسا، وأسلس للوازع الديني قيادا،

وأنضر في ميادينه غراسا... وقد كان في بلاد المغرب لفكرة «المصالح المرسلة» التي يمتاز بها الفقه المالكي، وتقارب ما نسميه اليوم «المصالح العامة» للأمة، كان لهذه الفكرة أثرها في انتشار الأوقاف وتسبيلها على المنافع العامة في المدارس والمساجد والمارستانات، وغير ذلك مما يجلب النفع على مجموع الأمة. وقد تحدث عنهم شيخ المؤرخين الاجتماعيين أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون، فقال : «.. وأما إقامتهم لرسوم الشريعة، وأخذهم بأحكام الملة، ونصرهم لدين الله، فقد نقل عنهم منه ما كان ملاكا لعزهم، ومقادا إلى سلطانهم، وقد كان للمبرزين من ملوكهم، كيوسف بن تاشفين، وعبد المومن وعبد الحق المريني من الاهتمام بالعلم والجهاد، وتشييد المدارس، واختطاط الزوايا، وسد الثغور، وبذل النفوس في ذات الله، وإنفاق الأموال في سبيل الخير، ومجالسته أهل العلم، وترفيع مكانهم، والوقوف عند إشارتهم، والتعرض لشكوى المتظلمين، وإنصاف الرعايا من العمال، والضرب على أيدي الجور، ما شهدت لهم به آثارهم الباقية بعدهم....».

وقد ظل هذا الجهد الشعبي الممتد الذي يتمثل في الأوقاف طوال تاريخ الإسلام يحمل رسالة الإسلام، ويعمقها في الداخل، وينشرها، ويوسع نطاقها في الخارج... إذ مؤسسة الأوقاف كانت تعتبر أهم موارد التعليم الإسلامي على الإطلاق، وأكثرها دخلا وإدرارا، وإليها يرجع الفضل في بقائه واستمراره قرونا طويلة، وفي انتظام الحياة العلمية والدراسية في جامعات الإسلام وكلياته...

على أن انتشار حركة الأوقاف الخيرية منذ مطالع القرن الثالث الهجري، وما تلا ذلك من ظهور المدارس الأهلية، ثم الحكومية كانت نقطة تحول في حياة الطلاب، وبداية عهد جديد لهم، تهيأ لهم فيه نوع من الضمان الاجتماعي يقيهم شرور العوز والفاقة والحرمان بما خصصته لهم الأوقاف من الأرزاق الدائمة، والجرايات المرتبة.

ولقد كفل الوقف للعديد من العلماء، دعاة الإصلاح، ورواد التجديد، وحراس العقيدة فرص الكريم، تضمن الاستقرار، وهدوء البال، وراحة الضمير، حتى يؤدوا رسالتهم على الوجه المطلوب في عز وشهامة، واعتزاز بالدعوة الإسلامية الصحيحة التي يضطلعون بتحمل أعبائها، فيصدعون بكلمة الحق، يشغفهم حب الخير، ويستمسكون بروح الله وتوفيقه على عصف الخطوب، وإلحاح المكايد، وخبيث المؤامرات، ويرفعون صوت النصح بقوة ووضوح، وصلابة وشجاعة بالتي هي أرفق، وأدعى إلى القبول، ويقاومون من يصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجا، ويستحبون الحياة الدنيا على الآخرة... كما يقومون بالدفاع في وجه كل خطأ، وأمام أي بادرة انحراف، أو ازورار عن الجادة والصواب...

وهكذا يجب أن تكون للإمام كغيره من الدعاة، حماة الشريعة، حصانة تكفل له استقلاله الفكري، وتضمن له رأيه الحر، حتى يكون بعيدا عن مواطن الذل والملق، ومساكن الفقر والجهل، ومكامن الموت والخمول.. وبذلك يتأتى له أن يتناول مشاكل المسلمين وقضاياهم في إطار الشريعة الإسلامية في شجاعة أدبية مومنة..

والفقهاء والعلماء والدعاة تحرروا، قديما، وفي مختلف العصور، عن طريق الأوقاف من قبضة المرتبات الرسمية، مما جعلهم يتحررون من التبعية والقيود، ويتمكنون من القيام على حرمة الكلمة بأمانة وحرية.. لأن من واجبات حرية الإمام أن يكون دخله المعلوم غير مرتبط بالمرتبات الرسمية، وهذا يقتضي أن يكون دخله المعلوم من الأوقاف الخيرية مباشرة حتى يستطيع أن يقول كلمة الحق بملء فيه، ويكون ملء السمع والبصر والفؤاد والوجدان.. ويقول للسلطة بصراحة : «وما أسألكم عليه من أجر» كما أن من واجبات حرية هذا الإمام أن يعيد للإسلام ذاته واعتباره الحقيقي، وهو الهيمنة على كل شيء، ويصبح من حق هذا الإمام أن يتحدث عن كل شيء، ويبدي رأي الإسلام في كل أمر وشأن...

فالوقف قام في مختلف العهود الإسلامية بدور فعال ونهض بدور اجتماعي واقتصادي وثقافي كان له أثره في تكييف الأجهزة المسؤولة في الدولة، وتخفيف الوطأة إلى حد بعيد على الميزانية العمومية، وكفل للعديد من العلماء أرزاقهم كي يتفرغوا لشؤونهم العلمية، إذ ينبغي لطالب العلم ألا يشتغل بشيء آخر غير العلم، ولا يعرض عن الفقه،

قال محمد بن الحسن رحمه الله ، «إن صناعتنا هذه من المهد إلى اللحد، فمن أراد أن يترك علمنا هذا ساعة، فليتركه الساعة» (الزرنوجي ، تعليم المتعلم ص 44).

ويروي النباهي في تاريخ «قضاة الأندلس» في ترجمته للقاضي أبي الربيع سليمان الحميري الكلاعي البلنسي الأندلسي أنه كان «كريم النفس، يطعم فقراء الطلبة، وينشطهم، ويتحمل مؤونتهم» (ص 119)

وهناك مثل شرود أندلسي يقال في ضرورة التفرغ لطالب العلم، ساقه أبو يحيى الزجالي (ت 694 هـ) في كتابه ، «ري الأوام في أمثال العوام في الأندلس تحت رقم 1376 وهو ، «من فكر في شرا بصلة، ليس يحفظ مسالة..» وذكر ابن هشام أن عامة الأندلس في عصره كانوا يتمثلون به هكذا ،

إذا المرء اشترى بصله فلا تسأله عن مسأله

وبعده ،

شروط العلم أربعة فأولها التفرغ له

ودرس، ثم فهم، ثم حمـ ـلكه عن الحمله

قال ، هو لأبي القاسم خلف بن فرج الألبيري المعروف بالسميسر..

حقا لقد أثر عن الإمام الشافعي رضي الله عنه، أنه قال ، «لو كلفت بشراء بصلة ما حفظت شيئا من العلم» فهذه القولة الرائعة، والكلمة المأثورة ليست حكمة تظهر فعالية التفرغ للعلم فحسب، ولكنها تضيء جانبا من الظروف الاجتماعية والثقافية لعصر الإمام الشافعي وغيره من الأئمة الأعلام، وشداة العلم، وطلاب المعرفة والثقافة في ذلك العصر حيث يبدو المجتمع بمؤسساته ومرافقه، وكأنما يحمل عن الإمام عبء التكليف المعاشي، وتبعة هموم الحياة ليصبح الإمام مقياس العصر وسمته في جانبه الفكري والحضاري... ومثل الإمام الشافعي، غيره من علماء الحضارة وفلاسفتها، ولقد تضافرت الامكانات المادية بعد ذلك لتخلف ركب الفكر والثقافة، وتطامنت لأيدي الفنانين، في صورة نقوش وابداع العقل وصفاء الروح... من أجل ذلك وجدت الأوقاف . أهلا لحمل الدعوة وتبليغها.... والدعاة الإسلاميون، هم وحدهم جنود التبليغ..

وهكذا رأينا الدعاة والعلماء والفقهاء في مختلف العصور قد تحرروا - عن طريق الوقف، وما يتقاضونه من إدارته، في شكل مساعدات - من قبضة عبء الوظيفة، وضغط المرتبات الرسمية، حيث إنهم عصموا أنفسهم من رق الإدارة، وخلقهم من فتنة المسؤولية، وعملهم من آلية العمل، وقدرهم من قياسه بالدرجة مما جعلهم يتحللون من التبعية والقيود، ويتمكنون من القيام بتبليغ رسالة الله، ووحي السماء... وما عليهم إلا البلاغ... فيقدمون حرمة الكلمة بين يدي نجوى دعواهم، بأمانة وحرية، وصدق ووفاء، وتضحية وتفان...

فالعالم الواعظ، المخلص المؤمن لعقيدته ودعوته ورأيه - ما دام هذا الرأي قائما على أساس من الدين - يجب أن يؤمن بالشجاعة والمجابهة في إظهار رأيه هذا، والمدافعة عنه، والمنافحة في سبيله ما دام يعتقد أن إفشاء هذا الرأي فيه خير للناس، وخير لدينه وعقيدته.. وقد قال الفقهاء ، «إن من رأى من نفسه أهلية للقضاء أو الإمامة أو العدالة أو المرتبة من مراتب الدين، كالوعظ والإرشاد، ثم لم ير من تتوفر فيه أهلية لذلك من معاصريه أو مساكنيه، فإنه يجب عليه وجوبا عينيا أن يقوم لذلك، وأن يقبل وظيفته، ولا بد إن عرضت عليه، وإن يطلبها إن لم تعرض عليه، بل زاد بعضهم أنه يجب عليه أن ينال ذلك ولو بدراهم...

وسيلقى العالم المؤمن الملتزم الواعظ هذا عنتا وقحا، ورهقا صعودا، وتهما رخيصة زائفة ممن في قلوبهم مرض.. ولكنه الواجب والأمانة.. وكل متصدر لعمل عام نافع يجب أن يصبر ويجابه.. فهذا هو جزاء الإخلاص والصدق والشجاعة والإيمان بالدعوة والرأي والرسالة والبعد عن المداراة والرياء الذي هو جزء من الشرك.. لأن الانتساب للدين والرأي شيء... والايمان به، والتسليم له والشجاعة دونه شيء أخر.. وفي رسالة القديس «بولس» التي وجهها لأهل روما كلمة صادقة هي ، «أن الختان لا يجعل الإنسان إبنا لإبراهيم، وانما أبناء ابراهيم من يسلكون في خطوات الإيمان...»

وان من أعظم الإيمان، الشجاعة والإخلاص للعقيدة والرأي، ومجابهة المخدوعين والخادعين بكلمة الحق..

والعامة في كل عصر وموطن يعكفون على مألوفهم، فهو يشق عليهم أن يخرجوا عنه، ولو كان باطلا بين البطلان والناس أعداء ما جهلوا..

فالعالم الواعظ لا يخلد إلى الراحة، ولا يركن إلى الوظيفة، لأن الإخلاد إلى المقاعد، إخلاد إلى العجز والخمول، واطمئنان إلى الدون والهون، وركون إلى حياة رتيبة، وأعمال روتينية واحدة في ساعات لا تتبدل ولا تختلف....

قال أبو سفيان بن عيينة الذي كان يعد من حكماء أصحاب الحديث : «قد كنت أوتيت فهم القرآن.. فلما قبلت الصرة، من أبي جعفر المنصور العباسي سلبته، فنسأل الله المسامحة..

لقد اصبح المد الإسلامي، اليوم، يرعب الجامدين والحانقين والضالين، ويدمر أحلامهم، ويسفه أراءهم، إلى الحد الذي جعلهم يقولون في الإسلام زورا وبهتانا ما ليس فيه، ويحاولون من خلال إذاعتهم وصحفهم أن يرعبوا حكام ورؤساء الدول غير الإسلامية، بل إن العالم مقبل على حرب ضروس صليبية حاقدة إذا استمر الإسلام في مده المتزايد كل يوم... لأن المسلمين أصبحوا الآن، يضعون أيديهم على مصادر الطاقة والثروة في العالم...

ولهذا يجب أن يكون دور الإمام والخطيب اليوم، إبراز حقيقة إسلامنا الذي يعترف ويجل كل الأديان السماوية، بل ويأمرنا بالإيمان بها..

وهذا النشاط المعادي للإسلام في الخارج أو الداخل، وما يتبعه من أخطار على الدعوة الإسلامية، يضع أمام الأئمة والخطباء والقائمين على هذه الديانة مسؤولية خطيرة، لا بد أن تجند لها كل الأجهزة، للحفاظ على مقوماتها، والذياد عن الدين الإسلامي من كل ما من شأنه أن يبث الألغام في طريقه..

والفقه الإسلامي إذا كان ينظر إلى الوحدة الوقفية كمؤسسة بحد ذاتها، لها الشخصية الاعتبارية، فإن مكونات هذه الشخصية لا ترتكز على العقارات الموقوفة، بل على جهتها التي رصدت هذه الأوقاف لمصلحتها، وهي تتغيا حماية هذا الدين، ورعاية مؤسساته، والإنفاق على القائمين عليه الجهة الخيرية هذه فكرة أولا وقبل كل شيء... إنها تعبير وإعراب وترجمة للصلات الاجتماعية التي ركزها المنطق الإسلامي في بناء كيان المجتمع، بحيث يفقد هذا المجتمع قيمته التاريخية إذا انسحبت هذه الصلات عن مجال تطبيقها..

وبفضل نظام الأوقاف الذي ازدهر مع ازدهار الحضارة الإسلامية، وتفتحت براعمه بعد أن تدفقت سيول العرب من منابعها، وخرجت سنابلهم من قنابعها حيث استطاعت المؤسسات الاجتماعية، التي حفلت بها البلاد الاسلامية، في مختلف البقاع والرقاع، البقاء والاستمرار طويلا، دون أن تتوقف عن أداء رسالتها عقب وفاة مؤسسيها... ذلك أنه من الملاحظ في كثير من حلقات التاريخ، وعديد من بلاد العالم، توقف المؤسسات الخيرية عن أداء رسالتها بعد فترة من الزمن بسبب وفاة واقفيها، ونضب مواردها، وعدم توافر الإمكانات المادية التي تمكنها من الاستمرار في أداء الرسالة مما يضطرها إلى طلب مساعدة ومؤازرة المحسنين الفينة بعد الفينة حتى تتوقف تماما عن العمل... لأن الواقف رصد أموالا لتلك المؤسسة كان يوقف عليها غالبا ما يدر عليها موردا ثابتا يضمن لها البقاء والاستمرار ويكفل لها السير الدائم المطمئن في أداء رسالتها دون حاجة إلى طلب المعونة من حين لآخر دون التهديد بالفقر والتوقف والإفلاس.

ولم تقتصر هذه الأوقاف على الأراضي والعقارات والرباع، وإنما شملت الدور والقصور والحوانيت والحمامات والأفران وغيرها مما يمكن أن يدر موردا، ودخلا منتظما تستعين به المؤسسة، ويكفل لها ديمومتها واستمرارها...

إن مؤسسة الأوقاف هي الإطار العام لتوليد الطاقة الإسلامية من جديد، حيث تتجدد في جسم المجتمع الإسلامي أوقاف جديدة كما تتجدد الخلايا الحية في الكائن الحي، واعطائها بعدها الديني والثقافي والاجتماعي الذي يحتوي العصر الحديث بسائر أبعاده ومعطياته.. فالعمل الديني هو في الحقيقة جوهر ومسوغ أساسي لوجود مؤسسة الأوقاف الإسلامية.

لذا يجب أن تتجه سائر إمكانيات الأوقاف نحو خطة تنمية واحدة تأخذ باعتبارها سائر الجهات، وأن تلعب استثمارات الأوقاف دورا رائدا في حجم الاقتصاد المغربي وفق خطة اقتصادية عقلانية مرنة يقوم بها المختصون... لأن الأوقاف قوة في رحاب الحضارة الإسلامية، ولغة احتواء لضرورات المجتمع، ومؤسساتها من معاهد ومدارس ومساجد وكليات، وهي التي تنسج بنيان الحضارة كما ينسج الرداء، ليكون في باطنه الدفء، وفي ظاهره قسمات الجمال، وبسمات المنى، وفي أسلوب تفصيله قيم الرسالة تلقيها في التاريخ عبر الأجيال..

واذا كان لكل حضارة ثقافية، وتقدم اجتماعي مميزات خاصة بهما، فاننا نجد الأوقاف إحدى مكونات الثقافة الإسلامية عبر التاريخ، لقد كانت تعبيرا عنها في الإطار الاجتماعي...

وحينما نتصل بالحضارة الإسلامية من خلال مؤسسات الأوقاف كالمدارس العلمية، والمؤسسات الثقافية والاجتماعية فاننا نشهد القيم الجمالية والمثل الأخلاقية، في صيغة واحدة تطبع وجودها وحضورها على صفحة التاريخ الإنساني.. هذه الصيغة لم تكن إنجاز مجتمع في حقبة من حقب التقدم والتطور والازدهار، وانما هي أولا وقبل كل شيء، إنجاز رسالة تبحث عن استمرارها في ضمير الأمة والأجيال...

وحينما خبت حرارة الرسالة هذه عبر الأجيال، تبعثرت كلمات هذه الصيغة، وانفرطت مصداقيتها كما ينفرط العقد النظيم، وبدلا من أن تكون الأوقاف فكرة تطبع وجودها على القيم الأخلاقية أضحت مجموعة من الأموال اهتمت أنظمة متعددة في ضبطها، ومجمعات من البيوت والعقارات ومجمعات من البيوت والعقارات احتفل بتنميتها دون غاية أو هدف..!!!؟

والاهتمام الجاد بمؤسسات الوقف يحولها من مستقر الصدقات والتركات التي لا وارث لها، ووقوف معقبة انتهى واقفوها، إلى مستقر الحاجات الأساسية للمجتمع... إلى هموم حقيقية ودائمة من أجل التطوير والتنوير... إلى إيجاد طاقة اجتماعية خلاقة... إلى نظرة واعية عميقة في آفاق المستقبل الرحيب... إلى إحساس رهيف بدموع البائسين والمكروبين، إلى شعور حاد بالأخطار المحيطة... إلى تحقيق سعادة راضية، مطمئنة يطرز حواشيها النعيم... لمجتمع إسلامي راق...

الرباط : محمد بن عبد العزيز بنعبد الله

الإشتراكات والتوزيع

●● يرجى الإتصال بخصوص الاشتراكات والتوزيع بقسم الدراسات الاسلامية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الهاتف: 636.93 / 608.10 / 627.03 / 627.04

عرض وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في الأيام الدراسية التي نظمها المعهد الاسلامي للبحوث والتدريب بجدة.

●● مثل الأستاذ محمد البهاوي وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية في الأيام الدراسية التي نظمها بجدة المعهد الاسلامي للبحوث والتدريب.
وفيما يلي العرض الذي ألقاه بالمناسبة :

الحمد لله رب العالمين، منشىء الدنيا والدين، الذي خص بني الانسان، بإدراك الحقائق والعرفان، فميزوا ببصائرهم ما أنتجته يد التحسين والتنظيم، وعاينوا ببصرهم الترقيات التي صارت على خط مستقيم، والصلاة على نور الاكوان ذي القدر السمي والجاه العظيم.

أما بعد، حضرات السادة الكرام، فإن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في حكومة صاحب الجلالة الحسن الثاني نصره الله، التي رحبت بالمبادرة الكريمة لمعهد الدراسات والأبحاث التابع لمنظمة «الالسكو» في تخصيص ندوة للخبراء حول مؤسسة الأوقاف في العالم العربي الإسلامي وكذا بدعوة اللجنة الوطنية للتربية والثقافة والعلوم، ليسعدها أن تشارك في هذا العمل التعريفي الجليل، متمنية أن يحفه التوفيق والنجاح.

وإن السيد الوزير الذي تناول الكلمة أمامكم قد أوضح ما تعلقه الوزارة على نتائج أشغالنا، ويهمنا من جانبنا أن نعطيكم نظرة مختصرة عن الوقف في المملكة المغربية في القديم والحديث، وقبل الخوض في هذا الموضوع، لا بأس بأن نلقي نظرة خاطفة على تعريف الوقف ونشأته.

ما هو الوقف : الوقف (أو الحبس) له معنيان إثنان، معنى في اللغة، ومعنى في الاصطلاح، فالأول يعني الحبس والمنع، وجمعه وقوف، وهو مصدر وقف، فيقال «وقف الدار إذا حبسها ولا يقال أوقفها لأنها لغة غير سليمة، ويطلق المصدر «الوقف» على إسم المفعول فيقال ، «هذه الدار وقف، أي موقوفة، وهكذا جمع على أوقاف».

أما المعنى الثاني، فهو تحبيس مال وصرف منفعته في جهة بر وإحسان أو غيرها وإلى هذا التعريف مال غير واحد من المفسرين كالسيد محمد فريد وجدي في دائرة معارفه، والسيد زهدي يكن في كتابه «الوقف في الشريعة والقانون».

ويقع الوقف على كل شيء وقفه صاحبه وقفا محرما، لا يورث ولا يوهب ولا يباع من أرض وبناء ونخل وكرم ومستغل، يحبس أصله وقفا مؤبدا، ويسبل ثمرته تقربا إلى الله عز وجل، لتصرف إما لفائدة فرد أو عدة أفراد، أو لمؤسسة دينية أو إجتماعية، ينتفع منها عموم المسلمين.

الوقف في الكتاب والسنة : لما كان المصدران الاساسيان للتشريع الإسلامي الخالد، هما الكتاب والسنة، فإن الواجب يقضي بالاتيان - ولو بإختصار - ببعض النصوص في هذا الباب.

فمن الكتاب : يمكن إعتبار الوقف مندوبا ومرغبا فيه في ثلاثة وجوه :

1) **الوقف العائلي :** أو الذري أو وقف الذرية. وذلك في قوله عز وجل : **«النبيء أولى بالمومنين من أنفسهم، وأزواجه أمهاتهم، وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المومنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا، كان ذلك في الكتاب مسطورا...» (سورة الاحزاب).**

2) **الصدقة :** وذلك في قوله عز وعلا : «إن المسلمين والمسلمات والمومنين والمومنات، والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات، والصابرين والصابرات، والخاشعين والخاشعات، والمتصدقين والمتصدقات، والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات **والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما»** (سورة الاحزاب).

3) **الإحسان :** وذلك في قوله عز من قائل : **«للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة، أولئك أصحاب الجنة، هم فيها خالدون...»** (سورة يونس) - صدق الله العظيم -

أما من السنة : فمن الوقف العائلي أو الذري، يروي عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما أنفق المرء على نفسه **وولده وأهله وذوي رحمه وقرابته فهو له صدقة»** (رواه الطبراني في الأوسط).

وعن الصدقة، روى الإمام مسلم - رضي الله عنه - في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «إذا مات ابن آدم (أو الإنسان على إختلاف الروايات) إنقطع عمله إلا من ثلاث، **صدقة جارية** أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» (وفي هذا الصدد ذكر حجة الاسلام الإمام الغزالي بأن الصدقة في هذا الحديث لا تعني سوى الوقف).

وعن الإحسان، فعن أبي أمامة - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «من مسح على رأس يتيم لم يمسحه إلا الله، كان له في كل شعرة مرت عليها يده حسنات، ومن أحسن إلى يتيمة أو يتيم عنده كنت أنا وهو في الجنة كهاتين، وقرن بين أصبعيه، السبابة والوسطى» (رواه أحمد وغيره).

- صدق مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم -

حضرات السادة الكرام.

للذكرى - والذكرى تنفع المؤمنين - فإن أول وقف في الإسلام، (كما ذكره غير واحد من الباحثين) هو وقف النبي صلى الله عليه وسلم لأراضي «مخيريق» الذي كان من اليهود ثم أسلم، ومرجعنا في هذا إلى كتاب «السيرة النبوية للإمام أبي محمد عبد المالك بن هشام إذ يقول : «لما كان يوم أحد (يعنى غزوة أحد) قال (أي مخيريق)» يا معشر يهود، والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لحق» فقالوا «إن اليوم يوم سبت» قال : «لا سبت لكم» فأخذ سيفه وعدته وقال : «إن أصبت فمالي لمحمد يصنع فيه ما يشاء» ثم غدا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقاتل معه حتى قتل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مخيريق خير يهود» وجعل إثر ذلك - صلوات الله وسلامه عليه - هذه الأراضي صدقة، وقد كانت عبارة عن سبعة بساتين تدعى «المثيب، والصائفة، والدلال، وحسنى، وبرقة، والاعواف، ومشربة أم إبراهيم» وكان «مخيريق» هذا حبرا من أحبار اليهود وعلما من أعلامهم في الغنى والثراء العريض، إضافة إلى أنه كان يعرف النبي صلى الله عليه وسلم بأوصافه التي قرأها عنه.

تأتي إثر هذا صدقة الصديق أبي بكر أول الخلفاء الراشدين ورفيق الغار - رضي الله عنه - وذلك فيما يبينه لنا الإمام البصيري - رحمه الله - في همزيته - إذ يقول :

بأبي بكر الذي صح للناس ... به في حياتك الاقتداء

والمهدي يوم السقيفة لما ... أرجف الناس أنه الدأداء

أنقذ الدين بعدما كان للدين ... على كل كربة إشفاء

أنفق المال في رضاك ولا من ... وأعطى جما ولا إكداء

أما عن الفاروق، عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فقد جاء عنه في صحيح الإمام البخاري أنه أصاب أرضا بخيبر فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال، «أصبت أرضا لم أصب مالا قط أنفس منه، فكيف تأمرني به؟ فقال عليه السلام، «إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها»، فتصدق عمر أنه لا يباع أصلها، ولا يوهب، ولا يورث، في الفقراء والقربى، والرقاب، وفي سبيل الله، وابن السبيل، لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف أو يطعم صديقا غير متمول فيه.

وفيه يقول الإمام البصيري أيضا،

وأبي حفص الذي أظهر اللـــــه
به الدين فارعوى الرقبـــــاء
والذي تقرب الأباعد في اللـــــه
إليه وتبعد القربــــــاء
عمر بن الخطاب من قوله الفصـــــل
ومن حكمه السوي الســــواء
فر منه الشيطان إذ كان فاروقـا
فللنار من سناه انبـــــراء

أما عن ثالث الخلفاء الراشدين، فإن كتب السيرة النبوية تفيدنا بأن النبي - صلى الله عليه وسلم - خاطب المسلمين قائلا، «من يشتري بئر» (رومة) فيجعلها للمسلمين، يضرب بدلوه في دلائهم وله مشرب في الجنة؟ (وبئر رومة هذه كان يملكها يهودي يبيع المسلمين ماءها) فسارع عثمان - رضي الله عنه - إلى الاستجابة لنداء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فساوم اليهودي في بيع البئر فأبى بيعها كلها، فاشترى منه عثمان نصفها باثنى عشر ألف درهم، متفقا معه على أن يستغل المسلمون البئر يوما ويستغلها اليهودي يوما آخر، وهكذا إلى أن جاء اليهودي يوما عند عثمان مقترحا عليه شراء النصف الآخر، فاشتراه منه بثمانية آلاف درهم، وخلصت بذلك البئر كلها للمسلمين، يضاف إلى ذلك ما عمل عليه عثمان - رضي الله عنه - من تجهيز جيش المسلمين بالعتاد مما يشير إليه الإمام البصيري في قوله،

وابن عفان ذي الايادي التي طـال
إلى المصطفى بها الاســــداء
حفر البئر جهز الجيـــــــش
أهدى الهدى لما أن صده الأعـداء
أدب عنده تضاعفت الأعمــال
بالترك حبذا الأدبـــــاء

أما أسد الله خالد بن الوليد، فقد كان من السابقين إلى تحبيس أدرعه وأفراسه في سبيل الله، حتى تبقى في متناول المحاربين والمدافعين عن ثغور الإسلام.

ويروي الشيخان، عن أنس قال، «كان أبو طلحة أكثر أنصاريي المدينة مالا، وكان أحب أمواله اليه بيرحا (أي بستانا من نخل) بجوار المسجد الحرام، كانت مقتبلة المسجد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، فلما نزلت الآية الكريمة **«لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون»** قام أبو طلحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال، «إن الله تعالى يقول في كتابه **«لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون»** وإن أحب أموالي إلي بيرحا، إنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث شئت» فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بخ، بخ ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وفسر ذلك بالوقف، وهذا يقول فيه البصيري،

طلحة الخير المرتضيه رفيقـــا
واحدا يوم فرت الرفقـــــاء

يأتي بعد ذلك، الزبير بن العوام وهو الذي قيل فيه،

وحواريك الزبير أبي القـــــرم
الذي أنجبت به أسمــــــاء

ثم تتابعت السلسلة البيضاء بمعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وعائشة أم المؤمنين، وأختها أسماء ذات النطاقين، وأم سلمة وأم حبيبة وصفية بنت حيي، وسعد بن أبي وقاص، وجابر بن عبد الله وعقبة بن عامر، وعبد الله بن

عمر، وعبد الله بن الزبير، وغيرهم من باقي الصحابة والتابعين، هؤلاء الذين سارعوا إلى التحبيس في شتى أنواعه ومختلف أبوابه وفروعه، إبتغاء مرضاة ربهم وسعيا إلى جلب المنفعة إلى أبناء وطنهم وذويهم.

جاء قوم من بعد قوم بحـــــق
وعلى المنهج الحنيفي جـــــاءوا

وتسربت إثر ذلك هذه السنة الفريدة، والمأثرة الجليلة الحميدة، إلى جل الأقطار التي سعدت بالإسلام، ونعمت باتباع سنة خير الأنام، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

ومن ضمن هذه الأقطار، والمشهور منها في الأمصار، المملكة المغربية، الدولة الإسلامية، التي كانت ولا تـــزال، تتوفر على أنواع شتى من صنوف الوقف، لا يسعها الجد ولا الوصف، تسابق في إنشائها المحسنون، وتنافس في ذلك المتنافسون.

حضرات السادة الكرام :

بعدما تطرقنا ـ في عجالة ـ الى نشأة الأوقاف، فاننا نعود الى ما يهمها في المملكة المغربية.

وقبل أن نخوض في هذا الميدان الهام، والوقف الخاص والعام، لا بأس بأن نذكر باحدى خطب جلالة المغفور له محمد الخامس التي ألقاها في نظار مملكته بتاريخ : 13 ذي القعدة 1377 (2 يونيه 1958) حيث قال ـ طيب الله ثراه ـ «والأحباس ـ كما لايخفى عنكم ـ تعد بحق، مفخرة من مفاخر هذه الأمة المغربية النبيلة،لما لها من أملاك متوفرة،وغابات متنوعة،والحافز لأجدادنا إلى هذا العمل الصالح، هو تشبعهم بأسمى المثل والقيم الانسانية العليا، وتشبثهم القوي بما دعا له الإسلام من مواساة الضعفاء، والإحسان الى الفقراء، والغيرة على الدين والحرص على صيانة معالمه والرفق ببني الإنسان، وحتى بالحيوان، الذي جعل بعض المحسنين وقفا خاصا لمعالجة بعض أنواعه، واشترك في هذا العمل الإنساني الجليل في مختلف العصور الغابرة، جل طبقات المغاربة، سواء منهم أفراد الشعب من ذوي الغيرة والاريحية أو ملوكنا الأماجد، ملوك الدولة العلوية».

حضرات السادة الكرام :

من خلال هذه التوجيهات السديدة، والبيانات الهامة الرشيدة نذكركم، بأن أجدادنا المغاربة الاباة وقفوا أوقافا كثيرة على شؤون الدين، من مساجد وزوايا وأئمة وخطباء ووعاظ ومرشدين، ومدرسين وطلبة ومؤذنين ومراقبي الأهلة وقراء القرآن الكريم ومنظم ومنبهي المصلين، وما الى ذلك مما ييسر أداء شعائر العبادات في سهولة تامة، ويعمر بيوت الله بذكره وتلاوة آياته وأحاديث نبيه.

والى جانب هذا، نجد المحسنين الصادقين من المحبسين قد فكروا في حال المؤذنين والمهللين، فحبسوا عليهم ما يوفر كساءهم في فصل الشتاء، ووقفوا أيضا على الفقراء والمساكين، ممن قال فيهم تعالى : «**يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا**».

ولم تنحصر أبواب البر والإحسان هذه فيما سلف ذكره، بل تعدته إلى إحداث ملاجىء للعجزة والمسنين والمعاقين المختلين عقليا، اضافة الى حفر الآبار والعيون لتوفير المياه للمساجد والحمامات.

ومن الوجوه التي فكر فيها المحبسون من السلف الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ التحبيس على المجاهدين في سبيل الله، وافتكاك أسرى المسلمين، وحراس الثغور، وإنارة الدروب المظلمة تجنبا للمارة من آفاق الطرق وأخطارها، وعلى العروسين الفقيرين لتجهيزهما، وإدخال الفرح والسرور عليهما في ليلة زفافهما، وعلى القدس الشريف والحرمين الشريفين بمكة المكرمة والمدينة المنورة والمجاورين من أبناء المغرب هناك، ولم يفت أولوا الفضل أن يفكروا حتى في التحبيس على قضاء ديون المدينين حفاظا على ماء وجوههم، وتعويض الأواني التي يكسرها الخدم إتقاء لزجرهم، وتوفير الحليب للمرضعات الفقيرات إنقاذا لمواليدهن وصونا لكرامتهن، هذا مع الاهتمام بالبرور ببعض الحيوانات والطيور تذكيرا بالشعور المرهف للمغاربة الاباة.

حضرات السادة الكرام :

إن المملكة المغربية التي كانت مؤتمنة على الأوقاف الإسلامية بما أحاطتها به من تشريعات وتنظيمات وقفية، لا تزال في نطاق الاجتهاد، وخدمة البلاد والعباد، توالى المحافظة على التراث وتبتغي من وراء ذلك الحفاظ على هذا الميراث، ولذلك، فهي وإن توفرت على تشريع خاص وعام، ذي قيمة ووزن هام، إنبثق عن عقول مضت، وأفكار سبق وأن تولت، فإنها تسعى إلى مزيد من التجديد، والمراجعة وحسن التجديد، لإظهار كل ما هو في هذا الميدان جديد، وهكذا فقد تمت مراجعة عدد من التشريعات، كما صيغت بعض من التنظيمات، إلى جانب فرض نوع من التقنينات، حتى تسير الأمور إلى مغزاها، وتستقر في هدفها ومرماها، وتواكب مسيرة العصر، وتساير ما فيه من المد والجزر.

وقبل الدخول في تفصيل وتبيان ما اتخذ في هذا المضمار، وما أنجز داخل هذا الاطار، أستسمحكم في أن أعود - شيئا ما إلى الوراء - لأحيط علمكم الكريم بأن أهم تشريعات الوقف، في المملكة المغربية تنبني - أساسا - على ما يلي :

- أولا وفي الميدان الكرائي الظهير المؤرخ في : 16 شعبان 1331 (21 يوليوز 1913) بخصوص الاكرية لأمد عادي سنة أو سنتين ولامد بعيد عشر سنوات فما فوق (وهذا ما لم يعد العمل به) أو بخصوص المعاوضات.

ففي الميدان الكرائي تجرى سمسرات علنية لكراء ممتلكات الوقف الحضرية منها (كالمتاجر والمساكن والحمامات والافرنة وغيرها) والقروية (كالأراضي والغلال وما سواها) للآماد التي حددت بالظهير المذكور، كما تجرى أيضا للأمد الذي حدده ظهير 30 رجب 1335 الموافق 22 ماي 1917 في ثلاث أو ست أو تسع سنوات.

أما عن المعاوضات، فقد سميت في الأوقاف المغربية بهذا الإسم، حفاظا عليها من الضياع، ذلك أنها تهم ما يفوت من الممتلكات الوقفية التي أخضعها المشرع الى مسطرة خاصة تنبني أساسا على إجراء سمسرة عمومية (أي مزاد علني) للملك المراد تفويته ثم بعد رسو السمسرة على المعوض له (أي المفوت له) لابد له من إيداع المبلغ الذي رست به السمسرة في الحساب المصرفي للوزارة وإنتظار إستصدار كتاب شريف من قبل صاحب الجلالة الملك الذي يعد الساهر الأمين على ممتلكات الأوقاف، وينص هذا الكتاب الشريف على ضرورة شراء العوض للحبس المعين، أو إستثمار الايراد فيما يرجع بالنفع والاستمرار لنفس الوقف.

ولما دعت الضرورة إلى إدخال تغييرات على هذه التشريعات من جهة وتطعيمها بأخرى من جهة ثانية، فقد تمت صياغة النصوص الآتية التي عرضت على الدوائر الحكومية :

- مشروع ظهير حول المعاوضات والمناقلات ونزع الملكية.

- مشروع ظهير حول تأكيد إمتياز الأوقاف ببناء الحمامات.

- مشروع ظهير حول مسطرة وكيفية بيع الغلال والمنتوجات الفلاحية.

- مشروع قانوني حول الأكرية الوقفية.

- مشروع قانون حول طبع وترويج وإستيراد المصاحف القرآنية المكتوبة والمسجلة.

حضرات السادة الكرام :

أود الآن - إن سمحتم - أن أخلص إلى مشاريع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، وقبل ذلك لابد أن أذكر بأن عدة مشاريع قد أقيمت إما بهبة كريمة من لدن دولة شقيقة، أو بقرض خاص من أخرى، فعن الأولى، فإن المملكة العربية السعودية قد بادرت بتمويل عدة مشاريع للأوقاف همت بنايات سكنية وتجارية في كل من المدن الآتية :

الرباط، سلا، مراكش، سطات، الجديدة، وجدة، الناظور، وبلغت هذه المساهمة الكريمة : 30 مليون ريال سعودي، أما عن الثاني، فإن صندوق أبو ظبي للإنماء الإقتصادي بدولة الإمارات العربية المتحدة، قد منح للأوقاف المغربية قرضا قيمته 40 مليون درهم

إستثمر كمساهمة في بناء مركب تجاري هام بمدينة الدار البيضاء.

أما بخصوص المشاريع التي مولتها الأوقاف المغربية لوحدها فقد كان لها في كل مخططات المملكة وجود. ففي المخطط الخماسي ، 1973 ـ 1977 تم إنجاز عدد من المشاريع العمرانية ذات المردود مساهمة في التخفيف من الأزمة السكنية وبلغ ما أنفق في هذا الباب مجموع ، 34.299.766.00 درهما. ولم يقتصر مجهود الوزارة على المشاريع السابق ذكرها. بل إمتد إلى القطاعات العصرية حيث ساهمت بما قدره ، 3.700.000.00 درهم في رأسمال الشركة العقارية للبناء والمساهمة التي تعتزم الوزارة التعاون معها لتطوير تدخلاتها في الميدان العمراني. وساهمت كذلك بمبلغ ، 7.300.000.00 درهم في رأسمال شركة المقام لغرض بناء مجموعات سكنية وإدخال أساليب جديدة على طرق الإستثمار.

أما في التصميم الثلاثي ، 1978 ـ 1980 فقد رصد لتشييد البنايات ذات العائد وتجزئة الأراضي ، 162.500.000.00 درهم. وفي التصميم الجاري الآن ، 1981 ـ 1985 خصص لبناء العمارات السكنية والحمامات والأفرنة وتجزئة الأراضي الحضرية وإستصلاح وصيانة الأراضي الفلاحية ما مجموعه ، 322.710.000.00 درهم.

ولما كانت الأوقاف في حد ذاتها وسيلة للتنمية المادية توفر مواجهة لايجاد وسائل الدعوة من بيوت يذكر فيها إسم الله وعلماء ووعاظ ومرشدين ومراكز للتربية الدينية ومرافق إجتماعية فإن سائر التصاميم قد عرفت عناية خاصة في هذا المضمار. وهكذا ففي التصميم الخماسي ، 1973 ـ 1977 تم تشييد 71 مسجدا في مختلف الأقاليم وتطلب ذلك إعتمادا ماليا قدره ، 22.109.151.00 درهما كما تم بناء مسجد جامع ومركز إسلامي بدكار، عاصمة السنيغال وآخر بنواكشوط عاصمة موريطانيا وثالث بليبروفيل عاصمة الكابون والمساهمة في المركزين الإسلاميين في كل من بروكسيل ببلجيكا وجنيف بسويسرا. مع تجهيز مسجد سيول بكوريا الجنوبية ومسجد لندن بأنجلترا بمنبرين يجسمان روعة الفن المغربي الأصيل.

وفي التصميم الثلاثي ، 1978 ـ 1980 تم بناء خمسين مسجدا بالقرى ومأوى للمكفوفين الصغار بمراكش إلى جانب صيانة عدد لا يستهان به من المؤسسات الدينية. أما التصميم الحالي ، 1981 ـ 1985 فقد خطط لبناء 29 مؤسسة دينية و85 مسجدا بالقرى وطبعا مع مزيد من الصيانة للمؤسسات الموجودة.

ولا ينحصر عمل الوزارة في تسيير المساجد التي تشيدها. بل أنها تعمل في كل سنة على تبني عدد من المساجد التي يبنيها بعض المحسنين.

وفي جانب إحياء وبعث التراث الإسلامي الذي تزخر به الخزانات المغربية. تم طبع عدد لا يستهان به من المصاحف القرآنية والكتب الهامة في التفسير والحديث والفقه واللغة والآداب والتاريخ والتراجم والجغرافيا والرحلات والطب والسياسة والعلوم المتنوعة وقد عرضت هذه المطبوعات على البيع بأثمنة مناسبة في المكتبة التي فتحتها الأوقاف بالرباط لهذه الغاية مع فتح فروع لها بمقر نظارات الأوقاف في مختلف الأقاليم. كما يتوالى إصدار مجلتي «دعوة الحق والإرشاد» إستمرارا للرسالة التي رسمت لهما في العناية بالدراسات الإسلامية وشؤون الثقافة والفكر وفي التثقيف الشعبي والتوجيه الإسلامي بإعتبار هما واجهة من الواجهات المضيئة للوزارة ومنبرا من منابر الثقافة والفكر في المملكة المغربية.

وحفاظا على السمعة الطيبة التي يتمتع بها المغرب في البلاد الإسلامية عامة. وفي القارة الإفريقية بصفة خاصة. تفتح الوزارة سنويا إعتمادات هامة من ميزانيتها الخاصة للإنفاق على التلاميذ المسلمين الواردين من مختلف الأقطار الإسلامية والأجنبية وذلك لمساعدتهم وتشجيعهم على متابعة دراساتهم بالمعاهد المغربية والإقامة بالأقسام الداخلية في كل من الثانويات الآتية ،

القرويين بفاس - بنيوسف بمراكش - القاضي ابن العربي بتطوان المعهد الإسلامي بمكناس - معهد محمد الخامس بتارودانت - ثانوية التعليم الأصيل بالجديدة.

وفي جانب الاعلام، تعمل الوزارة على إصدار كتب تعريفية بنشاطاتها ومنجزاتها في مختلف الميادين كما تعمل على إصدار نشرة سنوية في نفس المعنى، بالإضافة إلى مشاركتها في بعض المعارض الدولية والجهوية.

حضرات السادة الكرام،

هذا عرض موجز عن بعض ما تقوم به وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية للمحافظة على الوقف وتنميته وجعله يقوم بالدور الأساسي الذي إبتغاه له المحبسون رحمهم الله. على أنه للمزيد من التفاصيل والبيانات والإحصائيات فيمكنكم الرجوع إلى كتاب «الاوقاف في مواكبة مسيرة النماء».

"وصف أفريقيا" في مجلد واحد

●● عن (دار الغرب الإسلامي) ببيروت صدر كتاب (وصف إفريقيا) بجزءيه في مجلد واحد بتحقيق الدكتورين محمد حجي، ومحمد الأخضر، ويقع في 726 صفحة، والكتاب من تأليف الحسن محمد الوزاني الفاسي المعروف بليون الإفريقي ●●

برقية إلى جلالة الملك الحسن الثاني

مولاي أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني أعز الله أمره وخلد في الصالحات ذكره.

كلفني الأعضاء المشاركون في (ندوة مؤسسة الأوقاف في العالم العربي الإسلامي) التي عقدت بعاصمة مملكتكم الرباط في الفترة من 5 إلى 7 رجب 1403) والتي أقامها معهد البحوث والدراسات العربية التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم أن أرفع إلى مقامكم العالي بالله نيابة عن السيد رئيس المعهد المذكور والسادة العلماء والمفكرين أعضاء الندوة آيات تقديرهم واعتزازهم بما أحاطتهم به حكومة جلالتكم من سابغ الرعاية ووافر العناية وكريم الضيافة سائلين الله سبحانه وتعالى أن ينعم على هذه الأمة العربية الإسلامية على يدكم باليمن والإقبال والنصر القريب وأن يحفظكم بالقرآن العظيم ويديم عليكم الصحة والعافية ويسدد خطاكم في قيادة شعبكم العربي المسلم.

وإن أعضاء (ندوة مؤسسة الأوقاف في العالم الإسلامي) وقد فرغوا من دراسة كافة الجوانب المشرقة المتعلقة بموضوع الوقف الإسلامي، ليضرعون إلى الله تعالى أن يحقق للإسلام والمسلمين الازدهار والرقي في ظل اليقظة العربية والصحوة الإسلامية على مبادىء ديننا الحنيف وقيم حضارته الخالدة.

وفقكم الله يا مولاي لما يحبه ويرضاه، وأبقاكم ذخرا للبلاد والعباد، وحفظكم في ولي عهدكم المحبوب الأمير سيدي محمد وصنوه الأمير مولاي رشيد وكافة أفراد الأسرة المالكة الكريمة.

والسلام على المقام العالي بالله.

وزيركم في الأوقاف والشؤون الإسلامية

الهاشمي الفلالي أمين

في الذكرى الأربعينية لوفاة العلامة الشاعر

عبد الرحمان الدكالي

ضمن هذا الملف:

- كلمة السيد وزير الأوقاف والشؤون الاسلامية
- كلمة رئيس المجلس العلمي بولاية الرباط
- كلمة رئيس المجلس العلمي بطنجة
- كلمة رئيس المجلس العلمي بمراكش
- كلمة رئيس المجلس العلمي بفاس
- كلمة مدير دار الحديث الحسنية
- كلمة جمعية العلماء خريجي دار الحديث الحسنية

... وكلمات وقصائد أخرى ..

في الذكرى الأربعينية لوفاة العلامة
الشيخ عبد الرحمن الدكالي

●● أقيم بمناسبة الذكرى الأربعينية لوفاة الشيخ الأستاذ عبد الرحمان الدكالي حفل تأبين كبير بمنزله حضره بعض أعضاء حكومة صاحب الجلالة ومستشارا جلالته والحاجب الملكي والسادة رؤساء المجالس العلمية وجمهور من العلماء والمثقفين.

وبالمناسبة افتتح الحفل السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الأستاذ الهاشمي الفلالي بكلمة جاء فيها :

كلمة السيد وزير الأوقاف والشؤون الاسلامية الاستاذ الهاشمي الفلالي

حضرات السادة الكرام :

حينما عزمت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية على إقامة حفل تأبين للعلامة المرحوم الشيخ عبد الرحمان الدكالي. كانت تضع نصب عينيها مكانة هذا العالم العامل والدور الكبير الذي لعبه في حظيرة الوطنية والعلم والوظيفة السامية في خدمة المثل العليا ومقدسات الوطن وفي مقدمتها بعد دينه وعقيدته العرش العلوي المجيد الذي أخلص له المرحوم الإخلاص كله وتفانى في العمل من أجله فكان نعم الجندي الوفي والخديم المطيع.

ولقد قصدت الوزارة من وراء إحياء الذكرى الأربعين للفقيد العزيز إلى تخليد ذكره بإبراز ما كان يتصف به من مزايا وخصال سواء في المجال العلمي والأدبي والثقافي، أو في معترك الكفاح الوطني حيث كان عبد الرحمان الدكالي رجلا معروفا بالشجاعة والجرأة والإقدام.

وأرى حقا علي وقد خبرت وطنية الفقيد وشاهدت من أمره ما شاهدت أن أروي لكم بهذه المناسبة طرفا مما انفرد به عبد الرحمان الدكالي بين خلانه ورفاقه في الكفاح على عهد الحماية.

لقد كان بيت عبد الرحمان الدكالي بالرباط، كما كان بيت والده الشيخ الإمام أبي شعيب الدكالي مثابة للوطنيين وملتقى للعاملين في سبيل تحرير البلاد ورد شرعيتها إليها، وأذكر أن هذا البيت كان من بيوتات الرباط القليلة التي يلتئم فيها شمل هذه الصفوة الكريمة من رجال

الحركة الوطنية في المناسبات الوطنية وخاصة بمناسبة أعياد العرش احتفالا بذكرى توليه فقيد العروبة والإسلام وأبي الوطنية المغربية جلالة المغفور له محمد الخامس في 18 من شهر نوفمبر من كل سنة.

ولا أزال أذكر ـ حضرات السادة الكرام ـ تلك القصائد الوطنية التي كان الفقيد العزيز ينظمها بهذه المناسبة فترددها جماهير الشعب في حماس كبير.

وإلى جانب هذا كله، كان عبد الرحمان الدكالي من أنجب تلامذة والده الشيخ المربي المحدث الكبير أبي شعيب الدكالي، الذي قيل في حقه «عبده المغرب» ولا غرو فقد كان أبو شعيب الدكالي بحق من الطبقة الأولى من المحدثين الذين جددوا ما اندثر من علوم الدين ووصلوا ما انقطع من اشتغال بالتدريس والتثقيف والتوعية.

غير أن الرسالة السامية التي شغل أبو شعيب الدكالي نفسه بها هي الدعوة إلى الإصلاح الديني بتطهير المجتمع من البدع المحدثة ورواسب عهود التخلف وهي الدعوة السلفية المباركة التي ترتكز على وجوب العودة إلى الكتاب والسنة في كل شأن من شؤون ديننا ودنيانا، الأمر الذي جعل أبا شعيب الدكالي رائدا للسلفية وجعل بيته مركزا للعلم والدعوة والإصلاح والتجديد، وفي هذا الجو العلمي نشأ المرحوم عبد الرحمن.

وهكذا، نجد أننا إزاء شخصية صيغت صياغة علمية خالصة ونشأت في أحضان فحل من فحول الفكر الإسلامي والعمل الوطني لما فيه مصلحة العباد والبلاد، الأمر الذي يضفي على فقيدنا عبد الرحمان صفة متميزة تجعل منه رجلا أديبا وعالما من جنس العلماء الذين تخرجوا من مدرسة «عبده المغرب».

ويكفي عبد الرحمان أن يكون خريج هذه المدرسة التي يشهد الله أننا تتلمذنا في رحابها وتشبعنا بروحها ونشأنا على مبادئها وخضنا غمار الكفاح الوطني على هديها فكان لنا ما قدر الله أن يكون من جهد وجهاد، وسعي ونضال من أجل الإسلام والعروبة والوطن والعرش.

وهكذا، مرة أخرى، حضرات السادة الكرام، نجد أنفسنا، ونحن نجتمع لإحياء الذكرى الأربعين لفقيد العلم والأدب عبد الرحمان الدكالي، أقول نجد أنفسنا أمام جزء عزيز من تاريخ المغرب تميز فيما تميز به بالمواجهة السافرة والشاملة بين الحق والباطل، وبين الحرية والعبودية، وبين الاستقلال والاحتلال، وأشهد أنه كان لفقيدنا العزيز نصيبا موفورا من هذا الجهاد الشاق الطويل مما يلقاه عند ربه في دار الخلد إن شاء الله بردا وسلاما، ورحمة ومغفرة.

وأود قبل أن أختم كلمتي أن اتقدم بالشكر الوافر إلى كل الحاضرين الذين ساهموا بمشاركتهم لنا في هذا الحفل الذي أقمناه تكريما ووفاء منا للعلم ورجاله.

رحم الله فقيدنا الكبير وألهم ذويه الصبر والسلوان، وعزاؤنا مجددا في فقده إلى مولانا أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني وإلى الشعب المغربي والأمة الإسلامية.

كلمة الأستاذ محمد المكي الناصري
رئيس المجلس العلمي بولاية الرباط

حضرات السادة :

لقد اختار شيخ الإسلام أبو شعيب الدكالي لوليده الذي نؤبنه اليوم، عند ولادته بمكة اسم (عبد الرحمان) وهذا الإسم المحبب إليه كان هو اسم والد أبي شعيب نفسه، ولم يكن اختيار هذا الإسم له بالخصوص دون بقية إخوته الذين سبقوه جزافا أو مجرد صدفة، بل كان دليلا على تعلق قلب والده به، وعنوانا على الآمال العريضة التي كان يعلقها عليه، وربما كان فراسة منه تحاول اختراق حجب الغيب، وإذا كان والده شيخ الإسلام مجليا في جميع المحافل والمجالس بشخصيته القوية، وعلمه الغزير، وذاكرته الفريدة، ومشاركته الواسعة في كل فرع من فروع الثقافة الإسلامية على اختلاف أصنافها وتنوع فنونها، فإن

ولده عبد الرحمان الذي فقدناه قد أخذ من نوره قبسا عظيما، ولا سيما في فروع العربية والأدب والشعر والخطابة والحديث النبوي الشريف، حيث تلقى من ذلك ما يشفي ويكفي أثناء دراسته في المغرب ومصر، ثم قام بتلقين تلك المواد في حلقات الدروس فترة من الزمن، فكان يتحلق من حوله الطلبة والمعجبون به، في جامع مولاي سليمان بالرباط وجامع المواسين بمراكش.

حضرات الزملاء الأعزاء :

لقد كان فقيدنا رحمة الله عليه ذا خيال خصب، وشعور فياض، وإحساس مرهف، ونطق فصيح، وحديث جذاب، واستحضار سريع، ومرونة بالغة، وطموح كبير إلى معالي الأمور، وكانت الهالة التي ظلت تحيط بشخصية والده العظيم وذكراه الخالدة تفتح في وجهه الأبواب، وتشق له الطريق إلى كثير مما يصبو إليه، ولقد حاول جاهدا أن يتسلق قمة والده الفذ، فنال من ذلك ما قدر له، وإنه لقدر مهم لا يستهان به، واجتمع له ما لم يجتمع لغيره من أمثاله في ذلك العهد، فحظي بإعجاب الحركة الوطنية في مراحلها الأولى كشاعر مجيد وعميد لعائلة أبي شعيب الدكالي، يفتح دار والده لعقد المهرجانات الوطنية، والاجتماعات الشعبية، ويجل في قصائده مفاخرها ومناقب القائمين عليها، وحظي بتقدير المخزن الشريف حيث كان من أوائل الشبان المغاربة الذين عينوا في سلك القضاء داخل دار المخزن بمجلس الاستيناف الشرعي الأعلى وخارجها بمنطقة الغرب، وحظي بإعجاب القصر الملكي العامر وتشجيعه الخاص في عهد محمد الخامس طيب الله ثراه، حيث ضمه إلى مجلسه الحديثي العالي الذي كان ينعقد تحت رياسته داخل القصر، بحضور علماء العدوتين وموظفي دار المخزن، فكان أصغر المتحدثين في ذلك المجلس إلى جانب الشيوخ الكبار.

حضرات الزملاء الأعزاء :

بمجرد ما انبلج فجر الاستقلال اصطفاه القصر الملكي العامر، وخلع عليه محرر المغرب محمد الخامس طيب الله ثراه، حلة الثقة والاعتبار، وتقديرا لموقفه من العرش أثناء المنفى، فعينه محمد الخامس مرشدا عاما للقوات الملكية المسلحة وهي لا تزال فتية، ووضع تحت تصرفه جهازا خاصا للإرشاد يقوم بإصدار نشرة دورية لتوجيه الجيش وإرشاده، ومنحه بتلك الصفة درجة رائد «في سلك الجيش، مع ما يتبع تلك الدرجة من زي عسكري وامتيازات خاصة وخدمات إضافية، ونظرا لما اشتهر به والده شيخ الإسلام أبو شعيب الدكالي في حقل الدعوة الإسلامية، والقيام بأداء رسالتها طيلة حياته، وما تركه من أثر عميق لا يمحى من ذاكرة الشعب، اقتضى النظر الشريف تعيين فقيدنا في منصب مدير ديوان وزير الشؤون الإسلامية، ثم في منصب كاتب عام للشؤون الإسلامية بوزارة الأوقاف، أملا في أن يواصل مسيرة والده ويسلك طريقه اللاحب، ومنذ ذلك الحين شرعت وزارة الأوقاف في العمل على نشر التراث الإسلامي الذي ظل سجين الخزانات العلمية عدة قرون، وفي طليعة ما شرعت الوزارة في نشره، كتاب (التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد) للحافظ ابن عبد البر، وكتاب (ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك) للقاضي عياض السبتي.

ولما اعتلى عرش المملكة أمير المؤمنين **الحسن الثاني** أطال الله بقاءه، أقره على منصبه في الجيش بصفته مرشدا عاما، وعلى منصبه في وزارة الأوقاف، بصفته كاتبا عاما للشؤون الإسلامية، إذ كان على صلة وثيقة به أثناء نيابته عن والده في القيادة العليا للقوات الملكية المسلحة وهو ولي عهد المملكة، وفارق فقيدنا هذا المنصب عند تأليف أول وزارة ترأسها معالي الأستاذ أحمد عصمان، ليتفرغ لمهام أخرى.

وعندما افتتح جلالة الحسن الثاني سلسلة (الدروس الحسنية) في شهر رمضان من كل سنة، وفتحها في وجه عامة شعبه عن طريق الإذاعة والتلفزة مباشرة، كان الفقيد في طليعة المتحدثين في ذلك المجلس العلمي الرفيع، الذي يتبارى فيه كبار علماء المملكة، وقد شارك بالحديث فيه عدة مرات، بما عرفه عنه من طلاقة اللسان، وحسن البيان.

ونظرا للرعاية المولوية الخاصة التي شملته منذ فجر الاستقلال فقد اصبح شاعر القصر وشاعر العرش. ويسجل مآثره. ويصف مفاخره. ويحضر استقبالات ضيوف القصر الكبار من الملوك والرؤساء الأشقاء. فيلقي في الترحيب بهم وحسن استقبالهم القصائد الرائعة. كما يلقي القصائد الحماسية في المناسبات التاريخية والوطنية. وآخر منصب، احتله فقيدنا العزيز هو تعيينه من طرف صاحب الجلالة المنصور بالله رئيسا للمجلس العلمي لإقليم الجديدة وما جاوره من الأقاليم. ذلك المجلس الذي أهدى إليه خزانة كتبه العلمية في حفل رسمي مشهود، كما توج راعي الأكاديمية الأعلى جهوده الأدبية، بتعيينه عضوا في أكاديمية المملكة المغربية. وقد شاءت الأقدار أن يتوفاه الله بالمدينة المنورة. كما شاءت أن تكون ولادته بمكة المكرمة. وذلك منذ حوالي أربع وسبعين سنة.

حضرات الزملاء الأعزاء :

عندما ظهرت في الجو الإفريقي مؤامرة الحركات الانفصالية وتمزيق الوحدة الترابية. وبدأ قرن الفتنة يطل في الكونغو، بادر المغرب إلى نجدة تلك البلاد، سعيا منه في إعادة الشرعية إلى نصابها. وصيانة وحدة الكونغو الترابية من كل تصدع وتمزق ـ تلك الوحدة التي يومن بها المغرب، ويدافع عنها داخل حدوده وخارجها ـ وكان على رأس القوات الملكية المسلحة التي هبت لنصرة الكونغو تلبية لنداء الأمم المتحدة الجنرال الكتاني الشهير أول مارشال مغربي، وكان بجانبه فقيدنا العزيز، بصفته مرشدا للجيش فأبلى في تلك المهمة البلاء الحسن. ورعيا لخدماته ومواقفه كافأته الأمم المتحدة بوسامها العسكري، ووشحت صدره بوسام الشجاعة والتضحية، إلى جانب وسام العرش الذي وسمه به عاهلنا المفدى. وقد توفي فقيدنا العزيز وهو يحتل رتبة (عقيد) في القوات الملكية المسلحة إلى جانب رياسته للمجلس العلمي بإقليم الجديدة. وعضويته بأكاديمية المملكة المغربية. فعزاء لأسرته الصغرى وللأسرة العلمية الكبرى.

رحم الله فقيدنا، وأثابه الثواب الجزيل. وعوضنا عنه الصبر الجميل.

كلمة الأستاذ عبد الله كنون
رئيس المجلس العلمي بطنجة

السيد الرئيس

أيها السادة

إننا ونحن نودع الفقيد العزيز الأستاذ العلامة السيد عبد الرحمن الدكالي نغفل عن طبيعة هذه الحياة التي هي عدم محض. ونغر أنفسنا فنمد لها في حبل الأماني حتى انها لتستنيم إلى المغالطات المكشوفة وأول ما يكذبها أننا في ظرف سنتين تقريبا، فقدنا عددا من خيرة زملائنا، آخرهم الراحل الذي نؤبنه الآن.

لا يبعد الله إخوانا لنا ذهبوا
أفناهم حدثان الدهر والأبد
نمدهم كل يوم من بقيتنا
ولا يؤوب إلينا منهم أحد

ولعل الأيام، وهي من حين لآخر، تطفئ مصباحا من هذه المصابيح المنصوبة على الطريق. إنما تذكرنا بطبيعتها العدمية التي يأبى غرورنا إلا أن يجعلنا نطمئن إليها ونخلع عليها حلة البقاء، وهي تنخرنا نخرا وتحصدنا حصدا.

هي الدنيا تقول بملء فيها
حذار حذار من بطشي وفتكي
فلا يغرركم مني ابتسام
فقولي مضحك والفعل مبك

وما أصدق قول الحكيم : أيها الإنسان، إنما أنت عدد، فإذا ذهب يوم ذهب بعضك. وهذه المقولة تشير إلى بطلان تسلسل الحياة في نفسها، فبطلان تسلسلها في

الإنسان أخروي. ومن ثم قال الرسول صلى الله عليه وسلم : اللهم لاعيش الا عيش الآخرة. وهو بمثابة التفسير لقوله تعالى : **«وما هذه الحياة الدنيا إلا لعب ولهو، وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون.**

وإذ يعجز الفكر عن إدراك حقائق الحياة، نرجع إلى الغيبيات نستريح في ظلها، ونهتدي بموجباتها. فإن العجز عن الإدراك إدراك. وفي القرآن الكريم أول سورة البقرة يقول الله تعالى : **«بسم الله الرحمن الرحيم ألم. ذالك الكتاب لاريب، فيه هدى للمتقين الذين يومنون بالغيب.**

هذا ولئن كان أخونا الأستاذ الدكالي لم تمهله المنية إلى أن يقوم بنشاط ذي أهمية أكثر ضمن مجالات المجالس العلمية الإقليمية، فإن حياته الماضية سجل حافل بالأعمال العلمية، والمواقف الوطنية، نعد منها ولا نحصيها ونلم بها ولا نستوفيها.

ومنها أنه كان عظيم الايمان، راسخ العقيدة، متين الدين، قوي اليقين، ولا غرو فإن بيته بيت علم ودعوة ودلالة على الله وارشاد إلى الصراط المستقيم، ومن نشأ في كنف والد كوالده الشيخ الإمام الحافظ السلفي أبي شعيب الصديقي الدكالي، كيف لايكون مومنا صدقا، ومسلما حقا. جمع بين العلم والعمل، والجهاد والتضحية، فعلم ونصح، ووعظ وأخلص، وكافح الاستعمار بلسانه وقلمه، ولاسيما بشعره البليغ المؤثر، وساير ركب الحركة الوطنية، فناله من الأذى ما لم ينج منه مغربي آمن بالحرية، وأنف من ذل السيطرة الأجنبية ؟.

وفي عهد الاستقلال عرف له محمد الخامس قدس الله روحه، ماضيه الوطني المجيد فكافأه بتعيينه مرشدا عاما للقوات المسلحة الملكية، وهو منصب خطير لما له من أثر في رفع الروح المعنوية للجيش الوطني. ولولا ثقة العاهل العظيم وولي عهده إذ ذاك رئيس القوات المسلحة الملكية لما أسندت إليه هذه المهمة الكبيرة.

ويتحدث الأستاذ الدكالي عن عمله في تربية الجند على حب العلم وأداء شعائر الدين وبناء المساجد في الثكنات العسكرية، فيقول في بعض شعره :

جيش البلاد مجهز ومنظـــــم
هـو حصنهـا مـن أي ماعدوان

إنـي لأكبـر فـي الجنـود محبة
التعليـم والإرشـاد والتبيـان

في ظرف عامين أمحـت أمية
فالكـل يكتـب درسـه ببيـان

سبعون بيتا للصلاة تهيـأت
بجهودكـم لعبـادة الرحمـان

لله مـا أبهى الجنود توجهـوا
لصلاتهـم بعـد استمـاع أذان

جيش من الشعب الكريم محبب
أعماله للشعـب للبنيـان

والشعر عند فقيدنا الجليل مادة غزيرة تفيض بالكثير الطيب من العواطف والانفعالات ازاء الأحداث الوطنية، والتطورات الاجتماعية وغيرها، فهو يكون تاريخا ملحميا للنضال الشعبي في سبيل العزة والكرامة، والتحرر السياسي للبلاد. وقديما قال علماؤنا : الشعر ديوان العرب. ويقول الأستاذ الدكالي في إحدى قصائده العرشية :

أأكون شاعر أمـة مظلومـة
فإذا استقلت لم أكن بمكانـي

ياشعب أنت محـرر بمحمـد
لا تخش من ظلم ومن طغيـان

ما ربع قرن في الجهاد بهيـن
أحداثـه وهمومـه ديوانـي

كم من قصائد صغتها ونظمتهـا
عقدا من الآلام والأحـزان

ما محنة الماضي سوى أس لما
يبنيه للأجيال هذا البانـي

وهو صادق في قوله هذا، فكم تغنى بالحرية والاستقلال، وبشر بانبلاج فجرهما، وقارع خصوم الشعب بالحجة والبرهان، مشيدا في شعره بالحركة الوطنية التي لابد أن تؤدي إلى كسر القيود والانطلاق من ربقة الاستعباد، ولنستمع إلى هذه الأبيات من قصيدة أخرى له :

ان عهد استعباد شعب لشعـب
صار يبكي مؤبنا غربانـه

كرة الأرض حرة فليغـادر
كرة الأرض من يريد إهانـه

سادة السلم في الورى قد سعيتم
لسلام فهل ملكتم عنانـه ؟

إنه العدل بين كل قـــوي
وضعيـف قد بثكـم أحزانـــه
إنه نصرة الضعيف إذا مـــا
جاء يشكـو إليكـم أشجانـــه
ليس أسطولكـم علـى كل بحر
وسـلاح شكلتهـم ألوانـــه
يمنـع الحرب أن تشن ولكـــن
يمنع الحرب عدله سبحانـــه
يمنع الحرب أن تنال حقـــوق
يمنع الحرب أن تداس الخيانـه
يمنع الحرب أن يرى مستقـلا
كل شعب يسعى ليصلح شأنـــه
لا ضعيف مستعبـد لا قـــوى
مستبد لا أثـــرة لا استكانـــه
حـرروا هذه الشعـوب وهاكـم
لانتشار الـسلام ألـف ضمانـه
نحن قوم نصارع الظلم حتـى
نسقط الظلم لابسا أكفانـــه
لانخاف العدو حربا وسلـمـا
قد عرفنا في الحالتين امتنانـــه
زمن الخوف والتردد ولـــى
كسر العزم. عزمنا. عيدانـــه

وهكذا يسلس له القول وينـدفع كالسيل في شعره الوطني، مجادلا ومنافحا عن فكره وعقيدته وحق الشعب في التحرر والانعتاق ورفض السيطرة الأجنبية، ولا يقف عند الدفاع عن كرامة وطنه فحسب، بل يعمم تأييده لكل انتفاضة في أي شعب وكل بلد مغلوب على أمره كما رأينا في هذه الأبيات، ويخاطب المسيطرين والمتغلبين في كل بقعة من بقاع الأرض، منددا بظلمهم ومطالبا لهم بكف عدوانهم عن المستضعفين، ومتوعدا إياهم بوخامة العاقبة وسوء المصير.

ومن حق أخينا الكريم، وقد نوهنا بقوة إيمانه وصدق يقينه أن ننقل بعض قوله في الإسلام، دين الحق والمساواة والعدل والحضارة، فلنصغ إليه وهو يمجد هذا الدين الحنيف :

لله هذا الدين وحي منـــزل
وحديثـه الباقـي على الأزمان
دين التساوي والعدالة والاخـا
والنصح والإخـلاص والاتقـان
دين الجديد من الحضارة والقـد
يـم تراهـمـا بالحـق يلتقيـان
ما أحوج الدنيا لدين محمــد
لبناء صرح المجد والعمــران
يدعو الجميع إلى عبادة واحــد
ويكرم التقوى من الإنـــسان
لا ميز بين بنيه لا عصبيـــة
بين القبائل أو على الألـــوان
الله أكبرهم جنت من هديــه
أمم وكان لها أجل ضمـــان

ويشاء الله عز وجل أن يعامله على مقتضى إيمانه وبحسب يقينه فيه، فيكرمه بالوفاة في حرم نبيه المصطفى عليه الصلاة والسلام، والدفن في البقيع وذالك منتهى أمل كل مومن، فهنيئا له وسلاما عليه في جدثه ذاتا طاهرة، وفي برزخه روحا طيبة، وعزاء لأهله وذويه ومحبيه، ولنا معشر زملائه في هذه المجالس العلمية الإقليمية المفجوعة به، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

كلمة الأستاذ الرحالي الفاروقي
رئيس المجلس العلمي بمراكش

الله أكبر. **«كل نفس ذائقة الموت» «كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام»** **«كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون»**.

أيها السادة :

إننا نرى هذه الدنيا تطوي كل يوم ابنا من أبنائنا وتشملهم جميعا بأرزائها، وتطحنهم شيئا فشيئا بكلكلها، ولا ترحم صغيرا ولا كبيرا، ولا تبقي غنيا ولا فقيرا، أينما وليت وجهك رأيت محمولا على أعواد، وحيثما أوغلت وجدت باكيا وشاكيا وتائها وحائرا، لقد دهانا ما فقدناه ولحدناه ونعيناه، إنه أخ من إخواننا وعالم من علمائنا، وداعية من دعاتنا ونابغة من نوابغنا، وانه وعاء من أوعية المعرفة والعلم وآية من آيات الإدراك والفهم، وهمة عالية، وروح سامية. اللهم إننا نتأسف ونترحم، نتأسف على من كان بالأمس القريب إلى جانبنا ودعامة من دعائم حياتنا وعالما من أفذاذ علمائنا، ونترحم على من فقدنا أثره وغاب عنا ولم نره، نترحم عليه بلسان هذه الذكرى لأننا لا نملك له ذكرا غير هذه الذكرى، ومما هو حق وواجب أحياء الرجال الذين سخروا مواهبهم وخصائصهم لصالح المجتمع العام الشامل، والذين قدموا من ذخائرهم الفكرية ومن ثرواتهم الأدبية ومن أخلاقهم المستوية ما يسدد أخلاقه وينور أفكاره ويقوم حياته، ذلك أن الخلق عيال الله وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله، وهذا النفع يتنوع بحسب العاملين في سبيل الله، وفي خدمة الصالح العام بالمال للذين يساهمون بأموالهم في رفع مستوى الحياة الاجتماعية، وبالعلم للذين يشتغلون بشرح المبادئ الأولية والتعاليم الدينية، وبالفكر والثقافة للذين يختصون في إبراز أسباب النهضة المادية والاقتصادية، وبالتهذيب والتربية لحفظ المقومات والأخلاق والأموال والأرزاق، وأصل ذكر الرجال من وراء وفاتهم وتأبين محاسن حياتهم قول الله عز وجل : **«أذكر في الكتاب ابراهيم إنه كان صديقا نبيئا» «واذكر في الكتاب اسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيئا وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا» «واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيئا ورفعناه مكانا عليا».**

ونحن نذكر ونؤبن فقيدنا ورفيقنا وعلمنا الأستاذ العلامة النافع المطلع عبد الرحمان الدكالي انه كان عالما فاضلا وزكيا كريما وهادئا متواضعا وهينا لينا ذا أخلاق سمحة يتمتع بالسمت الطيب والنباهة والشرف والذكر الحسن، وقد كان رحمه الله عالي الثقافة وسامي المعرفة وحسن المروءة، ومن جملة الأعضاء العاملين والمستشارين في هيئة رابطة العلماء ومن الذين بثوا العلم في صدور الرجال الكبار، ونفخوا روح التربية والأخلاق في نفوس الصبيان الصغار، وكل من تحدث الناس بذكره بعد ذهابه وتغنوا بحمده وشكره فإنما ذلك لمعانيه الرائعة، والإثارة الخالدة النافعة، وأكثر ما يكون ذلك في الإنسان المناضل إذا نمت هذه المعطيات في جولاتهم وزنا للمواهب ولا يعير أذنا للمناصب، وإن كان ذلك يسيء إلى الثقافة الإنسانية التي تتجلى في إدراك المقاييس الصحيحة السليمة، وفي إعداد العناصر الحية الكريمة وهي التي تسعى بدورها إلى استنطاق الطاقات واستنباط الحاجات بواسطة العناية التي تحاول بقوة منطقها وفلسفة فكرها أن تؤالف بين مواهب الثقافة ومواكب الحضارة، وإن الله سبحانه كما كتب الموت على خلقه كتب الرحمة على نفسه، وأبى سبحانه إلا أن تسبق رحمته غضبه وعذابه، ويضاعف لمن يشاء فضله وثوابه، وإننا لنشعر في هذه اللحظة السانحة والفترة الرائحة بشدة الحزن والأسى الذي يلازم عمق الحشا، وقد فقدنا علما من أعلام الدين الشاهقة وركنا من أركان العلم الخافقة، إذ نعى غرر الشمائل من نعاه، وجلل بالأسى وطنا نماه، ولقد أزعجنا وأرعبنا سرعة انتقال ذوي العلم والفضل في وقت نحن في أشد الحاجة والضرورة إلى من يقتدي بعلمه وعمله وإلى من يرتضي لإصلاح قومه وأهله وإذا ذهب العلم والعلماء بقي الجهل والجهلاء، وإذا مضى الصلاح والصالحون جاء الفساد والفاسدون، نسأل الله تعالى أن يتغمد رفيقنا وفقيدنا برحمته ومغفرته، وأن يسكنه فسيح جنانه وعزاء لذويه وصحبه وللعلم وأهله، وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون.

كلمة الأستاذ الحاج أحمد بن شقرون

رئيس المجلس العلمي بفاس

الفقيه العلامة، السيد عبد الرحمن ابن أبي شعيب الدكالي، رئيس المجلس العلمي لإقليم الجديدة والأقاليم التابعة لها، وعضو أكاديمية المملكة المغربية، علم من أعلام الأصالة الإسلامية في المملكة المغربية، وشاعر كبير من شعرائها الفطاحل، وكتابها المرموقين.

- تربى في حضن والده العلامة الحافظ، الشيخ أبي شعيب الدكالي، الذي طار بصيته الركبان - وتعلم العلم على كبار علماء المغرب، والمشرق، وتابع تفوقه فيه، والغرف من منابعه حتى بز أقرانه.

- ولما جاء من فضل في بث العلم في الصدور، أخذ على نفسه أن يشرع في تعليم العلم لله، ليجد ثواب ذلك عند الله، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا، وهكذا تابع إلقاء دروسه في مسجد المواسين بمراكش، وفي مسجد السنة بالرباط، فاستفاد منه عدد كبير من الطلاب، ورواد المعرفة، الذين يترددون على المساجد، لغاية التفقه في الدين، وكان رحمه الله، بما أوتي من فصاحة لسان، وقوة بيان، نسيج وحده في تزويد المسلمين بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما انطوت عليه من أحكام وتشريعات وآداب، وأخلاق.

- وكان في الوقت نفسه، يلهب الشعور الوطني بقصائده الحماسية، وبعرشياته التي يزخر بها ديوانه، الذي كان يعتزم طبعه، ولكن المنية عاجلته، فبقي طبع الديوان أمانة في أعناق أصدقائه، الذين يجب عليهم أن يقوموا بهذا الواجب الفني، والوطني، والوفائي، في آن واحد.

- وللمكانة التي حصل عليها من لدن جلالة المغفور له سيدي محمد الخامس تغمده الله برحمته عينه مرشدا عاما، للقوات الملكية المسلحة، فقام بعمله خير قيام، بما قدم لتلك القوات من نصح، يتضمن ما أعد الله للمومنين الصادقين، من نعيم خالد في دار الجزاء.

وكان رحمه الله كاتبا عاما لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، فأبلى في ذلك البلاء الحسن، بما عرف عنه من صبر، في متابعة الأعمال التي تناط به، وتوج أعماله العلمية بالدروس العامرة التي ألقاها عدة مرات، أمام جلالة الملك المعظم، في منبر الدروس الحسنية الرمضانية.

- وفي المدة الأخيرة، عينه أمير المومنين جلالة الحسن الثاني نصره الله، رئيسا للمجلس العلمي الإقليمي للجديدة، فكان له فيها، وفي إقليمها، ما يذكر بالثناء الجميل، ومن المعلوم، أن الله تعالى وفقه، فأهدى خزانة كتبه، لطلاب العلم في الإقليم، وتم تسليم ذلك في حفل حاشد، أثناء حفلات عيد العرش السعيد، للذكرى الثانية والعشرين، لتربع جلالة الملك الحسن الثاني، على عرش أسلافه المنعمين.

- ولما لي به من صلة خاصة، فقد عرفت عنه الشيء الكثير، في باب التعلق بذكر الله، والتوجه إليه آناء الليل، وأطراف النهار، عن طريق تلاوة القرآن والتهجد به، والناس نيام، وكلما ذاكرني في هذه الموضوعات، وما حصل له فيها من فتح، وهو في المسجد الحرام، وأمام الكعبة المكرمة، وفي الروضة النبوية الطاهرة، خشعت نفسه، واغرورقت عيناه بالدموع.

- لقد بذل جهدا مشكورا في إرساء قواعد دار الحديث الحسنية، في الظروف الأولى لإنشائها، فأشرف على امتحانات القبول في الدار، ووضع برنامجا لها، مع نخبة من كبار العلماء، وقرب مسافات الخلف بين النظريات، التي كانت تتجاذب أطراف الموضوع، وقضى زمنا في الدار، يمتن تطبيق النموذجية التي يراها في موضوع العناية بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، متنا، وسندا وحفظا، واستظهارا، وتمثلا لأخلاق النبوة التي يجب أن تهيمن على سلوك طلبة العلوم الإسلامية، التي تعتبر السنة النبوية أصلا من أصولها.

ـ وهكذا عاش يتتبع خطوات الدار، وسلوك طلبتها، ويقترح لها من كبار علماء المملكة، من يرى فيهم القدوة الصالحة، والمقدرة الكافية، لنجاح فكرة احياء حفاظ الحديث في المملكة المغربية، كما كان عليه الأمر من قبل حيث انتهت الرئاسة في ذلك، لوالده العلامة، الشيخ أبي شعيب الدكالي مفخرة العلماء، وكان يحفزه إلى هذه العناية، أن الدار تحمل اسم جلالة الملك المعظم، حامل راية الأصالة الإسلامية، وباعث نهضتها، والمومن برسالتها، التي تحتضن سعادة البشرية جمعاء، فنجح فيما تحمس له من قبل، حتى أصبحنا نطلع في المعارض التي ينظمها خريجو الدار، على سبعين رسالة، وتسع أطروحات، تدور كلها في موضوعات إسلامية صميمة.

وبعد صلاة الصبح، وفي المسجد النبوي بالمدينة المنورة، يفارق هذا العالم الفاني، إلى عالم البقاء والخلود، ويدفن في البقيع، جعله الله مع النبيئين، والصديقين، والشهداء، والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

أيها السادة :

نجتمع ـ هنا ـ في هذا الحفل الرهيب لا لنؤبن شاعرا فحلا بلغ في الشاعرية شأوا بعيدا، وفي البيان باعا طويلا، وفي الإبداع درجة ممتازة.

شاعرا تغنى بأمجاد العروبة والإسلام، واستنهض الهمم، ودعا إلى الوحدة والسلام، وأشرب حب التصافي والوئام، وكرس حياته لخدمة العرش العلوي العتيد، ووقف أوقاته على الإشادة بمجده التليد.

ولسنا ـ هنا ـ نؤبن أديبا ألمعيا، شرق أدبه وغرب، وذهب في فنونه كل مذهب، إننا ـ أيها السادة، نؤبن اليوم ـ الشيخ أبا شعيب نفسه ممثلا في ولده، ولو بعد نصف قرن من الزمان، لأن فقيدنا العزيز العلامة السيد عبد الرحمن، المأسوف على علمه، وأدبه، وأخلاقه، نسخة طبق الأصل من والده رحمهما الله.

فقد ورث عن والده المقدس، الشيخ الحافظ الواعية، أبي شعيب رحمه الله، سلفيته وعرفانه، وشجاعته وإقدامه، وفصاحته وبيانه، وتواضعه وإحسانه.

ـ لقد عرفنا ـ أيها السادة ـ أخانا فقيد العلم والعرفان، العلامة السيد عبد الرحمن، فعرفنا فيه اللطف، والأدب، عرفنا الذكاء، وعلو الهمة، وعرفنا صفاء الضمير، وبشاشة المحيا، وصدق اللهجة، لا تكاد تفارقه النكتة اللطيفة، الشيء الذي كان يحببه للكثير من إخوانه، الذين كان لهم بيته كنادي أدبي ـ علمي، يستقبلون فيه منه بكل تجلة واحترام، لما جبل عليه من خلق جميل.

فإذا شاركته جوه العلمي، والثقافي، ألفيت أمامك عارضة قوية، تنطلق في بيان ساحر، وبلاغة نادرة، وسيل من المعارف والعلوم لا ينضب معينه، كأنك أمام موسوعة علمية تنقلك من هنا إلى هنالك.

فهناك الحديث ورجاله، وأسانيده ومتونه، ومراتبه وتاريخه.

وهناك الفقه وأصوله واستنباطاته، والأدب وفنونه.

كل ذلك في فصاحة لسان، وعذوبة منطق، وعدم زهو بالنفس وخيلاء.

أما إن دخل بك معمعة السلفية، ومحاربة الجمود والشعوذة ثم انتقل بك إلى معين الشريعة العذب الصافي من الأكدار، والخرافات والترهات، واستنهاض الهمم، وإذكاء روح الإسلام الحق، ففارس الميدان الذي لا يشق له غبار.

وقد رأيناه ـ رحمه الله ـ في كل ما قلده من عمل، أو أسند إليه من مهمة، يقوم به بما عهد فيه من حيوية، ومقدرة، ونشاط.

أما دروسه الدينية التي كان يلقيها كما قلنا في لهجة صادقة، وغيرة نادرة، وإيمان قوي، وحسن توعية، فقد استفاد منها الجم الغفير من المومنين الذين كانوا يحضرونها، ويتبعونها بلهفة وشوق، **(يا أيتها النفس المطمئنة أرجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي)** صدق الله العظيم.

كلمة د. محمد فاروق النبهان
مدير دار الحديث الحسنية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين أيها السادة الأجلاء ،

قبل أيام.. اختطفت المنية منا أخا كبيرا وصديقا عزيزا. كنا جميعا نتوقع عودته الميمونة من الرحاب المقدسة. ولكنه آثر البقاء هناك في مدينة النور والرسالة. وفي بقاع مقدسة طاهرة..

قبل أيام.. من رحلته الأخيرة.. كنت أودعه الوداع الأخير. ولم أكن أعلم أنه الوداع الأخير. كان وجهه يتهلل فرحة ويشرق نورا. كان يحدثني بفرحة كبيرة عن مكتبة أهداها إلى المجلس العلمي في الجديدة. كان سعيدا بذلك. وكان يتطلع إلى رحلته الأخيرة وكأنه ينتظر يوم زفافه لكي يكون في صحبة الشهداء والصديقين في بقيع من أحبهم الله وارتضاهم من عباده الصالحين..

كان شيخنا الجليل العلامة المحدث الشيخ عبد الرحمان الدكالي من أعلام المغرب، علما وفضلا، وجهادا ووفاء وإخلاصا. لقد عرفته في أول زيارة لي إلى المغرب قبل عشر سنوات. وتوطدت بيننا منذ أول لقاء صداقة ومودة. كنت شديد الاعتزاز بها. شديد الحرص عليها. وفي كل يوم من الأيام التي أعقبت ذلك اللقاء كنت أكتشف جانبا من جوانب عظمة الراحل الكبير. خلقا رفيعا. ونبلا أصيلا. وعلما غزيرا. وشجاعة في المواقف. وإخلاصا نادرا. ووفاء لقيم الفضيلة والخير.

لقد ورث الفقيد الكبير عن والده شيخ الإسلام ورائد الدعوة السلفية في المغرب الشيخ أبي شعيب الدكالي الصديقي علمه وأدبه وفضله. فكان محدثا كثير الحفظ واسع الاطلاع. مرجعا معتمدا في الرواية. حجة في معرفة الأسانيد والرجال. وقد شهدته في مواقف علمية كثيرة. وكنت أعجب بسرعة بديهته. وقوة ذاكرته. وكثرة ما كان مطلعا عليه من علم وأدب ولغة وشعر.. واستمعت إليه مرة وهو يناقش أطروحة للدكتورة في الحديث في دار الحديث الحسنية فأعجبت كل الإعجاب بسعة علمه. وقدرته الفائقة على المناقشة العلمية الرصينة الهادئة. وعلى استيعابه الدقيق لكل القضايا التي كانت موطنا للنقاش.

وبالإضافة إلى هذا. فقد كان متحدثا قديرا وخطيبا متمكنا. وكان قادرا على تطويع مفردات اللغة واستخدامها الاستخدام الصحيح. معتمدا في ذلك على كثرة ما كان يحفظه من آيات قرآنية وأحاديث نبوية وكان كثير الاستدلال بالنصوص. قوي الحجة بفضل ما كان يحفظه منها ويستعين بها في أحاديثه وخطبه..

وكان شاعرا فصيحا. متمكنا من اللغة. متحكما في معانيه الشعرية. ملتزما في مواقفه لا يبذل عواطفه الوجدانية إلا عن قناعة. يمدح من غير تزلف. ويثني من غير إفراط. ويدافع عن قيم ومواقف ولا يحني هامته ذلا وتملقا. يحب المغرب ويغار على قيمه. يدافع عن الحق من غير تخاذل. ويتصدى لما يعتقده مجانبا للصواب بشجاعة وإقدام..

وهو في هذه الخصال لا يتكلف ذلك تكلفا. وإنما ينطلق من سجية فطرية. مطبوع عليها منذ طفولته الأولى. وهو في ذلك صادق مع نفسه. ويرضي ضميره. ويستجيب لنداء خفي يخفق به قلبه. وتتفاعل معه جوارحه..

وإذا كان الالتزام في المواقف ضروريا بالنسبة للشاعر. وهو موقف أخلاقي تدعو إليه الفضيلة فإن الفقيد

العظيم كان ملتزما في مواقفه الوطنية، وفي عواطفه الوجدانية، وفي ولائه المطلق للعرش المغربي المجيد.

وإن من أروع مواقف الالتزام لدى الفقيد هو التزامه الكامل والمطلق بأن يسخر كل طاقاته لخدمة المغرب، فقد كان يعتقد بأن العرش المغربي هو الضمان الوحيد لاستمرارية المغرب إسلاميا وحضاريا، وهو الرمز الأكبر للشخصية المغربية المتميزة تاريخيا وفكريا..

ومن هذا المنطلق فقد كان شديد الولاء للعرش المغربي، قويا في الدفاع عن أهمية استمراره، شديد الغيرة على قيم العرش وفضائله، لا يهادن ولا يساوم فيما يعتقده أساسيا من المواقف، وكان رحمه الله يعتقد أن ولاءه للعرش هو وفاء للمغرب ولتاريخ المغرب، لأن العرش هو رمز الشخصية المغربية، وكان شديد الإعجاب بجلالة الملك الحسن الثاني وبخصاله السامية وبشجاعته النادرة، وبقيادته الحكيمة لمسيرة المغرب في العصر الحديث..

أيها الراحل العزيز،

دمعة من أعماق القلوب، نذرفها حزنا على فراقك، وصرخة حزن صادقة، نطلقها أسى، في يوم من أيام وداعك، لقد كنت دائما ملء العين والقلب، وستظل دائما كما كنت، نحبك من الأعماق، ونذكرك، ونذكر فيك، مواقف نبل ومروءة وفضيلة.

أيها الراحل إلى عالم الخلود..

في بقيع الشهداء والصديقين ترقد اليوم، في ثوب ناصع البياض، كله طهر وصفاء ونقاء، فنم هناك نوما هنيا رضيا، واستمع كل صباح إلى ما يردده المصلون الخاشعون الزائرون في مدينة الهدى والنور، من أدعية صادرة من حناجر، ما أنهكها ذل الطامعين ولا استبد بها طغيان الغافلين...

لقد كنت أيها الراحل إلى دنيا الخلود، كبير النفس عظيم الهمة، أديت واجبك كأحسن ما يكون الأداء، وكنت في مقدمة المسيرات المجاهدات، وفاء لبلدك، وولاء لملكك..

وعلى أبواب جنة الخلود، نودعك الوداع الأخير، ونخاطب بكل الإكبار والإجلال، روحك الطاهرة، التي ترفرف بأجنحة نقية بيضاء فوق رؤوس اجتمعت اليوم، في رحاب بيت أردته أن يكون مجمعا رحبا للأحبة، فاجتمعوا جميعا وغبت عنهم، واخترت مرقدا لا يفنيه تعاقب الأيام، وصحبا ما عشت بنقاء سريرتهم مقاتل الرجال.

أيها الراحل العزيز،

من بعيد نسمع همسات صوتك تنساب في وجداننا، تشاركنا هذا اللقاء، وليس من عادتك أن تغيب عن استقبال صحب جمعتهم عاطفة حب لك، وشدتهم إلى بيتك عاطفة وفاء، فأنت ستظل باستمرار معنا، وستظل روحك الطاهرة تنتقل بين الأصدقاء توقد في النفوس مشاعر مودة ووفاء ما كان لها أن تنطفئ أبدا..

وإلى جنة الخلد نشيعك ونودعك الوداع الأخير، وفي رعاية الله أيها الراحل العزيز.

كلمة الأستاذ محمد عبد العزيز بنعبد الله

لم تكد تمضي أسابيع معدودة على وفاة الفقيه العالم السيد أحمد بن أبي شعيب الدكالي، الذي كان لفقده من صادق الأسف، ولاعج الحسرة، حتى حم القضاء، فروعنا بنبأ فاجع مفاجئ، ووفاة عالم جليل، ومحدث قدير، وشاعر مفلق كبير، وخطيب مصقع جهير، هو الأستاذ السيد عبد الرحمن الدكالي الذي ودع دنيانا، منذ أربعين يوما، وعبر

الشاطئ الآخر، إلى رحاب الله وجواره، وليرقد رقودا أبديا في بقعة من أقدس بقاع الأرض، ورقعة من أطهر رقاع الدنيا، ومع عشرة آلاف من الصحابة والمجاهدين والشهداء..

وقبل المرحومين العزيزين روعنا القدر بفقدان فقيه عزيز، وعالم مشارك، كان ثروة ضخمة من علوم القرآن والحديث وفنون اللسان والآداب الإنسانية هو أستاذنا الشهيد السيد عبد الله الجراري رحمه الله.

وإننا في كل شهر نتفجع بأخ غال يتخطفه الموت وعالم لامع يختفي بموته نجم متألق في عالم المعرفة والثقافة، وكأننا خلقنا للتفجع والبكاء وتسكاب الدموع... وكان تتابع المفاجآت والمباغتات سريعا صاعقا، لم يدع مهلة لصديق يبادر إلى أداء واجب الذكر والوفاء... فلا يكاد المرء يمسك بالقلم ليذكر أخاه، حتى يباغته نبأ رحيل جديد.. هكذا فارقنا خلال هذه السنوات الأخيرة طائفة من الأصدقاء والأحباب تركت على كل وجه سهوم الحزن، وفي كل قلب لهيب الحسرة، وفي كل صدر لوعة يعز عليها الصبر...

فواها لبلادنا مما يرزؤها به القدر حينا بعد حين، ووالهفي على قلوب أحباب فقيدنا وأصدقائه من احتمال فقدان هذه العصبة الخيرة من الأصدقاء والعلماء الخالدين... وإن مما يكرثنا ألما لفقد مثل هؤلاء العلماء، ويزيدنا شعورا بالخسارة الفادحة، أننا نفقد رجالنا وعلماءنا لا إلى عوض، فكلما ودعنا رجلا من رجالاتنا النابغين، ازداد حزننا عليه، لأننا نودعه، ولا نستقبل خلفا له، فالمشتغلون اليوم، بالعلم كثير، بيد أنهم يشتغلون للعيش لا لذات العلم ولا للنبوغ.. كما إننا نستقبل مئات الطلاب، الذين يحملون أرقى الشهادات، ولكن لا نستقبل نابغا واحدا..

فالقبور تبتلع كل يوم ألوفا من الأنفس، فلا يعقب فقدها دهشة ولا فراغا، ولكن فقدان شخصية فذة في العلم والأدب والخطابة والوطنية والوفاء، كشخصية فقيدنا المؤبن الذي كان نسقا فريدا في بابه، وطرازا رائعا في خلقه وجاذبيته، يحدث فراغا لا يملأ، ورزءا ثقيلا لا يحتمل، وشرخا ملموسا من الخسران المبين... ما عبر عنه عبدة بن أبي الطيب بقوله في قيس بن عاصم :

فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

أيها الإخوة، لقد اجتمعنا، اليوم، من أجل أن نسرد في هذا الحفل التأبيني لمعا من سيرة فقيدنا، ونأتي بتحليل لشخصيته ونوابغ أعماله، قدر الإمكان، وعلى حسب الصورة التي تركها في النفس، وعلى قدر الإلمام بأعماله المجيدة، وهي جوانب متعددة ومناحي كثيرة... وإن من الصعب أن يحيط المرء بجانب حياة حافلة بالعطاء، عامرة بالحركة والنشاط... وأرجو المعذرة إن قصرت في توفية الفقيد حقه على طول عشرتي له، وتعمقي نفسيته ومساعيه، وعذري هو عذر كل من يحاول تصوير الشخصيات الكبيرة من العظماء، والأبطال والعباقرة.. فهؤلاء جميعا كالطبيعة، كل يوم هي في شأن، تلقاك بمنظر عجب، بعد منظر أعجب، وتفضي إليك بذات نفسها وسرها... ثم تحتجب عنك إلى حين لتشرق عليك من جديد بألوان معجبة زاهية، فتريك ما يفعم القلب، ويترك الألسنة تلهج بالثناء والعطر..

أيها الإخوة.. لقد ظهرت في فقيدنا، منذ صباه، بواكير النبوغ، وآيات الحرية في التفكير، والنزعة إلى التجديد الذي استمده من والده العظيم.. فإنه ربيب بيت من بيوت العلم والأدب واللغة والوطنية، وابن شيخ من شيوخ العالم الإسلامي، حراس العقيدة، وحماة الشريعة، ودعاة التجديد، ورائد من رواد الفكر الحر، وعلم من أعلام النهوض والإصلاح.. ونستحضر في أنفسنا هنا معنى الأصالة في هذا البيت الذي يتسم بشمائل، ويختص بخصائص، ويمتاز بصفات متوارثة يعرفها ممن يحفظون، لهذا البيت، في صدورهم كرامة، ويحملون له رعاية ومكانة..

ففي رحاب هذا البيت الذي كان خلية للعلم والأدب، تلقى فقيدنا دروسه الأولى على والده العظيم سواء في السفر والحضر، والظعن والإقامة، ثم على شيوخ مدينة الرباط، وقد وجهه أبوه إلى مصر ليكتمل تفوقه العلمي، وحيث يتلقى دروسه العليا في كلية دار العلوم حتى يكون

تكوينــــه الثقافــي أعمــق، والأرض مــن تحــت أقدامه أثبــت، والثــواب علــى جهــوده أجــزل... وقد عــاد إلى بلاده موفور البضاعة، واشتغل في مناصب قضائية عليا.. وقد انحاز منذ صباه إلى الحركة الوطنية، فكان من الذين، لبوا نداء الوطن المحبوب، وانطووا على مقت الاحتلال الدخيل، وأجمعوا على محاربته وجهاده في غير هوادة ولا لين، كما كان حريصا على أن يخدم بلاده وملكه ودينه، بكل ما أوتي من قوة، فكان مثال المجاهد الصابر، الذي يتلمس القوة من جوانب الضعف، ويخلق النجاح اليقين من أحاديث المنى،، ويسير فيما أملته عليه نفسه الطموح، وقوميته الصافية، وعقيدته الراسخة...

وأشهد الله أنني عرفت الفقيد معرفة وثوق وخبرة، منذ عهد الصبا، وأيام الطلب.. أيام كان الشعب المغربي يقصد ذلك البيت الرحيب، بيت أبي شعيب الدكالي الذي كان معقلا للوطنية الصادقة، وحمى للوطنيين الأحرار، وملجأ للمناضلين المجاهدين... أيام كان الاستعمار الكافر في عز سطوته وجبروته، فكان هذا البيت الكبير البطل، محاطا، في كل المناسبات الوطنية بجيوش الاستعمار وزبانيته، وهم مدججون بمختلف الأعتدة والأسلحة، والشعب المغربي يؤمه، في إيمان وثبات، ومن مختلف الجهات، ليحتفل بيوم 18 نوفمبر يوم عيد العرش الذي كان الشعراء والكتاب وأبناء الشعب يجدون في أيامه الحافلة الخالدة متنفسا لعواطفهم المكظومة، ومفيضا لعواطفهم الجائشة.. ولقد كانت قصائد الأستاذ الفقيد النارية بهذه المناسبة الوطنية الكبرى تلهب الحماس، وتتجسم فيها روح الوطن المحبوب، وتثير كوامن الوطنية الصادقة في النفوس للدفاع عن البلاد ورمز سيادتها، ومناط رجائها ومعقد آمالها مولانا محمد الخامس رضوان الله عليه.

ويكفي أن شعره وقصائده الخالدة التي يضمها ديوانه سجل وطني حافل أرخ الحوادث التي جرت في عصره، وعلق عليها.. ولعله يفلسف بهذا الشعر ذلك التاريخ الوطني المضيء الذي لا يتاح درسه واستقراؤه إلا لمؤرخ صميم، أو قارئ موفور الوقت.. فلقد ابرز في هذه القصائد ما يختلج في نفسية البيئة المغربية التي مرت بها تلك الخطوب الداجية، والأحداث المثيرة، في حربنا مع الاستعمار.. وقد اتسم هذا الشعر بالحرارة المومنة، والفكر الناضج، والذوق السليم والفن العالي، والبلاغة الواضحة، والبلاغة كما هو معلوم ظاهرة من ظواهر القوة، وأدب اللسان كما لا يخفى مظهر لأدب النفس...

لقد كان صدره رحمه الله يجيش بالشعر المثير، ويتحرك لسانه بالنثر الموقظ فتتناقل الأفواه هذه الصيحات.. كما كان شاعرا مجددا، دون أن يكون تجديده متأثرا بالاطلاع على مذاهب الشعر ومناهجه في الآداب الأخرى، ودون أن يكون تجديده كذلك ثورة على عمود الشعر العربي وتقاليده، وطابعه وخصائصه، فهذا شيء كان أبغض إلى نفسه، وانما كان تجديده سموا بالشعر على الأغراض الهزيلة المحدودة التي كان يضطرب فيها الشعراء... وكان رجعة به إلى عصور إزدهار الشعر العربي، وتخليصا له من أثقال الصنعة، وأصار الزخرف... كان يصوغ هذا الشعر، وينظم حياته لفائدة الوطن والعرش، فإنه كان من حملة العرش الأقوياء الأوفياء المخلصين.. أثر التاج بحبه منذ عرفناه، وأزره بقلبه ولسانه، بكل قواه، وأحسن السفارة بينه وبين الناس إلى أن اختاره الله إليه، بل إلى الليلة الأخيرة من حياته وهو ينظم في المدينة المنورة قصيدة وطنية يسجل فيها ذلك الحدث التاريخي الذي جمع بين جلالة الملك والرئيس الجزائري، وتحسين العلاقة المغربية الجزائرية فقال :

حقق الله ما أراد الإمام وانتهى الخلف بيننا والخصام

ولعل من حسن الطالع، واعتدال الزمان، واقبال الأمور أن تكون بطانات الملوك من هذا الطراز : قلب مؤمن، وطنية صادقة، لسان لبق، سمعة رضية، عقيدة راسخة.

أيها الإخوة : لقد ولد فقيدنا ونشأ في مكة، فتربى على الطباع العربية الأصيلة، من ثبات العقيدة، وجراءة القلب، وصرامة الرأي وحرية الضمير، وكان تاريخه كله مثلا في الشجاعة والحفاظ والأنفة والاستعلاء، وكانت أظهر صفة فيه شخصيته، وكان حريصا على أن يكون عقله ورأيه

ظاهرا أثره في كل ما يقول وما يشعر وما يكتب وما يعمل..

والتفرد في الحياة والعمل والفكر والقول والعبارة، معناه في دنيا الأدب وعالم السلوك الشخصية الممتازة المتفردة التي لا يغني عن وجودها وجود، ولا يسهل عن فقدها عوض... وكان من أثر اعتزازه بنفسه أن اعتراه ما يشبه الحساسية المرضية لكل ما يجافي شعوره، أو ينافي كرامته أو يصدمه في سره ونجواه.. فقد كان رجلا ظاهر الرجولية، بارز الشخصية، في كل رأي يراه، وفي كل عمل تولاه. وكان مظهر رجوليته، ومبرز شخصيته في اعتداده برأيه، واعتزازه بنفسه، وامتيازه في علمه، على أن اعتداده برأيه كان يحمله أحيانا على أن يصطنع لهجة قاسية عنيفة في خطاب بعض زملائه، الذين كثيرا ما كانوا يلوذون بالصمت المطبق فيكدر ذلك من صفو المودة والصداقة بينه وبينهم؛ إيمانا منه رحمه الله، بأنه لا يرضى لنفسه الضعة والصغار، إلا عاجز أو مهين..

لقد عرفت فيه الوقار، والسماحة العذبة، ونعمت بأنسه ومجلسه، وفهمت من نظرته الخاطفة، وبسمته الناطقة، ما يكون ترك وصفها أبلغ من الوصف، وأفدت من خبرته، وتجربته بالحياة وبالناس، فأنت في حضرته، لا تشتهي أن تتكلم، لأن لذتك في الاستماع، ولا تثير الخلاف والتطاول والجدال، لأن همك في أن تستفيد، ولا تعترض له قولا، ولا تنتقد له رأيا لأنه يعلم ما يريد، ويفقه ما يقول.. فكان ملء السمع والبصر والفؤاد والوجدان يحي المجالس بالملح والمحاورات، ويعمر الأندية بالخطب والمحاضرات، فقد أوتي اللسان الذلق، والبديهة الحاضرة، والقريحة الطيعة، حتى طغت عليه ملكة القول والخطابة على ملكة الكتابة..

وقد كان يتوخى في حديثه الممتع المؤنس، اللذة والافادة، يرعى الظروف، ويراعي المجاملات، ويخضع لأدب اللياقة، فيحي المجالس بروحه اللطيف، ويؤنس الجلاس بوجهه المتهلل البشوش، فكان حلو النغمة، فكه اللسان، متفنن الحديث، متخير اللفظ، ينعم ببديهة حاضرة، ورؤية ذكية، وفكر نفاذ، وذكاء لماح، وبيان أخاذ، واطلاع شامل، ومنطق مستقيم، ونظرات نافذة تخترق أعماق النفوس وأعماق الأشياء جعلته مصداقا لقول أوس بن حجر :

الا لمعي الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

فسامعه لا يبرح راضي العقل، مطمئن الفكر، ريان العاطفة..

تجلس إليه، فتقرأ في ملامحه عنوان الطيبة الواعية، وتعرف في حديثه لهجة الرجال، وتتذكر في نبرات صوته، ولحظات عينه، ولفتات ذهنه، ذلك الروح القوي الحاضر الذي يجسم لك في وضوح وجلاء شخصا متفردا متميزا اسمه السيد عبد الرحمن الدكالي.

واذا كانت المواهب الفذة لا تقف بصاحبها في دائرة معينة من العمل، فقد امتدت مواهب الأستاذ إلى العمل في التدريس، والى جهاز الإرشاد والتوجيه، الذي يعلق الإسلام على قوته أهمية عظيمة في تهذيب العامة وتثقيفها... فلقد كانت دروسه الحية، ولا سيما في الأربعينيات، حافلة بالعطاء، مليئة بالعلوم الغزار، وقد تلقى عليه نخبة مختارة من شباب الرباط ومدينة مراكش، دروسا في الفقه والسيرة والحديث والآداب العربية في مختلف المساجد، كما كان له حضور دائم ووجود حي ممتاز في إلقاء دروس ملكية يحاضر بها أمام حضرة مولانا محمد الخامس رضوان الله عليه، وجلالة الملك المحبوب مولانا الحسن الثاني أيده الله، بجانب الكبار من الفحول وصدور الاعلام..

ولعل من أبرز سمات المؤبن أنه كان مشحون الذهن والأعصاب لم تفارقه حماسة الشباب، ولم يضطلع بعمل، كيفما كان نوعه، إلا كتب له فيه النجاح المبين، ولا يفرغ من عمل الا ليستأنف سواه، وياربما باشر عملين أو أكثر، فاحتمل أعباءها جميعا، وكان من الناجحين..

وكثيرا ما كانت تعترضه في حياته عقبات، فكان يذللها في صبر وأناة وكياسة، فيخرج منها سالما، وكأن به حصانة ضد اليأس، وكأن الدهر وعراكه قد لقحه بيأس لا يلين... وكان ربما وقف في الميدان وحيدا بلا نصير.. إيمان راسخ نفس طموح، جأش مستقر، قلب ذكي، عزم حديد، همة قعساء...

كما كان عمليا يضع أمام عينيه الهدف الذي يعنيه، ثم يرميه من أقصر السبل، وأقرب الجهات.. ثم لا يلبث أن تقف بجانبه الأقدار ويعود الحظ إليه باسما يتطارح على قدميه، ويتملقه ويحابيه، ويعتذر إليه بعد تجهم وشتامة.. وبعد أن عرف الهم، وذاق الألم، واستقطر الرزق من جميع الجهات...

بجانب هذه السمات والخلال، فقد كان سمحا كريم النفس، عطوفا على ذوي الحاجات، يسعى في قضاء حاجات إخوانه وأصدقائه بما له من جاه عند أولي الأمر، لا يدخر وسعا في ذلك، ويبذل العطاء للبائس والمحروم، والفقير المحتاج، ولقد رعى أسرا عضها الدهر بنابه، حتى استقام أمرها، وبان رشدها، فإنه كان يبذل من سعيه ليواسي، وينيل من جاهه ليؤازر، ويجود بماله ليعين، ويجعل بيته سكنا لكل نفس، لا تجد الدعة ولا الأنس.. فكم تبكيه اليوم أسر كان يعولها في الخفاء، وكم له من يد على اليتامى والفقراء، وكم أنفق في تعليم محتاج، وكم سعى في توظيف عاطل، أو دفع الظلم عن مظلوم، أو إيصال الخير إلى مستحق، وأسعفه على ذلك مكانته الاجتماعية ووجاهته، وما ينعم به من خير أنفق منه الكثير، وأفاض العرف على البائسين والمحتاجين، فكان غيث المعروف، نفاح اليدين، أريحيا جوادا.

لقد عاش رحمه الله كما أراد، وانتقل إلى عفو الله كما أراد، فقد لوحظ عليه أواخر أيامه، أنه كثيرا ما كان يدعو الله أن يختم له بخاتمة الحسنى، وقد وعد أخاه أحمد رحمه الله، وهو يؤبنه أمام قبره، وقبل تسعة وعشرين يوما من وفاته، بأنه لاحق به قريبا، يعده بكل جدية وتأكيد، كما رجا حسن الختام، وهو يؤبن صديقه الأستاذ السيد عبد الله الجراري رحمه الله بمسجد السنة في ذكراه الأربعين في قصيدته التي منه :

قضيت في الأمراض عاما كاملا فالله يختم لي بخير لقاء

وقد ختم الله له بخير اللقاء...

وسيبعث كما يريد سبحانه وتعالى، وقد تغمده الله برحمته..

وأغلب الظن أنه كان في ساعاته الأخيرة، وهو خارج من الحرم النبوي، وبعد صلاة الصبح، وقد اشتدت عليه وطأة المرض، واتكأ على صديقه وحبيبه الوجيه الحاج عبد اللطيف التازي، يشعر بغبطة ورضى، وأمل وسعادة، إذ تبين له آخر الأمر أن أمنيته قد تحققت وأن خواتيم حياته رائعة، حيث دفن في مسقط رأسه، ومهبط نفسه، ومنبت عواطفه، ومنشأ هواه، وموطن مجده، ومدفن جدوده فقد خرج من الدنيا من بابها الكبير الواحد الذي يخرج منه كل حي، خرج منها راشدا موفورا، خالد الذكر، باقي الأثر، مطهر الروح من هذه الحياة... إلى رحاب رب رحيم..

وهكذا سكت اللسان الذلق سكوت الأبد، وسكن العصب الثائر، وخمد الذهن المتوقد، ووقف الفؤاد الذكي، وأصبح الأستاذ السيد عبد الرحمن الدكالي نعيا في الصحف، وخبرا في البلاد، وحديثا في المجالس، ومحمدة في الأفواه..

فسلام عليك.. فقد كنت نجما ساطعا في سماء العلم والحديث والتدريس والإرشاد، وبلبلا مغردا على دوحة الوطنية والعروبة والإسلام.. وكوكبا متألقا في أفق البذل والعطاء.. وشعلة متوهجة في دنيا الصداقة والمودة والوفاء..

وإن أحق ما نتقدم به في هذا الاحتفال الجليل، وخير ما نختم به في ذلك المقام الكريم، أن نرفع بقلوب مؤمنة، أسمى آيات الحمد والشكر، والثناء والعطر، وأسمى معاني الإجلال والإكبار إلى مقام حضرة صاحب الجلالة مولانا الحسن الثاني، فإنه - أعلى الله كلمته - لا يألو جهدا في أن يمهد لأمته سبيل العلاء، ويوطئ لها أسباب الفخر، ويستحثها في طريق المجد، ويفتح لها آفاق النصر، وله في ذلك كل يوم آية، وآية يومنا هذا أن تفضل - رعاه الله - فأوفد مندوبا عنه إلى هذا الحفل الجليل، فتم له بهذا الشرف الأعظم، كمال الروعة والجلال، وإن هذا التفضل السامي، لشرف عظيم، وفخر كبير ورعاية محمودة، لغرس أب كريم، يتفقد ربوع العلم، ويتعهدها بالسقيا والحيا، ويرعى العلماء العاملين المخلصين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ثم اتقوا، وأحسنوا...

رحم الله الفقيد، وطيب ثراه، وأجزل له من الفضل والثواب كفاء ما قدم لدينه وملكه وأمته.. وألهم الصبر أسرته واخوانه وأصدقاءه..

وانا لله وانا اليه راجعون

كلمة الأستاذ السعيد بوركبة

الكاتب العام لجمعية العلماء خريجي دار الحديث الحسنية

وبعد فإني - باسم جمعية العلماء خريجي دار الحديث الحسنية - أبى إلا أن أشارك في هذه الذكرى الأربعينية لفقيد العلم والمعرفة والأدب الشيخ المرحوم سيدي عبد الرحمن الدكالي..

وإذ أشارك فيها. فإني أعبر عن آلامي - شخصيا - بفقدانه. وآلام جمعية العلماء نيابة عنهم.

ونحن إن تألمنا عليه ساعة نعيه وتواريه عن مسرح الوجود، فإن تألمنا عليه الآن. لا يقل عن تألمنا عليه من قبل.

وكما عز علينا فراقه. فإنه عز على الكثير من الأقرباء والأصدقاء. ولا غرابة أن يكون عزيزا على الناس نعي أحد العلماء الأعلام. أو نعي شخصية عظيمة مرموقة. أو قريب من الأقرباء. أو صديق من الأصدقاء وقد تكون المصيبة أعظم. والبلية أفدح وأخطر عند نعي عالم جليل مثل فقيدنا..

لأن العلماء ورثة الأنبياء كما قال الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم. فإذا توارى واحد منهم عن أعيننا. فكأنما قد انطفأ مصباح كان يضيء الظلام !!

من أجل ذلك.فإن موت العلماء يكون له وقع شديد. وأي وقع. فتنفطر له المرائر. وتذوب له لفائف القلوب. وتنصدع من أجله الأنفس. وتنقصف منه الضلوع. وتصتك له الأسنان بعدما ترتعد له الفرائص. فتطلق له العيون العنان لعبراتها. فترسلها حرى. مستحثة من زفرات منبعثة من الأعماق !!

غير أن المصاب قد يرجع إلى الله. ويتصبر بقوله عز من قائل :

﴿كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام﴾.

كما يتصبر بقول القائل :

وكل أناس سوف تدخل بينهم
دويهية. تصفر منها الأنامل

بيد أن الإنسان قد ينسى بطبيعته ما ألم به في أمسه. ويلهو غافلا عما يجده في يومه. حتى يعترضه ما يعترضه من معوقات وآلام وفواجع !!

يا غافلا وله في الدهر موعظة
إن كنت في سنة فالدهر يقظان

فيصبح بعد أن كان معزيا ومؤبنا . معزى من أجله ومؤبنا...

تنفك تسمع ما حييـ
ـت بهالك. حتى تكونه
والمرء قد يرجو الحيا
ة مؤملا. والموت دونه !

ولقد صدق الله العظيم. حيث قال :

﴿كل نفس ذائقة الموت، ونبلوكم بالشر والخير، فتنة ! وإلينا ترجعون﴾.

فإنا لله وإنا إليه راجعون. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فإذا كان هناك من يسلينا، ويجعلنا نصبر على فقدان عالم من علمائنا الأعلام، فإن أعظم ما يسلينا عنه، وأكبر ما يجعلنا نصبر على فقدانه، هو موت رسول الله صلى الله عليه وسلم !!

فرغم كونه أعظم مخلوق خلقه الله، وأكرم وأنبل مخلوق خلقه الله، وأعلم وأجل وأزكى وأحسن شيء - على الإطلاق - قد خلقه الله فإنه التحق بربه الأعلى تاركا وراء ظهره الدار الفانية الغرور !!

وفقيدنا أيها السادة والسيدات، كان من العلماء الأفذاذ، فقد كان عالما جليلا، وفقيها محدثا، وأديبا مطبوعا، وشاعر موهوبا، وخطيبا مصقاعا، في نبل وشهامة، وذكاء وقاد، وبديهة سريعة.. فقد كان يحفظ الكثير من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، والكثير من أقوال السلف الصالح، والكثير من جواهر الشعر العربي، مما مكن له في مجال المعرفة والبيان ! وليس بغريب أن يكون كذلك، فهو من سلالة علم وفقه وحديث، وسلالة ذكاء وإشراق، وتيقظ وانتباه !!

فقد كان والده أبو شعيب الدكالي - رحمه الله - بحر علم، وطود فهم، ومشعل هداية.. فبث العلم في كل مكان نزل به، وما كتمه عن طالبه أبدا، فربى التلاميذ والطلاب والأتباع والمريدين له على استيعاب كتاب الله، وحثهم على حفظه حفظا متقنا، كما حضهم على الاغتراف من مناهل سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، مما جعله نبراسا وهاجا، يضيء الطريق لكل سالك، ويوقظ القلب لكل لاه، ويرهف الإحساس لكل غافل، فرحمهما الله رحمات واسعة، وأثابهما أحسن إثابة..

وفقيدنا، أيها السادة والسيدات، قد أدى خدمات جلى لدينه وعقيدته، مثلما تشرف بخدمة وطنه وملكه..

فكان مما أداه لخدمة دينه وعقيدته، أنه لم يأل جهدا في سبيل تفقيه الناس، وتوعيتهم توعية إسلامية كاملة من خلال دروسه في مساجد الله وفي غيرها، ومن خلال مشاركته في مختلف المؤتمرات الإسلامية التي تعقد داخل وطننا، ومن خلال تشجيعه طلبة العلم والمعارف - لا سيما ما كان يلقيه من محاضرات علمية قيمة أمام حضرة صاحب الجلالة في رمضان المعظم..

ولست أنسى له، حينما طلب مني أن احمل أمانة مادية مبلغها 5000.00 درهم لأن ادفعها إلى صاحب الفضيلة العلامة الجليل السيد الحاج أحمد ابن شقرون، من أجل أن تعطى لأحد المحامين في أمريكا لتكون من بين أتعابه، مقابل دفاعه عن فتاة مسلمة مغربية كانت تدرس في أمريكا، فراودها أحد الطلبة الأمريكيين عن نفسها، فامتنعت، فأراد إرغامها على ذلك، فدافعت عن نفسها دفاعا شرعيا، فأردته قتيلا، فألقي القبض عليها من أجل محاكمتها..

فما كان من أريحية فقيدنا، ومن غيرته الإسلامية والوطنية إلا أن هب مسرعا للإسهام في هذا السبيل، إسهاما رمزيا في الدفاع عن الفتاة، فسلمني المبلغ المذكور لأدفعه إلى العميد الجليل باعتباره المرجع في جمع التبرعات لهذا الغرض العظيم..

وإذا كان قد دافع عن هذه الفتاة، فلطالما دافع بكل قواه وبكل ما لديه من وسائل وإمكانات، عن دار الحديث الحسنية وساهم في تثبيتها وتنميتها، وناضل عنها نضالا كثيرا وشجع طلابها، وقدر أساتذتها تقديرا كبيرا رضى لله ورضى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى لمؤسسها ومنشئها جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله وأيده.

وأما ما أسده لوطنه، فيتجلى في كونه رحمه الله كان من بين المدافعين عن كيانه، والمنافحين عن حوزته بالكلمة الصريحة الصادقة، وبالقصيدة الشعرية الجزلة البليغة، فناوأ الاستعمار وقرعه، وأنبه وندد به، وجعل داره منتدى للذين يخططون لطرده من البلاد، وفكها من بين مخالبه وبراثنه..

وأما ما تشرف به نحو ملكه.. فقد كان محبا له أغلى ما يكون الحب، ومخلصا له أحسن ما يكون الإخلاص، ووفيا له كأتم ما يكون الوفاء، ومجلا له أكثر ما يكون الإجلال في كل الظروف، وفي كل الأحوال، وقد بقي على ذلك إلى أن لقي ربه.

أيها السادة والسيدات :

إن فقيدنا قد تقلب في عدة وظائف، وكلف بأكثر من مهمة.. فقد كان المرشد العام للقوات المسلحة الملكية، وكان عنصرا هاما في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ثم أسندت إليه أخيرا رئاسة المجلس العلمي من طرف الجلالة الشريفة بإقليم الجديدة وما انضاف إليها وكذا تعيينه عضوا في أكاديمية المملكة المغربية حيث أخذ على عاتقه العمل بجد وتفان وإخلاص، فيما أسند إليه من مهام.. زيادة على ما كان يشتغل به من إبراز ترجمة كاملة لأبيه المرحوم أبي شعيب الدكالي ، رأس السلفية بالمغرب، وشيخ الجماعة بدياره..

يضاف إلى ذلك، ما كان يقوم به من جمع شتات أشعاره وترتيبها ليخرجها في ديوان متكامل..

أيها السادة والسيدات،

إن آخر ميزة من ميزات فقيدنا أنه حبس خزانة كتبه العلمية في سبيل الله، وجعلها في متناول طلاب العلم والمعرفة لينهلوا من نفائسها ما شاء لهم النهل، وليغترفوا من منابعها ما هم في حاجة إليه.. وكأنه بهذه الميزة قد استشعر أجله، فلبى هذه الرغبة الملحة سابقا القدر، متأكدا من ثواب الله الذي لا ينقطع، عملا بقول مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه :

«إذا مات الإنسان، انقطع عمله من ثلاثة أشياء : صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

ومن الغريب أن يجيب فقيدنا أخاه وشقيقه هاتفيا، حينما كان بجدة، وقد سأله : هل ستجيء قريبا ؟ فقال له : لا، إن مقامي سيكون طويلا لأنني أريد التعبد بالمدينة المنورة.. وكان التساؤل عن المجيء والرد عنه هاتفيا قبل موته ببضعة أيام..

فهنيئا لك يا فقيدنا، فإن الله سبحانه ـ لا شك ـ قد تقبل عملك، وأجزل لك المثوبة والعطاء، ولا عطاء أكثر مما يسره لك وقدره، حيث أخذ روحك الطيبة أخذا يسيرا وأنت في أطهر بقعة، وأقدس مكان، قريبا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجعل مستقرك الأخير في أطهر بقعة تضم أجساد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأزواجه، وبنيه والتابعين لهم بإحسان رضي الله عنهم أجمعين.

فنم هادئا مطمئنا، قرير العين مستبشرا، تكلؤك عناية الله وترعاك عين الرحمن مع النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا..

وهنيئا لك بشهادة رسول الله لك، وشفاعته لك، حيث أسلمت نفسك وأنت بجانب ضريحه الشريف، وعقب أدائك لصلاة الفجر..

وإذا كنت دعوت الله أن يقبض روحك في أقدس مكان وأطهره، فقد استجاب لك دعاءك، مثلما استجاب لخليفة رسول الله عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قال : «اللهم ارزقني شهادة في سبيلك، واجعل موتي في حرم رسولك صلى الله عليه وسلم».

وإن تفوهت بشهادة رسول الله لك، وشفاعته لك، فإنما قد استفدته من كلامه صلى الله عليه وسلم، فيما رواه الطبراني بإسناد حسن، عن امرأة يتيمة كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثقيف : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

«من استطاع منكم أن يموت بالمدينة، فليمت، فإنه من مات بها، كنت له شهيدا، أو شفيعا يوم القيامة».

فرحماك اللهم بالفقيد الراحل، وغفرانك ورضوانك به، وارزق أهله وذويه وأصدقاءه الصبر والسلوان، وألهمنا الخير كل الخير في هذه الدنيا واملأ عيوننا بحبه، بحبك، وقلوبنا برضاك، وارزقنا رحمة من عندك، ومغفرة من دونك، وعفوا شاملا من جنابك، وثبت ألسنتنا وقلوبنا على دينك، واكتب لنا موتة هادئة في روضة رسولك صلى الله عليه وسلم فإنك نعم المولى ونعم السميع المجيب. والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

لبّى القضاءُ لك الآمالَ...

للشاعر الأستاذ قدور الورطاسي

جادت عليك يد الحمام في الحرم … فاهنأ بما نلته من رائع الكرم

لبى القضاء لك الامال فابتسمت … الكم كخير مبتم أرض البقيع

ما بين «حرة» ما حالت ميممنا … ءالت لكم «سكنى» مؤرج الديم

كم كنت تأمل أن تحظى بها فغدت … مثوى على فجأة، وعارم الندم

بشرى لكم بجوار خير مبتعث … وخير من ناصروه من ذوى الهمم

يا رحلة لنعيم الله طيبة … مثل الاريج على مواكب النسم

أعطيتها منة، ورحمة، وهدى … ممن يوادنا بسائر النعم

ما كان أكرمها في العمر - عاقبة … مغبوطة من ذوي الإيمان والشيم

في روضة من رياض الخلد صرت لقى … والناس حولك من باك، ومضطرم

فإن تكن قد هويت للبقيع فما … هوت ماتركم من عالم القمم

كم عشت في سالف النضال تغمرنا … بمحكم النثر والقصيد والحكم

تدعوا لى ساحة العراك نخبتنا … حتى توفى للبلاد بالذمم

كم كنت تلهب بالقصيد كل فتى … وتنضح السهم عن أرض، وعن قيم

كم محفل قد زها بكل «رائعة» … دفاقة بمعاني العزم في العظم

تبدى لك الرأي لا تخشى عواقبه … بل كنت عن صرخات الخصم في صمم

بينا الوفاء لعرش غير مشترط … عبر الحياة، وإن أصبت بالنقم

بينا المجالس للعرفان مشرقة … تملى كما «لشعيب» غير متهم

في ثوره من شعور مرهف عطر … في موطن الأدب الأصيل، والسلم

وإن أصبتم بهم في مشاعركم … رددتم السهم للأعداء كالحمم

برا كريما، ندى الكف مغتبطا … ثوار أندية كالحاذق الفهم

لله فيك مصاب هد أفئدة … لله جرح عميق غير ملتئم

سقيا لقبرك ما دامت سحائبنا … تحي الموات بغيث نافع عمم

وليغمر الله بالعزا جوانحنا … وليجزل الأجر للأحباب والرحم

دمعة على فقيد العلم والأصالة
الشيخ عبد الرّحمن الدّكالي

للشاعر الأستاذ محمد الحلوي

ما للرفاق اليوم في إطــــراق ... وأسـى يثيـر كوامـن الأعمـاق ؟

مالـي أرى حزنـا يخيم فوقهـا ... ودموعهـا جمدت على الآفـاق ؟

دوى النعي بمن نحب وأعولـت ... في الدارنا تحيـة بلا أطــواق

ودعت أكثر من حبيب راحــل ... فارقت يوم فراقهم ارفاقــي

واليوم يخترم المنون مودعــا ... أودى بصبر كان من أخلاقــي

ويغور نجم كان يخترق الدجى ... ويشع في وهج وفي إشــراق

ويضيع صوت جهوري طالمـا ... هز القلوب وماج في الآفــاق

من نبتة جمعت إلى أمجادهـا ... كرم الفروع وطيبـة الأعـراق

قد اولعت بالعلم وهي براعـم ... وتفتقـت عن مبدع خــلاق

عرفتـه أندتـه العلـوم مبـرزا ... ومحدثـا كالمنبـع الدفـــاق

والشعر يعرف أنه حسانـــه ... يشـدو بـه في اشرف الأسـواق !

قد كان معلمة وقلبـا واعيــا ... لثقافة من أنفس الأعـــلاق

من يبكه يبك الأصالـة والحجى ... والنبل محمولا على الأعنــاق

ومناضـلا بجنانـه وبيانـــه ... ومعلمـا لم يأل في الإنفــاق

وليبك فيه الضاد وهو خديمهـا ... في لهفة العباد والعشـــاق

وفجيعـة الأوطـان فـي أعلامهـا ... خطـب يسير بها إلى إملاق !

أسرى إلى حرم النبي يقـوده ... لرحابه فيض من الأشــواق

والموت يرصده هناك كأنمـا ... كانا على وعد لخير عنـــاق

نرثيـك والأيام تنسج في الخفا ... أكفاننا وتعدنا لوثـــاق

ما العيش إن أخذ الردى أحبابنا وخلت مجالسهم، ونام الساقي ؟
ما الروض إن رحلت بلابل دوحه ما الروض مزهوا بلا أوراق ؟
أعزز علي بأن توشد في الثرى وتغيب عن سمع وعن أحـداق
نأسى عليك وماعسى يجدي الاسى إن ودع الأحباب بعد تلاق ؟
والموت خاتمة المطاف لرحلة لم ينج قاطعها من الإرهـاق
لا شيء يسلي النفس عن أحبابها إلا الرضى بإرادة الخـلاق
ما كنت أرثي هالكا لولا الوفا للعلم والإعجاب بالأخـلاق
ولرب حي كان أجدر بالرثا ممن قضى وأحق بالإشفـاق
وعلى ضريحك صيب من رحمة وعزاؤنا عنك الرعيل الباقـي

تطوان : محمد الحلوي

قراءة في كتاب

الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى

●● يتناول الأستاذ مصطفى الشليح في العدد القادم بالدرس كتاب الأستاذ محمد بن تاويت (الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى ●●

عبد الرحمن الدكالي يرثي نفسه

نص القصيدة التي شارك بها العلامة المرحوم عبد الرحمن الدكالي في تأبين العلامة المرحوم عبد الله الجراري، بعد عصر السبت 12 جمادى الأولى 1403هـ موافق 26 فبراير 1983، بجامع السنة ـ بالرباط.
قال بعد مقدمة في الموضوع :

هذا المصاب مجالس العلماء ... وبكت عليك منابر الخطباء
وبكى عليك الدين في أوساطه ... وبكت عليك فضيلة النبلاء
قالوا أصيب العلم في فقدانه ... بل قد أصيب العلم في الأحشاء
أين السماحة والمروءة والوفا ... والدين والأخلاق في الفضلاء
أين ابتسامتك الجميلة يا أخي ... أين النبوغ ونكتة الظرفاء
بل أين عبد الله فخر زمانه ... أسفي عليه مضرجا بدماء
أسفي عليه وقد تعمد قتله ... شخص حقير أنذل النذلاء
فقضى عليه بطعنة فتاكة ... في باب منزله وبعد عشاء
يا ويله من جهل متمرد ... طعن البرئ بطعنة بخلاء
فأصاب مقتل أمة في هديها ... وعلومها ومنارها الوضاء
يا خير من عاشرته وعرفته ... شهما غيورا نادر النظراء
لله أنت مضمخ بالمسك في ... أثوابه في صورة الشهداء
أبشر فأنت بجنة الرضوان مع ... خير الورى تجزى أجل جزاء
ما مات من نشر العلوم وبثها ... للناشئين بهمة قعساء

ملغاب ذكرك يا أخي أو ما ترى ... ها أنت صوب العين للأحياء

هاهم وفود مجالس علمية ... في مسجد للسنة الغراء

جاؤوا لمجلسنا بالعدوتين وكلهم في حسرة وبلاء

ها هي روح عزيزنا وفقيدنا ... طافت ببيت الله بالأنحاء

أنت الجدير بما أرى ولأنت من ... تحياله الذكرى بخير دعاء

أنجبت للوطن العزيز رجاله ... في الجامعات ومنصب لقضاء

عباس نجلك عالم ومجدد ... ومدرس للسادة الأمراء

إن أنس لا أنسى نقاش رسالة ... دلت على ما فيه من عليـاء

قد قال لي هذي الرئاسة قلت لا ... دعني أكن من جملة الأعضاء

إني لأسعد أن تكون رئيسنا ... يا خيرة الشبان والأكفاء

إن أنس لا أنسى وأنت مؤلف ... في كل فن عالي الأصداء

والدرس في قصر الإمام وما بدا ... للحاضرين ونخبة العلماء

قد كان حقا باحثا ومحققا ... بدراسة ما فاق كل ثناء

الله يشهد أن ما سطرته ... حق صراح ليس بالإطراء

اهنأ أبا العباس علم نافع ... والصالحون بنوك خير بناء

فعليك عبد الله ألف تحية ... من كل ذي علم وذي آراء

وعليك من شعب وقفت له الحياة بهمة فعاله ووفاء

حسن الثناء وأنت أعلم بالذي ... يثنى عليه الخير في الأرجاء

أما أنا فالله يعلم أنني ... أبكيك دوما بكرتي ومسائي

وأرى بنيك كما رأيتك مخلصا ... في حبهم كالأهل والأبناء

إن أبنوك أخي فإنني عاجز ... لا أستطيع القول من إعياء

قضيت في الامراض عاما كاملا ... فالله يختم لي بخير لقاء

إني لأذكر حافظا إذ قال في ... تأبين شوقي قولة الشعراء

قد كنت أوثر أن تقول رثائي ... يا منصف الموتى من الأحياء

صديق قضى..

للأستاذ عبد الوهاب ابن منصور

نص الكلمة التي ألقاها الأستاذ عبد الوهاب ابن منصور مؤرخ المملكة أمام أعضاء أكاديمية المملكة المغربية في تأبين زميلهم الأستاذ المرحوم السيد عبد الرحمان الدكالي الذي توفاه الله إليه فجر يوم الأربعاء 30 مارس سنة 1983 قرب الحرم النبوي بالمدينة المنورة.

حضرات الزملاء المحترمين

أنكد الأوقات على المرء وأشد المواقف ايلاما له وقت ينعى فيه الأحباب، وموقف يرثي فيه الأصحاب. وقد بليت بالطامتين، وأصبت بالداهيتين، فقدت منذ سنوات إبنا علي كريما، وشيعت منذ أسابيع إلى مرقده الأخير صديقا لي حميما، كلاهما توفي فجأة، وكلاهما فارق الحياة غير بعيد عني، فما أصبر قلبي على اللأواء، وأقدر نفسي على تحمل الأرزاء.

حضرات الزملاء المحترمين

ان زميلنا الراحل الأستاذ عبد الرحمان الدكالي الذي نجتمع في هذه الأونة لتأبينه، ونخصص هذا الجزء اليسير من أشغال الندوة الحالية لرثائه، لم تفقده أكاديمية المملكة المغربية وحدها، وانما فقده المغرب كله، فقد فيه أحد علمائه الاجلاء، وأدبائه البلغاء، ومحدثيه المتقنين، وفقهائه المتفننين. وفقد فيه لغويا عارفا بدقائق العربية، مطلعا على أسرارها، حافظا لغريبها، مقيدا لشواردها، ونحويا مستقصيا لأساليب القبائل المتنوعة وطرقها المختلفة في الإعراب، ما وافق منها القواعد وما جاء منها شاذا، وفقد فيه جهينة أخبار، وراوية أشعار، ومجالسا فكها ومسامرا لبقا تزينه دعابة وقورة وتحليه فكاهة متعففة، وفقدنا نحن زملاءه في الأكاديمية بالطبع بفقده أخا عزيزا ورفيقا كريما، كنا نأمل لو أطال الله له في العمر ومد له في الأجل، أن نستفيد من غزارة علمه، وقوة حفظه، وثقوب ذهنه، وما وعاه صدره من فوائد وعوائد اهتدى إليها بفكره النير أو هداه إليها من تعرف بهم وتعرفوا به من أساتذة كبار وأدباء عظام.

عرفت فقيدنا المرحوم بأثره قبل أن أعرفه بعينه، كان ذلك في الثلاثينات وأنا أتأهب لاجتياز مرحلة الطفولة إلى مرحلة الشباب، كنا يومئذ في المدارس الابتدائية الحرة، والحركة السياسية في نمو والفكرة الوطنية في انتشار، وكنا يومئذ نتهافت ونتهاوى على كل ما يصل

المغرب من المشرق من كتب وصحف ومجلات. يرد معظمها عن طريق مكاتب البريد الإنجليزي الذي لم يكن يخضع لمراقبة أعوان الحماية الفرنسية. ووقع بالصدفة بين يدي جزء من تفسير الجواهر للعلامة المرحوم الشيخ الطنطاوي الجوهري. وهو تفسير مطول تتجاوز أجزاؤه العشرين. حرص فيه مؤلفه على إظهار معجزة القرآن عن طريق ما وقعت الإشارة إليه فيه من آيات الله في الأنفس والآفاق. ولكنه حمله ما لا يتحمل، وحشر فيه عفوا أو عن عمد وقصد كل ما وقع بين يديه أو وقعت عليه عينه من مباحث في العلوم الطبيعية والرياضية. وحتى الحوادث الوقتية والوقائع الزمنية التي قد لا تكون لها إلا علاقة واهية بالآيات المفسرة. وكان من جملة ما حشر الشيخ الطنطاوي متعسفا في هذا الجزء من تفسيره نداء موجه إلى العالم الإسلامي. ملوكه ورؤسائه. وأحزابه وجمعياته. في شأن الظهير البربري الذي استصدرته سلطات الحماية الفرنسية يوم 16 ماي سنة 1930 لفصل القبائل البربرية المغربية عن القضاء الإسلامي واستئناف أحكام محاكمها العرفية أمام المحاكم الفرنسية. وفي ذلك ما فيه من مخالفة صريحة لنصوص معاهدة الحماية التي أحكمت فرنسا بيدها نسجها واضطرت السلطان إلى الموافقة عليها وتوقيعها سنة 1912 كما أن فيه ما فيه من افتيات واضح على سيادة المغرب المضمونة بمعاهدات دولية وثيقة. وسلطة ملكه على رعاياه.

وقد كنا نحن أطفال ذلك الوقت ومن يكبرنا في السن من الشبان نتناسخ ذلك النداء بأيدينا ونحفظه عن ظهور قلوبنا. وننشره ما بين مدينة وقرية. سيما بعدما صدر قرار قائد جيش الاحتلال بمنع روجان ذلك الجزء من التفسير المذكور وقام أعوان سلطة الحماية بمصادرته وجمعه. وكنا نرتاح لقراءة ذلك النداء ونستدل بفقراته. حتى كأنه كان من محفوظاتنا المدرسية التي نسأل عن استظهارها وفهمها يوم الامتحان. ولم يكن يحز في نفوسنا إلا الجهل باسم منشئه ومحرره لنجعل له مقاما محمودا بين من نحمد مقاماتهم من أدباء العربية ؛ شعرائها المتقدمين كالمتنبي وأبي تمام. وكتابها المتأنقين كعبد الحميد الكاتب والصاحب ابن عباد. ومن البديهي أن وزن ذلك النداء بالميزان الذي ذكرت لم يكن يخلو من مبالغة بل ما يفوق المبالغة. لأن الوجدان السياسي والشعور الوطني كانا يؤثران في نفوسنا الفتية فترجح كفتهما لدينا بكفة المقاييس العلمية والقواعد التي وضعها العلماء لنقد المقولات شعرا كانت أو نثرا. ومرت بعد ذلك سنوات تتلوها سنون دون أن نهتدي إلى اسم منشىء ذلك النداء المؤثر ومحرره. حتى جرى منذ سنوات بيني وبين فقيدنا الدكالي ذكر سياسة فرنسا البربرية. فإذا به يحدثني عن جهود وأعمال مما كان يبذله ويعمله هو ورفقاء له مغاربة كانوا يقيمون يومئذ بالقاهرة ويطلبون العلم فيها لإحباط تلك السياسة وإظهار شعوب العالم الإسلامي على ما فيها من مخاطر على الدين الإسلامي واللغة العربية. وكان مما ذكر لي أنه حرر بقلمه نداء موجها إلى العالم الإسلامي نشرته الصحف الشرقية في ذلك الوقت ونقله الشيخ الطنطاوي الجوهري في تفسيره. فخاطبته في نفسي قائلا : على الخبير سقطت. وازددت به إعجابا وله تقديرا. وفرحت بالعثور على ضالتي بمعرفة كاتب مقال ترتبط به ذكريات طفولتي. وسرني أني لم أمت وفي نفسي شيء من الجهل به يشبه ما كان في نفس الفراء من حتى لما مات.

وأوقد الأوربيون نار الحرب العظمى الثانية في شتنبر سنة 1939 وغلبت فرنسا على أمرها في شهر جوان سنة 1940 ونزل الجيش الأمريكي بشواطيء المغرب في شهر نونبر سنة 1942 وقدمت وثيقة المطالبة بالاستقلال في شهر يناير سنة 1944 وزار الملك المرحوم محمد الخامس طنجة في شهر أبريل سنة 1947 وخلال تلك السنوات وما سبقها ولحقها وواكبها من وقائع وأحداث كنت أتعرف على الفقيد بأثره دون أن أراه. فازداد إعجابا بأدبه وشوقا إلى لقاه. كنت أتعرف عليه من خلال أصداء دروسه العلمية بحضرة أمير المؤمنين الملك المرحوم محمد الخامس طيب الله ثراه. تلك الدروس التي كان لا يشارك فيها إلا جهابذة الفقهاء وكبار المحدثين. ومن خلال أصداء دروسه الحديثية واللغوية بمسجد باب دكالة ومسجد ابن يوسف من مراكش الحمراء. ومن خلال الأشعار التي كانت تجود

بها قريحته بمناسبة عيد العرش، تلك التي كانت تفيض بتمجيد أقنوم الأمة ورمز وحدتها وسيادتها . ومن خلال القصائد الغزالية التي كانت تمشي بين الناشئة والأدباء على استحياء مشي قصائد معاصره الشاعر عبد الرحمان حجي السلاوي، ولما بلغتنا قصيدة شاعر الحمراء محمد ابن إبراهيم التي أنشدها بين يديه يوم ختمه صحيح الإمام البخاري ومطلعها :

أماري في علمه أماري ؟ وله يشهد الإمام البخاري

صح عزمي على شد الرحل للقاء، لأن الذي قيلت في حقه تلك القصيدة خليق بأن تشد إليه الرحال، وان تتطلع العيون وتهفو النفوس إلى رؤيته والسماع منه من بين الرجال.

وعاد الملك من منفاه سنة 1955 فنشط المغرب من عقال، وزالت المعوقات وارتفعت الموانع، وانتقل عدد من شبان المغرب المثقفين ورجاله المكافحين إلى سكنى مدينة الرباط، ليتبوأوا ما أهلهم له علمهم أو جهادهم من مناصب في حكومة المغرب المستقل وادراته، فتلاقينا وتعارفنا وتحاببنا وتصادقنا، وتساقينا كؤوس الشعر وتجاذبنا أفنان الأدب والتاريخ، لم يكن يمر علينا في البداية أسبوع دون أن ننعم باجتماع ونظفر بلقاء، ومن الاجتماعات المبكرة التي بقيت عالقة بذهني اجتماعات وقعت ببيته لتأسيس رابطة علماء المغرب ضمت منهم نخبة تنتمي إلى الجيل القديم وأخرى تنتمي إلى الجيل الجديد، ثم صرنا نتشاور في أمورنا ونتعاون في أعمالنا، هو من مكتبه في وزارة الدفاع الوطني كمرشد عام للقوات المسلحة الملكية، وأنا من مكتبي كرئيس للقسم السياسي بالديوان الملكي، ثم نما اللقاء وكثر الاجتماع في العشرين سنة الأخيرة لما اختاره صاحب الجلالة الملك المعظم الحسن الثاني، أيده الله ليكون جليسا محاضرا وأنيسا سامرا، فكنا نلتقي - أحيانا في اليوم مرتين أو أكثر، وكان يشارك في المواضيع العلمية التي تطرح على بساط المناقشة بالحضرة الملكية، لا سيما ما يتعلق منها بمسائل اللغة العربية وقضايا الدين، وكانت تدخلاته هادفة جادة مليئة بالحجج الدينية والشواهد اللغوية والتاريخية، كما لم تكن تخلو من حدة غير نابعة من حقد أو منافسة، لأن الصفاء والتسامح والوئام كانت تعود ثلاثتها فتهيمن على جو العلاقات الشخصية بمجرد ما ينتهي الحوار والجدال ويتم الكلام.

وقد سبرت - فيما يتخيل إلي - خلال ربع قرن أغوار نفسه ونفذت إلى أعماقها، وتبينت الكثير من شيمه وخيمه، وخلاله وخصاله.

تبينت أنه رجل مسلم راسخ العقيدة وطيد الإيمان، يعمل جاهدا لإظهار محاسن الإسلام ودفع الشبهات عنه، والتعريف بمحاسنه ومزاياه، من خلال ما نطقت به الآيات ووردت به الأحاديث وأظهره الرسول الكريم وخلفاؤه الراشدون وتابعوهم بإحسان من سلف الأمة الصالح في المجتمع الإسلامي من حسن تعامل وقويم سلوك، ويدخل في هذا الباب ما كان يزود به جنود القوات المسلحة الملكية - يوم كان مرشدهم العام - من إرشادات رتيبة تحرك في الجندي والضابط مشاعر الإيمان بالله والثقة به والاعتماد عليه، وتنمي فيه وجدان أن محبة الرسول والرغبة في التأسي به والاهتداء بهداه، وتهيئه للتضحية عن طواعية ورضى بحياته، وهي أعز ما يملك وأثمن ما ينفق، دفاعا عن الوطن ومقدساته، ويدخل في هذا الباب سعيه الحثيث لهدي غير المسلمين إلى الإسلام، عملا بقول الرسول الكريم : لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس أو خير لك من حمر النعم، وخلال ذهابه سنة 1960 إلى دولة الكونغو التي تسمى اليوم زايير مع التجريدة المغربية التي قادها الجنرال بنحمو الكتاني هدى الله إلى الإسلام على يديه عشرات وعشرات من سكان ذلك البلد الإفريقي البعيد، ذكر لي رحمه الله أنهم تجاوزوا المئتين عدا.

ومن هذه الزاوية الدينية يدخل أيضا حبه لآل بيت الرسول وتعظيمه لهم واحترامه إياهم، وما لقيته مرة بعد غياب دون أن يبدأني بالسؤال عن أسياده الشرفاء - حسب تعبيره - يعني أهلي وأولادي، فكنت أخجل من سؤاله وأتعجب من تواضعه، وأجيب بما يشعر بعلو مقامه ورفعة مكانه وثواب حسن ظنه وسابغ وده، كما يدخل في هذه

الزاوية بره بأبيه وإجلاله إياه. ماذكر بيننا الشيخ أبو شعيب الدكالي رحمه الله مبادرة منه أو مباداة من أحد جلاسه إلا انبرى للإشادة به والتنويه. وشرع في ذكر أخباره ورواية وقائع حياته والإخبار بمواقفه من القضايا والأحداث. وإيراد نبذ مما جرى له مع الطلبة والعلماء. كل ذلك بأسلوب مشوق أخاذ. يغلب عليه طابع الفخر والإعجاب. حتى كان بعضنا يلقبه مزاحا وتظرفا بحدثني أبي.

وتبينت أن الرجل وطني. صادق في وطنيته. قوي التعلق ببلده. يفضله على غيره من بلاد الله ولا يفضل عليه سواه. شديد الاستمساك بعاداته وتقاليده. عظيم الحب والاحترام لملكه يرى أن حبه من حب الله وطاعته من طاعته. كان همه الأكبر. وديدنه الأعظم. أن يعمل ما يرضي ملكه عملا نصوحا. ويسل من لسانه عضبا صارما لقطع ألسنة من يتطاول على المقدسات الوطنية في الداخل أو الخارج. وهو في ذلك غير منافق ولا متزلف. وكان جلالة الملك يعرف منه هذه الخلة ويكبر فيه هذه الخصلة. فيسند إليه المهام التي تناسب تكوينه وتفكيره ومواهبه واستعداداته. مما يكون في الغالب ذا صبغة سرية أو سمة أسروية. فيقوم بها على أكمل وجه ويؤديها أحسن أداء. في تكتم شديد وإخلاص وطيد.

وكان جوادا كريما لا يبخل بمال. إطعاما ليتيم. أو عونا لمسكين أو مساعدة لطالب. وآخر ما فعله في هذا الصدد تحبيسه مكتبته الكبيرة الغنية على المجلس العلمي بالجديدة الذي هو رئيسه.

وإذا نكبت جانبا عن ذكر هذه الصفات الخلقية وانتقلت إلى ذكر صفات أخرى مما كان يستشعره طبعا أو تطبعا وجدت أن من أهم مميزاته ذاكرته القوية وحافظته الواعية. شنشنة ورثها عن أبيه. لقد كان الرجل يحفظ أشعار العرب الغريبة وأخبارهم العجيبة. دع عنك كلام الله وحديث الرسول. ويستظهر معلقات العرب وأراجيزها ومقاماتها وموشحاتها. وطرائفها ومستملحاتها. مثلما كان يحفظ المتون التي بينت أحكام الدين وتضمنت قواعد العلوم. إذا سئل عن شيء منها اندفع كالسيل يروي ما يستحضره فيه بديهة وارتجالا من غير إعداد ولا تهيىء. وأذكر أنه جرى منذ سنتين في إحدى المسامرات بالحضرة الملكية ذكر قضية سدانة الكعبة وكونها خالدة تالدة في بني شيبة إلى يوم القيامة. وكأن بعض المسامرين فهم أن تخصيص بني شيبة بهذا الامتياز إنما هو لأمد محدود بعصر النبوءة. فرد عليه أحد السمار بأنه امتياز مؤبد مطلق غير مقصور على زمان معين. وكانت الساعة تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل. فطلب زميلنا المرحوم بالهاتف وهو أو إلى فراشه مستغرق في نومه. وطلب منه أن يروي الحديث النبوي الوارد في المسألة. فانبرى مثل سهم انفصل عن قوسه يروي الحديث كما ورد في الكتب الصحاح ويذكر رواته ورواياته كما وردت في كل مسند وجامع صحيح. فارتفع الأشكال وسكت الجدال.

وكانت له آراء في اللغة جريئة أو طلائعية تقدمية كما يقال بلغة العصر. إنه كان يحفظ الغريب ويستقصي الشاذ من لهجات القبائل العربية. ولكنه كان يرى أن اللغة الأم التي لا يصح العدول عنها هي لغة قريش التي نزل بها القرآن. وأن الغريب والشاذ لا يمكن أن يركن إليه ولا أن يحتج به. لأنه ناتج عن كذب الرواة والوضاع أو متسبب عن علل وأدواء أصابت أوتار الحلوق ومخارج الحروف. مما لا يمكن الاعتداد به ويجب حذفه من القواميس تيسيرا لحفظ اللغة وتجلية لمحاسنها.

وكان شاعرا جياش العاطفة مرهف الوجدان. يختلف جرس أشعاره حسب موضوع القصيد. فهو كقصف الرعد وهدير الجمل إذا كان شعرا حماسيا. وهو جزل سلس حسن النغمة رقيق اللفظ عذب الموسيقى إذا كان شعرا غزليا أو عاطفيا. ولقد طرق رحمه الله جميع أبواب الشعر. مدحا وهجوا. وتهنئة ورثاء. ووصفا وغزلا. وكان في سني حياته الأخيرة يبخل برواية شعره الغزلي ويكتم الدواعي التي أوحت به. وقع له ذلك ما وقع لأبي العتاهية وهو يستدبر الدنيا ويستقبل الآخرة. حتى أنه لما شرع قبل وفاته بقليل في إعداد ديوانه للطبع لم يضمنه إلا أشعاره الوطنية والحماسية. لكن من رافقوه وعاشروه ستستحلي آذانهم طيلة بقائهم أحياء ما سمعوه من شعره الجزل الرقيق. وتغمر

نفوسهم الحسرة والكآبة إذا كان مصير شعره الغزلي مصير أشعار أخرى عفى عليها الزمان. وطواها في سجفه النسيان. ان الإنسان عندما يسمع قصيدته التي خاطب بها في صباه وصبوته محبوبته. والتي يقول في مطلعها :

قولي بربك هل قرأت كتابي ؟

إني كتبت حروفه بدموعي

لا يقدر أن يملك نفسه من الإعجاب والتصفيق. ولا يمكنه إلا أن يهتز لسماعها اهتزاز العصفور بلله القطر. ويطرب لرقتها طرب النشوان مالت به الخمر.

حضرات الأعضاء المحترمين

كان زميلنا المرحوم ـ وهو من مواليد مكة المكرمة ـ لا يفتأ في السنوات الأخيرة يدعو الله أن يختم حياته بأحد الحرمين الشريفين. وفي مثل هذا اليوم من الشهر الماضي لقيته مساء بدار سفير جلالة الملك بجدة وهو بادي البشر موفور الصحة. ثم رأيته في رحاب الحرم النبوي بالمدينة المنورة مساء يوم الثلاثاء 29 مارس. وهو ليلة موته وقد زاغت عيناه وبدا عليه التعب ولفه بثوبه الإجهاد. فتصافحنا وتساءلنا. ودعا لي ودعوت له. ثم افترقنا لينعاه إلي الناعي قبل متوع الصباح.

كان موته فجأة بعد أدائه صلاة الصبح بالمسجد النبوي دليل عناية الله به ورضاه عنه. إذ استجاب سبحانه وتعالى دعاءه فتوفاه بأقدس بقعة في الأرض وأشرف مكان.

حضرات الزملاء المحترمين

ان أكبر دين خلفه الفقيد في أعناقنا ويجب أن نبرئ ذمتنا منه بأدائه له بعد مماته. هو أن نؤلف لجنة لجمع ديوانه وطبعه ليستفيد من أدبه الغض. وشعره الجزل. عشاق الأدب وهواة الشعر. وان ذلك لمن موضوعات هذه الأكاديمية ومشمولات مهامها. ومن أحق بتكريم زميلنا الخالد الفاني منا نحن الخالدين الفانين !

رحم الله فقيدنا العزيز وأسكنه فسيح جناته. وانا لله وانا إليه راجعون.

الرباط ـ **عبد الوهاب ابن منصور**

تعقيبٌ على الدكتور لويس عوض

●● ننشر في العدد القادم تعقيبا للأستاذ عبد الغني القاسمي على سلسلة مقالات كتبها د. لويس عوض حول المصلح الإسلامي الكبير جمال الدين الأفغاني ●●

فهرس العدد 230

مطبعة فضالة . المحمدية . المغرب
رقم الايداع القانوني 1981/3

يا أجمل ما تبصر عيني

للشاعر الأستاذ وجيه فهمي صلاح

ياجنة خلد يا وطني	يا أجمل ما تبصر عيني
وأعز تراب في الكون	بالروح تفدى والبدن

لتظل منيرا بالحسن

من حقق وحدتنا الكبرى	من أحرز بالسلم النصرا
وأفاض على الرمل البشرى	بمسيرة فتح للصحرا

روح القانون أبي السنن

فمليكك يا وطن المجد	نبراس كفاح وتحدي
ووريث العز عن الجد	ومنار الحكمة والرشد

فلتبق عزيزا بالحسن

ولأنت الأخضر والأنضر	ومياهك تجري كالكوثر
وصباحك حلو كالسكر	بالعرش وبالشعب منور

وشعاع الفكر مدى الزمن

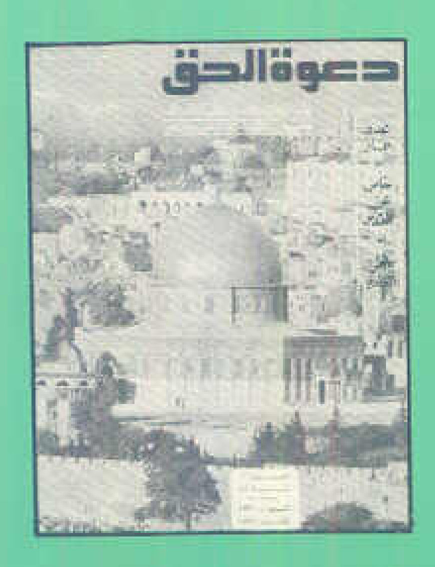
الله يبارك وحدتنا	وسدد دوما خطوتنا
ما دام العاهل قدوتنا	وهداه ينير بصيرتنا

ستظل مصابيح الزمن



















صدر العدد الأول في يوليوز سنة 1957